كتاب التّبيان

عن الحادثة الكائنة
بدولة بني زيري في غرناطة

obeikandl.com

obeikandl.com

المكتبة الأندلسية

كتاب التّبيان

عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة

تصنيف

الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس

حرّره

الدكتور علي عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعتي المنيا والإمام بالرياض

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - ٥٩٢٨٤١١ / فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com

رقم الإيداع	٢٠٠٦/٨٧٦٨
الترقيم الدولي I.S.B.N.	977-341-268-7

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة هذه الطبعة

المؤلف ونسبة كتاب التبيان إليه:

هو عبد الله بن بُلُكِّين بن باديس بن حَبُوس الصِّنهاجى: آخر ملوك غرناطة، من الدولة الصنهاجية، فى أيام ملوك الطوائف بالأندلس، وليها بعد وفاة جده باديس بن حبوس سنة ٤٦٥هـ، واستمر فيها إلى أن هاجمه يوسف ابن تاشفين وتغلب عليه سنة ٤٨٣هـ، وأخذه معه فى عودته إلى مراكش، وضم إليه أخًا له اسمه تميم، وأنزلهما بالسوس الأقصى، وأقطع لهما إلى أن هلكا، فاضمحل ملك «بلكانة» من صنهاجة ومن إفريقية والأندلس أجمع.

وهو صاحب كتاب «التبيان» الذى نقدم له اليوم، وهذا الكتاب رآه النباهى مؤلف «تاريخ قضاة الأندلس» ونقل عنه، وسماه النباهى ص ٩٣: «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة» ثم نقل عنه بعض الأخبار، ونسبها إلى الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس هذا.

ثم كرر النباهى النقل عنه مرة أخرى فأورده فى ص ٩٧ بقوله: ومن الكتاب المسمى «بالتبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة» تصنيف أميرها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس، وقد تكلم فى أمر المرابطين، فقال ما معناه: «إن أمير المسلمين يوسف بن تاشُفين، لما استقر بسبتة، يروم عبور البحر برسْم الجهاد فى الأندلس، وجه إليه الأمير عبد الله المتقدم الذكر، قاضيه ابن سهل، رسولاً... إلخ».

موضوع كتاب «التبيان»:

كتاب التبيان عبارة عن مذكرات فى ترجمة حياة الأمير عبد الله بن بلكين وحوادث عصره، وهو عصر ملوك الطوائف، ويتناول فيها مقدم بنى زيرى إلى الأندلس، وإمارة والد جده حبوس بن ماكسن، ثم إمارة جده باديس بن حبوس، وحوادث عصره، وحروبه وسِيَر ملوك الطوائف المعاصرين، ومقدم المرابطين وتدخلهم فى شئون الأندلس، ثم يتناول حوادث حياته الشخصية، حتى انتهاء ملكه واستسلامه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وقد كتب هذا السفر عبد الله بن بلكين أثناء حياته فى المنفى.

هذا وقد أخرج لنا الأستاذ ليفى بروفنسال هذا الكتاب بعنوان «مذكرات الأمير عبد الله» وطبعته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٥م.

أما نحن فى طبعتنا هذه فقد آثرنا التسمية الصحيحة والحقيقية لهذا الكتاب، وهى ما صرح به المؤرخون القدامى الناقلون عن كتاب الأمير عبد الله.

د. على عمر

القاهرة فى فبراير سنة ٢٠٠٦م

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الأولى

إنَّ المصنَّف الذى سيوجه الجزء الأكبر من نصّه هنا ـ وهو كلُّ ما عثُر عليه لحدٍّ الآن ـ سبق أن عُرف لدى كلٍّ من درس تأريخ الأندلس بعض الشيء، وعلى الأخصّ العهد المسمَّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التأريخ، الموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ولقد نشرتُ منه، فى فترتين، أولاً ثلاث قِطَع، ومِنْ ثمَّ قطعتين واسعة كلَّما اكتُشف شىءٌ منها، وذلك فى مجلّة «الأندلس» الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ - ٣٩ وفى عام ١٩٤١، وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية، بعد فترة وجيزة، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديقى الأستاذ، غرسية غومس، للمجموع الذى ألِّف بين أجزائه اليوم، ما عدا الصفحة الأولى، وفراغًا طويلاً يؤسف له فى وسط الكتاب، وستصحب هذه الترجمة بمقدِّمة مفصَّلة وبمجموعة من الملاحظات التأريخية والجغرافية أحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يطَّلع بتفصيل على المؤلَّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتأريخية.

سأقتصر هنا إذاً على بعض الإشارات الأساسية، فليس من المألوف أن نجد فى تأريخ العالم العربى ملوكًا أو شخصيات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم، فكتبوا مُذكِّراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة، إنَّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق، فإذا وُجد فى الغرب الإسلامى بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب فى القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) فلا يعرف

من هذا الصنف التأريخى إلا مصنَّفٌ واحدٌ يذكر، وهو كتاب البَيْذَق صاحب المهدى ابن تومرت مؤسِّس المُوَحِّدِيّة، وقد وفِّقتُ منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال فى إسبانيا ظلَّ مجهولاً إلى ذلك الحين، وإنَّه لتوفيق آخر ليس أقلَّ سعادة من الأوَّل، أن أحصل، بعد سنين طويلة، وجزءًا بعد جزء، على مصنَّف لترجمة شخصية لا يقلُّ أهميَّة عن الأوّل، وهو مصنَّف الأمير عبد الله، الذى كانت كراريسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهملة منذ ستة قرون على الأقل، فى جناح تابع لمسجد القرويين بفاس.

وقد كنا نعرف، بفضل إشارة واردة فى كتاب «الحُلَل المَوْشية» المجهول المؤلِّف، أن الأمير عبد الله كان قد دوَّن تأريخًا عن الدولة التى أسَّستها أُسرتهُ فى إسبانبا والتى كان هو آخر ممثِّليها، وعندما أصدرتُ فى ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتعلق بالأندلس من كتاب «أعمال الأعلام» لابن الخطيب، جلبت انتباهى الفقرة الآتية (ص ٢٩٩): «وقفتُ على ديوان بخطٍّ عبد الله بن بُلُكِّين ألَّفه بعد خلعه بمدينة آغمات وقرَّر فيه أحواله والحادثة عليه ممّا يستظرف من مثله، أتحفنى به خطيبُ المسجد بآغمات، رحمه الله» وبفضل إشارة أخرى وردت فى نفس الكتاب، نعرف أنَّ ابن الخطيب قد زار آغمات وزار قبر المعتمد بن عبّاد فى سنة ٧٩١ (١٣٩٠) فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذى استعملناه، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة، فهو على الأقل نسخة ثانية كُتبت عن الأصل وقُبلت معه، كما تثبت ذلك الإشارة المتردِّدة: «صحَّ، أصلٌ».

وأخيراً، اكتشفت لى صدفة من صدف المطالعة العنوان التامّ لمذكّرات عبد الله: ففى فقرة من كتاب «المرقبة العليا» (ص ٩٧) وهو مصنَّف فى مراتب القضاء بالأندلس لمؤلِّفه المشهور ابن الحسن النُّباهى (وقد نشرته فى القاهرة سنة ١٩٤٨) يتبيَّن أنَّ كتاب عبد الله كان موسومًا بـ «التِّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة».

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلام عمّا يُقصد منه: فالمؤلِّف الذى عُزل ونُفى قصد إلى سرد تأريخ دولته وظروف عزله.

* * *

من كان الأمير عبد الله هذا، وأيَّة قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه؟ فلأكْتَفِ هنا بتلخيص ما نشرتُه عنه أخيراً فى الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية، ج ١، ص ٤٥):

كان عبد الله بن بُلُكِّين بن باديس حَبُوس بن زِيرِى الملك الثالث والأخير لمملكة غرناطة التى أسَّسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بنى زيرى البربرية الصِّنهاجيّة، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة، وُلِد فى سنة ٤٤٧ (١٠٥٦) وعُيِّن عند وفاة أبيهِ بُلُكِّين سيف الدولة فى عام ٤٥٦ (١٠٦٤) كولىٍّ عهد لجدِّه الأمير باديس بن حَبُوس، ثمَّ اعتلى بعده عرش غرناطة فى سنة ٤٦٩ (١٠٧٧) بينما أصبح أخوه تميم المُعِزّ مستقلا فى مالَقة، ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلا سلسلة طويلة من الاضطرابات فى داخل مملكته، والمشادات المسلَّحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين، والمواطآت مع ملك قشتالَّة ألفُونْش السادس، وساهم عبد الله فى وقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لِيِّط عند تدخُّل المرابطين فى إسبانيا، لكن اتفاقاته مع الملك النصرانى أدَّت

به إلى ضياع عرشه، فقد جاء الأمير المرابطى يوسف بن تاشُفِين لمحاصرته فى غرناطة عام ٤٨٣ (١٠٩٠) فاضطرَّ إلى أن يسلم نفسه إليه، فعُزِل عن ملكه وأُرسل إلى المنفى بمدينة آغمات، فى جنوب المغرب الأقصى، حيث انتهت حياته.

أما كتابة عبد الله لمذكِّراته، فقد كانت أثناء إِقامته الإجبارية فى آغمات، وإنَّ هذه الترجمة الشخصية تكوِّن أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلَّها تحويراً، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة، وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التى يحاول فيها المؤلِّف أن يبرِّر موقفه السياسى أمام الأخطار التى كانت تهدِّم مملكته، فإنَّ كتاب «التبيان» يقدِّم لنا سَرْدًا مفصَّلاً جدّاً لجميع الحوادث التى أدَّت إلى استيلاء ألفونسُ السادس على مدينة طُلَيْطُلة عام ٤٧٨ (١٠٨٥) وإِلى تدخُّل المرابطين فى شبة جزيرة إبريا فى السنة التالية.

كما أنَّ مذكِّرات عبد الله هى وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول، يساعد بصورة أفضل من كُتُب التأريخ التى أُلِّفت من بعد، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعى والسياسى فى الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها، وعلى التقدُّم الذى حقَّقه فى هذا الوقت أنصار استرجاع إِسبانيا المسلمة فى النصرانية، ومن جهة أخرى، إنَّ قصَّ الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضًا أمرٌ جديدٌ وهامٌّ جدّاً، ويجبَ إذًا أن نعتبر مذكِّرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض، وذلك ابتداءً من العصر الذى تنتهى فيه مؤلَّفات ابن حَيَّان، وإنَّ هذه الفترة التى سأصِفُها بحول الله فى الجزء الرابع فى كتابى «تأريخ إسبانيا الإسلامية» ستوَضَّح بصورة أوسع

وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنية لا يرتاب فيها.

*   *   *

إن مخطوط مذكِّرات عبد الله يحتوى فى مجموعه على ٨٠ ورقة من القرطاس السحيك ومن القطع الكبير (٢٣ × ٣١ سنتيمتر) وهو مسجَّل فى مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦، خطُّه من الخطّ المبسوط الأندلسى، والنسخة على العموم فى حالة جيِّدة عدا ورقتين ممزقتين جداً.

وقد أرفقنا مع النص ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب «البيان المغرب» لابن عِذارِى المراكشى، ومن كتاب «الإحاطة فى تأريخ غرناطة» لابن الخطيب، يتعلَّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيَّتين هامَّتين فى دولته، وسيجد القارئ خريطة تساعده فى الوقوف على أهم المناطق الجنوبية فى إسبانيا مما جرى ذكرها فى النص.

أودُّ فى الختام أن أنبِّه قرَّائى الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات فى تأليف الأمير عبد الله إلى أن لغته، مع أنها صحيحة، قد تأثَّرت إلى حَدٍّ باللغة العامية الأندلسية، وأنه يلزم الرجوع بصورة خاصة إلى «ملحق القواميس العربيَّة» لدوزى لفهم بعض الألفاظ التى تبدو خاطئة.

وليس من الضرورى أن أنبِّه القراء من جهة أخرى إلى أن العناوين التى أُضيفت داخل النص للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن موجودة فى النص الأصلى.

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيه ١٩٥٥

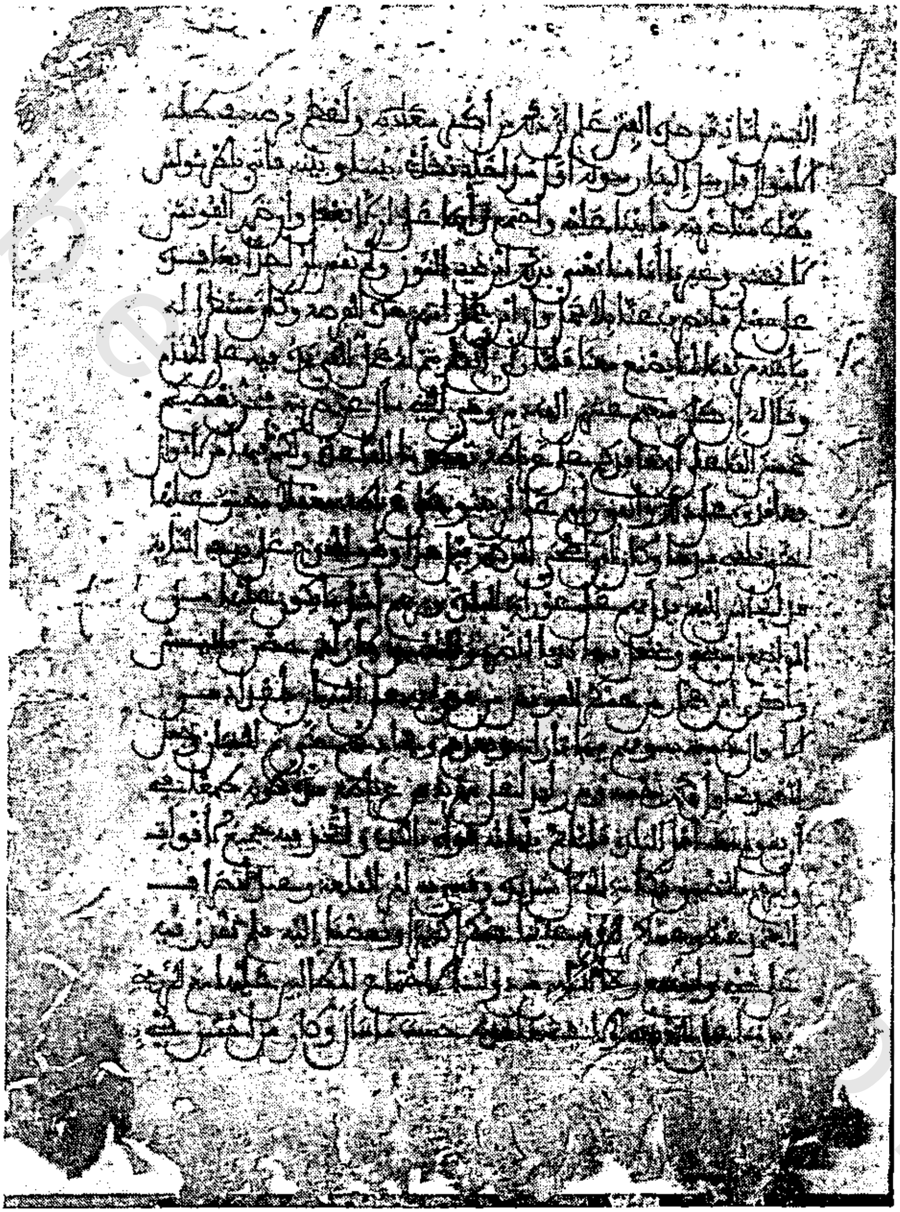

«مذكرات» الامير عبد الله

صفحة من الاصل المخطوط

الفصل الأول

نظرات عامة للمؤلف

obeikandl.com

١- القواعد التى يتعين للمؤلف اتباعها:

. . .[١] واستنباط الغريب الذى لا يعقلـه كثير من الناس، فإن ذلك يولد خشونةَ اللفظ، الذى تمجُّه الأسماع.

والكلامُ، إذا خرج من القَلْب، وقع فى القَلْب، ولا خَيْر فى رامٍ رَعِش، ولا متكلِّم هائب، فإنَّ الهَـيْبة فرعٌ [مـن] المخافة، والمـخافة فرعٌ [مـن] الحذر، ومَنْ حذر فـقد عَقْلَه، ومَنْ خاف، تكدَّر عـيشُه، ولا تصحُّ مع هذا قريحةٌ ينطق عنها اللسان، ويذكى بهـا الجَنان، فالنفسُ إذا منعت ما تشتهى، تُرَى مختلطة، وتصير كأنَّها بطوارِقِ الخبل مختبطة.

ولا يجب على الناطِق والكاتب أن يتَّـبع هواهُ فى أَمْرِه كلِّه: فكلٌّ مفـتون ملقَّنٌ حُجَّـتَه، ولا عليه أن يرفق ذلك، فـيكون بانيًا على غيرِ أصْل وعـاملاً لغَيْر نهاية، وعسى بذلك يسعى فيمـا يُصلح غيْرَه ويُفسد حالَ نفسه، وهو لا يشعر، بل يصرف نفســه على فرقَيْن: يسعَى فى بلوغ أمَلِه وإدراك مُراده دون أن يكون ذلك مُخِلا بذكـره ولا غرضًا لعدوِّه، وكلٌّ بيـان ما لم يكن صوابًا، فهذَرٌ.

وليس يُحْمَـدُ لواضعِ كتابٍ أو ناظمِ خبَـرٍ أكثر من جودة التـأليف فقط، لأنَّه إنَّما وضع ما قـد سبقه إليه غيرُه، وكلٌّ أحـد ينفق ممَّا عنده، وإنَّ الأوَّل لم يدع للآخر شيئًا، فلو كان نطقُ الناس إحالةَ بَعْضهم على بَعْض، ما سُمع أحَدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكرٍ، ولا يتبرَّع فى [شىءٍ] ولكنَّ الأولَى

---

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه فى قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٨).

وليست الفائدة فيما قصَدْنا إليه ذِكْرَ خَبَرٍ يوصف ويأتى عليه نادرة مستطرفة، أو حكاية مستغربة، أو معنًى يؤدِّى إلى تأدُّب وانتفاع، فلَعَلَّك ـ أيُّها المتأمِّل كتابَنا ـ أن يكون عندك أو طرأ إليك خَبَرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تَجِده منصوصًا هُنا، فتُعْجِز واضِعَه: فليس إلا كما قدَّمناه، اللَّهُمَّ إلاَّ أن يكون حديثًا يؤدِّى إلى القيام بحُجَّة صاحبه والاعتذار عنه من أمْرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة، فنَطَق هَذَرًا، وساعَدَ عليه أقوامًا لم يخسروا فى عرض غيرهم شيئًا، وطعنوا على غائبٍ أو ميِّتٍ لم يُحرِ الجواب عن نفسه، أو دليلاً لم ينتصر لعَرْضه.

أو أبان المؤلِّف عن نفسه حِذْقًا ومعرفةً تُذْكَر عنه وتُنشر بعده: فإنَّ ذلك من آكَد ما يجب له السعىُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسِّه فى تلخيصه، إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بجميل الثناء، وأنفةٌ لسوء المقال، ونشاطٌ على ترفيع الذكر، مع فتور(١) الهمة وصبوة القريحة، وإلاَّ، فالأمرُ ناقصٌ منه، واللسانُ عيىٌّ عنه.

ولا سبيل إلى اجتماع أمرَيْن مختلفَيْن فى الإنسان معًا، ولا فى غيره من جميع المخلوقات، فإنَّه، مَتى ارتفع أمْرٌ، نزل ضِدُّهُ: كالحياة، إذا ارتفعت، وجب الموت، وإذا ارتفعت الصحَّة، وجب السقم، وإذا ارتفع الكرب، وجب الفَرَج.

هكذا نسق كلِّ أمرٍ: كالعامل للآخرة محضًا، لا بُدَّ له من نقصان دنياه.

(١) فى المطبوع: «فتو».

ألا تَرَى أنَّ مؤلِّفَ الـكتاب، إن كان غَـرَضُه نَظْم الكلام وسَـجْع اللفظ، كان ذلك ضارًا بالمـعنى، وإن أتَى به، فإنَّما يسوقه بعـد تحليق عليه، ورُبَّما وضعه من غـير شكله، وإذا تمَّ المعنَى، نقص بَعْضُ اللفظ، كـما قيل: «إذا تمَّ العقلُ، نقص الكلام».

وأرَى أنَّ مساقَ الحـديث فى التأليف بَعْضه لبَعْض أحـسنُ خرطًا وأفضلُ نظمًا من تقطيعه، ولـهذا نُرِيدُ إيرادَه كالحديث «[فالحـديث] ذو شُجـون» ونضرب المَثَل لبَعْضه ببَعْض: فيتَّفق إيرادُه دفعةً واحدةً، ونصُّه على أكْمَل ما يمكن.

٢- حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به:

ومن كان لا يعرف دنياه التى نشأ فيها، وأدركـها ببصره وجميع حواسِّه، فهو لآخرتِه أجْهَل [آخرته] التى لا تُعرف إلا بالتفكُّر والاعتبار، بعد ما حض عليه الكتـاب وأتى به الرسول ـ ﷺ ـ وقـال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (الرعـد: ١٩) وما يصلح لنفســه لا يصلح لغيره، وأصل العلم كلِّه معرفـة الإنسان بدينه، و [يقـينه] بمَعَاده، وأنَّه لم يُخلَق عبـثًا، فإذا صحَّت معرفُته بذلك، كان أحْرى أن ينتفع به لدنياه التى يشاهِدُها معاينةً.

والرجـالُ ثلاثةٌ: رجلٌ عَلِمَ فَـعَـمِل: فـذاك الذى يُدْعَـى فى الملكوت، ورجلٌ عَلِمَ ولم يَعمَل: فذاك الذى يُضـاعَف له العذاب، ورجلٌ لم يَعْلم ولا عَمِل: فذاك، إن مات، يموت مِيتـةً جاهليَّةً، ولا تصحُّ له معرفة دينه إلا بأن لا يقدح فيـه قول كافِرٍ ولا مُعَـطِّل، فإذا حَسُن تمييـزُه عن الصنف المُلْحِد،

عرف فَضْلَ ما هو عليه، فاتَّبع على يقينٍ وجودة نَظَرٍ، لا باستهزاء ولا تقليد، فيعجز ويشكّ.

وأَمَّا من كان من الأصناف المُلْحِدة، غير أهل الكِتابَيْن من المُشركين ومن سِواهم، فالضلالُ منهم بيِّنٌ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش، وما ما يزعم أهل الكتاب من أنَّهم على الحق، ولهم الدين القويم، وأنَّ قولهم أخلٌ [بغيره] فالردُّ عليهم فى ذلك أن يُقال لهم: «إن كنتم تزعمون أنه ليس بعد نبيِّكم نبىٌّ ولا سُنَّةٌ، فلا يكون هذا القياس إلاَّ بأن تكفروا بمن كان قبل نبيِّكم من الأنبياء! ألم تكن قبل موسى شرائعُ وكُتُبٌ مُنزلةٌ وأنبياء عدَّةٌ؟ فلو كان على مذهبكم، لا ينسخ دينٌ دينًا، لم يجب لكم أنْتُمْ شىءٌ!».

وإنَّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهْمَلين، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤) وقد كانت الضلالة بيِّنة فى الفترات من عبادة الأوثان وتعبُّدهم بعضهم لبعض، ما لم يكن فى حكمة الله ومشيئته أن يترك المرءُ ودينه، ولا يمهل من يعبد سواه حتى بعث محمداً - ﷺ - بالحقِّ بشيراً ونذيراً، فصدع بالقرآن، وجاهد فى الرحمن، وسنَّ السُّنَن، وأمر بالمعروف، ونهى عن المُنْكَر، وكان فى ذلك الزمان قد ضلَّ أهلُ الكتاب، واختلفوا، وردَّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصحَّ لفرقة منهم شريعةٌ مع الأخرى، وكانوا كما. . .(١) الله تعالى، فختم الله الرسالة بنبيِّنا - ﷺ - ليبيِّن له ما فرضه عليهم، ويُظهره على الدين كلِّه! إن يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ﴾ (المائدة: ١٩) وقال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨) فالُحجَّة عليهم ظاهرة على ما بيَّنَّاه فيما يعطى العقل

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

والقياس، وأمَّا تِبْيان نبـوَّته ـ ﷺ ـ فى الآيات التى جرت على يده، فأكثر من أن توصف.

وإذا قتلتَ أحَدَهم ببعض هذه الحُجَج، فمن يـنتحل منهم فِقْهًا فى علمه وسدادًا، يرجع إلى أن يقول: «إنَّما كان رسولاً إلـى العرب!» فتأمَّلْ تناقُضه، وكف أثبت له الرسالة، ومـتى وجب إثبات الرسالة، فقد أوجـب على نفسه التصديق فى كلِّ مقالة وما أتى به، ثُمَّ الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبا: ٢٨) وقال ـ ﷺ : «بُعِثْتُ إلى الأسْوَد والأبْيَض والحُرِّ والعَبْد» فهم لا يصحُّ لهم الإنكار جملة ولا الإيمان بأمْرٍ دون أمْرٍ.

٣- قصور القياس دون عون من الوحى:

وقد كانت معرفة البارئ تعالى بالعقل اضطرارًا لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧) ولو تُرِكَ الناس فى ذلك على قيـاسهم وما تدركه عـقولهم، لكان خـوضهم فى هذا المـعنى قليلاً، مـستـضعـفين، لا يطيقون نصر ما عُهِدَ إليهم ممَّا يريدون من الأمر المعروف والنهى عن المُنْكَرِ ولغلب جُهَّالَهم وعامَّتَهم التظلُّمُ، ولم يلتـفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه، فكانت النعمة ممَّا أراد الله من صـلاح العالم أن بعث فيهم الرُّسُل، ليكون ما أتوا به دواء لِمَا فى الصدور وهُدًى ورحمةً، فـمن عرف الله قبل بالعقل، أتمَّ عليه نعمته، فقد عرَّفه نفسه باليقين، وبشَّره بالثواب، وأنذره العقاب، ليرتفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامَّة الناس طوعًا أو كرهًا.

ألا تَرى أن لا شىء من أمـور الدنيـا يصحُّ بـالظنِّ دون اليـقـين؟ فكيف الآخـرة التـى لا يوقن. . .[1] الذين أبانوا عنهـا، والظنُّ أكْـذَب الحـديث

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

والشرع، ومن تقلَّده بطل [رأيه] وليس حكمُ البارئ تعالى ممّا يجرى على قياس: كـيف؟ وهو خالق القياس، وهو واهب العقـل الذى به أدركنا جميع الأشـياء، ألا تَرى أنَّ النفس لم يـقف أحدٌ منهـا على حـقيـقة؟ مـا هى إلاَّ اختلافٌ بين العلماء الشرعيِّـين وأهل الطبيعة والدَّهْريَّة، والحقُّ إنما يكون فى طرف واحد، فهم يخـبطون خَبْط عَشْواء وإذا قِسْتَ على الحقِّ، فـإنما تجده عند أهل السُّـنَّـة لما بأيديـهم من القـرآن وحديث الرسـول ـ ﷺ ـ فـهـم يتكلَّمون على أصل، وغيـرُهم على قياس: ﴿إن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١١٦).

وترى من المُلْحِدين كثيرًا [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول: «إنَّما أعلم ما تُدْرِكه حـواسِّى من حارٍّ وباردٍ ورطبٍ ويابس، وما أدركـتُه بعقلِى ممـا كان، ولا أعلمُ مـا يكون، وإنمـا أنا آنُ الآن» فالردُّ عليـه أن يقـال له: «أتدرِى بمَ عرفتَ هذا كلَّه؟» سـيقول: «بالنفس، وعلمتُ النـفس بالعقل الذى هو أرفع الدرجـات» فنقول له: «إذا عـرفتَ بالعـقل ما أنـتَ فيـه، لم يكن لك شىءٌ متقدِّم تعرف به العقل، ولا استطعتَ لنفسك، ولا علمـتَها قبل، فتركب فيها عقـلاً وتدبيرًا، وواهِبُ العـقل الذى خلقك ودبَّرك كيف شـاءَ، قادرٌ على أن يعيذك ولا يجعلك هملاً، ولم يخلقك عَبثًا! ولو أنك تعلم ـ أيُّها الشقىُّ ـ أن العقل، إذا جحدتَ به آيات ربِّك، كَلٌّ عليك وحَـمْلٌ يوم القيامة، وهو قوله تعـالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (الأحقـاف: ٢٦) وقـال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ (يس: ٧٨) وقد أتت الرسُل بالآيات التى هى خارجة عـن حكم الطبيعة ليكون

ذلك فى العالم أشدَّ استغرابًا وعجزًا يـؤمن به أكثرُ البَشَر، وقد أمر الله تعالى بالإيمان بما قـد غاب عن العقل والقياس، ولا يعجـز الله فى قدرته على ما يشاءُ جاحِدٌ كافِرٌ.

كقول أهل الطبيعة: إنَّها هى تُدَبِّرُ كلَّ شىء، وإنَّها أعلم [من] كلُّ عليم وأحكـم [مـن] كلُّ حكيم، فنجع من فعلها فى الأبدان مـا لا تُدركه الأطِباءُ باجتهادها.

وقال غيرُهم: «الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شىءٍ لا يُدرَى ما هو» فالحُجَّة عليهم: أهِيَ طبـيعةٌ واحـدةٌ، أم طبائعُ كثـيرةٌ؟ بل، سيـقولون: «لكلِّ شىء طبيـعةٌ، فأرى أضداداً لا تصحُّ لأحـدها إلاهيَّةٌ، وغَيْـرُها مُناقِضٌ لها، وهى كانت حُجَّة إبراهيم على قومه وردَّه على من قال: إنَّ الشمس هى حياة العالم دون غيرها، فـقال ـ عليه السلام: «أرى الظِّلَّ يفعل ضدَّ مـا تفعله الشمس، والخالقُ لا يُضادُّ!» فأثبت الوحدانيَّة بالحُجَّة القاطعة الواضحة.

وقد ذُكِـر عن سُقْـراط، وكان فى زمن جـاهليَّة، أنه قال، بـما أوتى من الحكمـة، مـخـاطبًا البـارِئ عـزَّ وجـلَّ: «يا أزلَ الأزَل! ويـا أوَّلَ الأوائـل! ويـا قـديمًا! لم يَزَلْ مِنِّى نارُكَ لعِـلْمِى أنَّ هذه المخلوقـات من آثارك؟» ولم تكن معه فِئَةٌ يتَّبعونه على قوله، ولا يعقلون ما قال، حتى أمروا بقتله.

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذِكْرَه أنَّ شرعًا لا يتم بقياس العلماء وخواصِّ الناس دون الرسالة، على أنَّه لا يشكُّ ذو عـقل أنَّ المخلوقات قد جـعلها الله عِلَلاً بعضـها لبَعْض، ولم يـخلقها عَـبثًا، ولكلِّ عِلَّة عِلَّةٌ إلى أن يـنتهى ذلك إلى البارِئ عزَّ وجلَّ، فهو الذى لا فوقه شىءٌ، وهو قول إفلاَطُون لموسى ـ عليه

السلام ـ إذ قال له: «يا أخى؟ رَسولُ مَنْ أنتَ؟» أراد استخباره، فقال له موسى: «أنا رسول العِلَّة» فقال له إفلاطون: «ما العِلَّة؟» قال: «لا أدرِى! ولو كنتُ أدرِى، لكنتُ أنا العِلَّة! إنَّما أنا متَّبع!» فقال له إفلاطون: «اذهبْ وبَلِّغْ ما شئتَ! فالآن صحَّ عندى أنَّك رسولٌ حقًا!».

وكذلك الجُزْءُ لا يُحيط بالكُلِّ، والكلُّ مُحيطٌ بجميع الأشياء، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وكذلك أهل الهندسة والمعرفة بالنجوم قد علموا أنَّها مخلوقةٌ مصرَّفةٌ لما [فيه مصلحة] العباد، والعاقل منهم يقرُّ بذلك، غير أنَّه نُهى عن النظر فيها الاجتهاد فيما نُهى عنه، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدى إلى الحقيقة، والفسادُ أسرعُ من البنيان، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء «وَدَعْ ما يُريبك إلا ما لا يُريبُك».

وَهُمْ يقولون: إنَّ فيها سعوداً ونحوسًا، إنَّما فى الفلك سعدَان ونحسَان، يعنون بها المُشترِى والزُّهَرة وزُحَل والمَرِّيخ، ونَيِّرَان، وهُما الشمس والقمر، ولا يصحُّ لعالِمٍ أن يتكلَّم عليها إلا بمزج بَعْضِها ببَعْضٍ، فكيف يكون لها الحكمُ، وهى أضدادٌ، والحَاكِمُ لا يضادُّ، وخالقُ الخير والشرِّ إليه يرجع الأمر كلُّه؟ وهو مصرِّفُ الدهور بما يشاءُ! لا إله إلا هو، العزيز الحكيم!.

وليس فى العالم أمرٌ يثبت، وعلى هذا بُنيت الدنيا، وكذلك الدُّوَل والمِلَل: كلٌّ يأتى فى أوانه، ولا يتعدَّى وقته، والدينُ صلاحُ العالَم، ولا عدلَ إلاَّ به، والمُلْكُ يعضده ويحميه، وهو قوام العالَم على ما رتَّب البارِئ عزَّ وجلَّ.

٤- ضرورة التعليم والتجربة:

واعلَمْ أنَّ العقل محتاجٌ إلى التَعلُّم، ولا يستحكم تَعَلُّمٌ إلاَّ بتَجْرِبة، ولا تتحكَّم تَجْرِبَةٌ إلا ما كان فيها بعض النكد والإشغاف، فالإنسانُ على ما ضرِى وعلى أن السعيد مَن اتَّعَظَ بغيره، لكن من شأن الإنسان التسويف و«لَعَلَّ» و «عَسَى» فإذا احْتِيجَ فى ذاته، أعقبه ذلك يقظةً وحنكةً، وكذلك من أَحْوَجَ إلى نفسه كأنَّما لا يتَّكل على غيره، فينبغى للعاقل أن يعمل نفسه فى رياضة ذلك، والتمرُّن فيه، إن لم يحوجه الدهر، وإلا: فليتعب ذهنه، ويشغل باله بالفكرة فيه، خوفًا أن يُضطرَّ إليه، وإنَّ الدعة غير دائمة، فإن احتاج إلى نفسه، وَجَدَها، وإن استغنى عنها، عرف فَضْلَ ما هو فيه، وكانت لذَّته به أشد تمكُّنًا: فإنه لا يعرف قدْرَ الخير مَنْ لا يعرف الشرَّ، وإعمال الفكرة فى هذه المَعانِى كالتجرُّب بها: فإنَّ بالاهتمام بما لم يكن بلاءٌ فى النفس كائنٌ، وذلك البلاء مؤدِّبٌ، واعِظٌ، نافِعٌ، مضمحلٌّ، خيرٌ من بلاءٍ موجع حال.

وقيل: ليس العلم بكثرة الرواية، إنَّما هو نورٌ يضَعَه الله فى القلوب، ولا عذر للإنسان فى أن يجهل علمًا يليق به، لقول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِكْرِ إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣) ومن حُسْنِ إسلام المَرْء تَرْكه ما لا يعنيه، وليس كلُّ ما حضَّ عليه ونهى عنه على العموم، بل لذلك كلِّه حُكْمٌ يحسنه العاقل، والجاهل لا يحسنه، وإن جهد جَهْدَه.

٥- التكوين السياسى للمؤلف

وقد كُنَّا ـ مَعْشَرَ أهلِ بيتِ المملكة ـ نَرى من آكَدِ ما نتأدَّب به إِعْمالَ السياسة فى طلب الرياسَة، والسَّعْىَ لها بكلِّ الوجوه، وإحضارَ الأذهان، ما لَو أنَّ المُفْرِطَ فى بعض ذلك مِنّا يكون أفْقَهَ الناس فى سائرها من العلوم، لكان عندنا ناقِصًا، لا يصلح لهذا الشأن، حتى وقع التنافُسُ على ذلك.

وقَتلْناها نَحنُ عِلْمًا لرياضة أنفسنا لها، وما أَجْرانا عليه آباؤنا، وبصَّرونا فيه من أولِّ نشأتنا.

وتلك صناعةٌ وجب تَعَلُّمُها لضرورة الحال، كسائر الصنائع التى منها معايش الناس، ولا بدَّ لهم من إتيانها، ولَعَمْرى إنَّ الوالى أكثر عِلْمًا وأحسن عَقْلاً: فإِنَّ جميع عقول الناس تعرض لديْه، ويجرِّب فى موضعه ما لا يجرِّب غيرُه فى تقلُّبه فى البلاد، وإليه تهدى الأخبار، ويتخاصم الناس، وعنده يقع الطلب، وترفع الحاجات، وتقع العِنَايات، فيرى ويسمع كلَّ يوم جديدًا لم يَرَهُ أمس، وقال عمر بن عبد العزيز ـ ﷺ: «لَسْتُ كخَبٍّ، ولا الخَبُّ يخدعنى!» وقيل: «فلانٌ لا يعرف الشرَّ» قال: «ذلك أجْدَرُ أن يَقَعَ فيه!».

ولما كان المُظَفَّر جَدُّنا ـ ﷺ ـ قد أوتِىَ من الدعاء والتمييز لأحوال الزمان ما لا خفاءَ به، وأنَّه من آكَد ما يَجِب له النظر فيه ترشيحُ أحَد بَنِيه للولاية بَعْدَه، وأنَّ ذلك لا يتمُّ إلا بتمرينه وإعماله فى جميع خِدْمته، كَىْ يتدرَّب ولا يخفى عليه من أُمور الدولة ما يحتاج إليه فيه نفسه، كُنْتُ ممَّن وفَّقه الله لبِرِّه والانصياعِ لوصيَّته، فأمر بإخراجى من المكْتَب إلى التصرُّف

بين يديه، وقال لى ـ نضَّر الله وجهه: «مَعَكَ من الكتابة وتلاوة القرآن ما يكفيك! وهذا أولَى ما تتعلَّم! فعليك بإحضار ذهنك لجميع ما يكون مِنِّى وما ينقضى فى دولتى أيَّامَ هذه الفِتَن، فإنَّ الزمان أشَرُّ، والأيَّامُ أقْصَرُ من أن تُدْرِك تَعلَم كلَّ شىءٍ يعنى به الملوكُ لأبنائهم!».

فامتثلتُ حدَّه، وأخذتُ نفسى أولاً بالتواضُع له واختصارِ كلِّ شىءٍ يَقَع منه في نفسه أنِّى أشْرَهُ به إلى تعجيل الولاية أو الحرص على الرياسة، بل كنتُ أتأبَّى له عن ذلك، ولا أحْكُم بين اثنَيْن إلا عن مشورته ومشاركة أهل السنِّ والعَمَل من وزرائه، وأنْزِل نفسى لهم بمنزلة الابْن، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقعًا ارتضونى به للخلافة من بَعْده، واتَّفق فى ذلك رأْيُهم مع رأى الجدِّ ـ رحمه الله.

ولم يكن منها نهارٌ إلا وأستفيدُ فيه فائدةً من تَجْرِبة وحُنْكة.

وما كنتُ أجهلُه من الأشياء، أجِدُ له أعوانًا من الوزراء، يعلموننى بالصواب فيه لقلَّة خِلافى عليهم وبِرِّى بهم.

كلُّ ذلك [من] الأسباب التى أذن الله من أجْلها ولايتى من بعده، وقد كان من أهل بيت المملكة مَنْ يصلح لها قَبْلى، ومعى من أخٍ كبير وعَمٍّ وقرابةٍ أتوَقَّعُ استهدافَهم إلىَّ وتَغَلُّبَهم علىَّ، ما لو أنْفَقْتُ مِلْءَ الأرض على كفايَة شرِّه، ما استطعتُ له، فكفانى الله تعالى ما كنتُ أتوقَّع، وأرانى الخيرة فى عاقبة كلِّ أمْرٍ كنتُ فيه أكرهُه، فنحنُ جُدَراءُ بتعداد نِعَم الله والإنصاف فى شُكْره، كما حضَّ الله عليه فى قوله لنبيِّه ـ ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١).

وقد كان أبونا سَيْفُ الدولة(١) ـ رحمه الله ـ مُرَشَّحًا للمملكة، كثيرًا حبُّ أبيه له، وجَمْعُهُ الأموال من أجْله، وتدريبُه عليه بكلِّ وَجْهٍ، وكان ـ رضي الله عنه ـ من العقل والكرم وحُسْن الخُلُق والحِلْم ما شُهِرَ به فى البلاد، واجتمع عليه محبَّة العباد، ولم يكن للمُظَفَّر جدُّنا غيرُه، فتوفِّى ـ رحمه الله ـ ابنَ خمسةٍ وعشرين عامًا، وسنذكر من أحواله مع سائر أمور الدولة ما يَرِدُ بعد هذا، إن شاءَ الله.

٦- صعوبة الإنصاف التاريخى:

وأوَّلُ ما ينبغى تقديمُه ذِكْرُ دُخولنا الأنْدَلُس، وكيفيَّة ولايتنا إيَّاها، إلى هَلُمَّ جرًا.

فإنه، متى أتَيْنا على خبر يطيب ذِكْرُه فى هذا التأليف، للمُعْتَرِض أن يقول: «هذا أحْسَنُ لو كان على أصْلٍ يُحْمَد، وعن ولايةٍ تُرْتَضَى!» فينطق هَذَرًا دون اختبار ولا إنصاف، على أنَّ الثناء الحسن لا يقع على الدولة إلا فى مُدَّتها وأيَّام سعادتها، ولو كانت ظالمةً، فلا يقع فيها الذمُّ إلا بعد تَوَلِّيها، ولو كانت عادلةً، والناسُ مع من سبق إلا مَنْ نظر بعين العدل، لا بعين الهوى، وقليلٌ ما هُمْ!.

ولترَى أن لا شىء فى العالم يسعد وينحس إلا وكان أحد الأمرَيْن لا يشوبه غيرُه، ولا يتعلَّق بالسعادة إلا كلُّ مستحسنٍ من غير تكدير، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى سرور، وليس مع الإقبال إدبارٌ إلا تمام المُدَّة.

(١) هو بلكين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى بن مناد الصنهاجى، الأمير الملقب بسيف الدولة ـ والد مؤلف هذا الكتاب ـ (توفى سنة ٤٥٦ هـ) وترجمته مطولة لدى لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة ١/ ٤٣٤.

ولا يتَّفق الناسُ أجمع على مدح أحدٍ ولا على ذمِّه: فإنَّ رِضَى العامَّة أمْرٌ لا يُدْرَك، ولا بدَّ للوالى أن يقضى عند حُكْمه لأحد الخصمَيْن على الآخر ضرورة، فالمَقْضِىُّ عليه انقلب ساخطًا، والمَقْضِىُّ له انقلب راضيًا، وكِلاهُما يتكلَّم على شهوة نفسه، فكيف يتَّفِق إجماع العامَّة على خير واحدٍ أو مدحه؟ وإن الله تعالى كان قادراً على أن يُسوِّى بين [أمور خَلْقه، وجديراً، وإن] كُيِّفَتْ، أن يرفع بَعْضَهم فوق بَعْض دَرَجاتٍ.

٧- المصادفة وأثرها فى التاريخ مثل المنصور:

وإذا اعتبرتَ أحوال هذا العالم على شىءٍ من أمر الدنيا، فإنما تجدُه كائنًا بأرقِّ سَبَب: فمن بين جاهلٍ مسعودٍ أو حاذقٍ مُمَخْرَقٍ، وإذا بَعثْرتَ على ما هو فيه، أعَنِ استحقاق تصيرُّ إليه، لم تختبرْ من فعاله ومقاله شيئًا يشذ عن العالم، ولا يَشِفُّ على رأى من تَزْدَريه عَينُك، ولأنَّ الجهل فى العامة أغلب، والباطلَ إلى عقولها أسْرع: استعظَمتْ ما هو عند اللبيب حقير، وتكلَّمَتْ على ما ظهر إليها، ولم تقِسْ عليه بعقولها، ولله ما بَطَن، وللناس ما ظَهَرَ، ولهذا تَرَى صاحب الناموس أرْفَعَ ذِكْراً وأطْيَبَ ثناءً، وإن كان يُرائى.

وقد كان المنصورُ بن أبى عامر، على دقة شأنه قَبْلُ، ولأنه لم يكن من أهل بيت المملكة، فيستحقَّها عن الآباء، ولا كانت به قدرةٌ على الدنيا، قد حصَّل على عظائم بدهائه ومخْرَقته على العامَّة، مع ما هيَّأت السعادةُ له (وكان أقوى الأسباب فى سلطانه) وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنَّه مَنْ كان طالِعُه من البروج الحوت والقَوْس كان أعظم الأسباب فى سلطانه أو عقاره.

ولولا قيامُه بدعوة الخليفة، وإظهارُه الانخضاعَ له [فى جميع] ما يأتى ويَذَر إلى طاعته وإقامة أوده، وتوليته الحجابة والوزارة، وإخماله لأهل الدولة الحكَمـيَّة، وتقـصيِّهم بـالقتل، متـأوِّلاً فى ذلك أنَّ دولتَـه تصفو بـه ويقوى سلطانُه، وأنَّ فى بقائهم كـثرة الخلاف وإيثار الفِتَن وهلاك المـسلمين، حتى اتسق له مـا أمَّل، وبلغ من ذلك كلِّه الغاية القـصوى - ولو أنَّ أحـدًا اشتـهر ببعض ما أتى هو به دون تعلُّق بسبَب أو إظهار طاعة [لكان قُتِلَ] من ساعته، ولو كان من أهـل بيت الخلافة - إلى أن ورث الأمـر ابنه من [بعده، فـسار المنصور] بأحْسَن سيرة وأحْمَد طريقة، وكانت له فى بلاد العدوِّ فتكات، نال الإسلامُ فى أيَّامه عِزًّا ما كان بالأنْدلُس [مثْلُه] وأذلَّ ما كان النصارَى عليه.

الفصل الثانى

الأحداث الممهدة لقيام دولة بنى زيرى وأوليات هذه الدولة، أيام زاوى بن زيرى وحبَوس بن ماكسن

obeikandl.com

obeikandl.com

٨- الإصلاح العسكرى الذى أدخله المنصور

قدوم بنى زيرى إلى الأندلس وقيام دول الطوائف:

وتوقَّع [المنصور] من أجناده الاتِّفاق على بعض ما يخلُّ بدولته، إذ كانوا صِنفًا واحدًا، وتألُّبهم على معصية أمره، متى أمر بما أحبُّوا وكرهوا، فنظر من ذلك بعين اليقظة، وسوَّل له رأيُه أن تكون أجنادُه قبائلَ مُخْتَلفةً وأشْتاتًا مُتَفَرِّقةً: إن همَّ أحدُ الطوائف بخروجٍ عن الطاعة، غلبها بسائر الفِئَات، مع احتياجه إلى تَقْوية عسكره، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلُّل بلاد العدوِّ وتدويخها متى شاءَ، فاستجلب من رؤَساء البَرْبَر وحُماتها وأنجادها مَنْ بلغه فروسيَّتُه وشدَّته، وتسامعَ الناسُ بالجهاد، فبادر إليه من شَرْق العِدْوة مَنْ كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاءَ به، وبهم كان يصول ابنُ أبى عامر على العدوِّ، وهُمْ كانوا العِدّة فى الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء، وكان من أدْهَاهم رأيًا وأبْعَدهم همَّةً زَاوِرِى بن زِيرِى عَمُّنا، وبعده حَبُوسُ بن مَاكْسَن ابنُ أخيه - ﷺ - فإلَيهما كان الرأى والمشورة فى الأمر، والحُكْمِ على مَنْ دونهم من الأجناد.

فرتَّب ابنُ أبى عامر الرُّتَب، وأظهر هيبة الخلافة، وقمع الشِّرْك، وحضَّ المسلمين عامَّة على الغزو، فعجز عن ذلك رعيَّة الأندلس، وشكوا إليه ضعفهم عن المُلاقاة وشُغْلَهم بالغَزَوات عن عِمارة أرضهم، ولم يكن القومُ أهْلَ حَرْبٍ، فقاطَعَهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم، ويعطوا من أموالهم

كلَّ عام مـا يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيـهم ذلك، على اتِّفاق ورضًى منهم، فضرب عليـهم الأقطاع، وحصَّل فى الدواوين جميعَ أمـوال الناس، وكسرها عليهم [وفرض] بينهم مالاً [يرتزق] منه الجيش، فبقيت تلك الأقطاع عليهم إلى [أن عمَّت الأندلس] عدّة الثوَّار و [اتَّبعو] هم على تلك الآثار [ودأبُه] فى ذلك إنما كان على ما وَصَفْناه.

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم فى الناضِّ والطعام والمواشِى، يقسـمون ذلك على المساكـين بكلِّ بلدة، ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلا ما يقـيم به الجيش والدولة التى هى قـيام العالم، ولولا حـماية السلاطين للرَّعيَّة، وعزُّ دُوَلهم، وذَبُّهم عنهم، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزَّ بهم قـرارٌ، فكان ذلك كلُّه عن سـداد وصلاح وتأوُّل الخـيـر، ولم تزل الأنْدَلُس قديمًا وحـديثًا [عامرةً] بالعُلماء والفُقَهـاء وأهل الدين، وإليهم كانت الأُمور مصروفة، إلا ما يلزم المَلِك من خاصـتَّه وعَبِيده وأجناده من الأخْذ من واحدٍ ودَفْعه لآخر، لينخِّل بذلك عـسكره ويتخيَّر أفْضَلَه... فيه للمـسلمين كفاية وعُدَّة، إذ كانت الأموال التى يعطونها من غيـر أُصولهم، ولا اكتسابهم، إنَّما كان ذلك من وجه النظر للمـسلمين، وأمّا ما كان بيْنهم من مظلمـة أو قضيَّة وكلِّ حُكْم يرجع للسُّنَّة، فإنَّما كان لقاضى البلدة.

فلمـا تمَّت الدولة الـعَامـرِيَّة، وبقـى الناس لا إمـام لهم، ثار كلُّ قـائد بمدينتـه، وتحصَّنَ فى حِـصْنه بعد تَقْدِمـة النظر لنفسـه، واتِّخاذه العسـاكر، وادِّخاره الأموال، فتَنافسـوا على الدُّنيا، وطمع كلُّ واحد فى الآخر، وكذلك لا يصحُّ أمـرٌ بين نَفْسَـين، فكيف سلاطين كـثيـرة وأهواء مختـلفة؟... إلا الله... من كان ظالمًا منهم يتعدَّى... للقدر الذى شاء ربُّنا لا شريك له

٩- استقرار بني زيرى في إلبيرة[١] بناء على طلب أهلها:

فلما رأى سلاطينُ صِنْهاجة وبنو زِيرِى اقتطاعَ كلِّ أمير فى بَلَدٍ لنفسه، وذهابَ ما كانوا عليه من عزٍّ وأثَرٍ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز إلى العِدْوة، ليرجعوا إلى مُسْتَقَرِّهم، فانعقدوا على ذلك بعد أمور يطول ذكرُها، وظهور فساد كثير أضربْنا عن إيراده كلِّه، إذ كان مَقْصَدُنَا وَصْفَ دولتنا خاصَّةً، ولا بُدَّ من ذِكْر لُمَعٍ من غَيْرِها عند الاحتياج إليه.

وكان أهل إِلْبِيرة فى بَسِيط من الأرض، وكان بهم من الغشِّ بَعضهم لبَعض ما إنَّ الرجل منهم ليتَّخذ بإزاء داره مسجداً وحَمَّامًا فراراً من جاره، ولا يرجعون إلى طاعة ولا حُكْم والٍ، وكانوا مع هذا من أجْبَن الناس وأخْوَفهم على مدينتهم، لا يستطيعون على قتال أحد، ولو كان الذُّباب، إلا بمن يحميهم ويذبُّ عنهم، فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس، وأنَّها أضرمت ناراً، وتوقَّعوا أن يتخطَّفهم الناس، وجَّهوا إلى زاوِى المذكور، شاكين ممَّا هم فيه، ويقولون: «إن كُنْتُمْ جاهَدْتُم قبل اليوم، فهذا الجهاد آكَدُ عليكم: أنفُسٌ تحيونها، وديارٌ تحمونها، وعزَّةٌ تأوون إليها! ونحن شاركوكُمْ بأموالنا وأنفسنا: لكم منَّا الأموال والسُّكْنَى، ولَنَا منكم الحماية والذبُّ عنَّا!».

---

(١) إلبيرة: من كور الأندلس، جليلة القدر، نزلها جند دمشق العرب وكثير من موالى الإمام عبد الرحمن بن معاوية، وهو الذى أسسها وأسكنها مواليه ثم خالطهم العرب بعد ذلك، وكانت حاضرة إلبيرة من قواعد الأندلس الجليلة والأمصار النبيلة فخربت فى الفتنة وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة، فهى اليوم قاعدة كورها (الروض المعطار).

فقبل القومُ قَولَهم، واغتبطوا بمكانهم، واستبشروا باستفتاح البلدة لغيرها، و. . . أنفسهم من الغدر لتَشَتُّتهم ورجوع أمرهم كلّه إليهم دون فِئَةٍ [تحميهم] ولا جماعةٍ يتوقّع عُصبتُها، فأتوهم مُحتَشِدين متألّفين، قد انقطع إليهم كلٌّ من انتمى من البَربَر وتعلّق بهم، ونزلوا ساحتهم، وحيّوهم بالتُّحف والأموال، وشاركوهم أحسن مُشاركة، راضين بهم لا ساخِطين، واستجابت لهم عند ذلك مَعَاقِلُ كثيرة، منها جَيَّان(١) وأنظارها، وحِصْن آشر(٢) من الغَرْب.

فلما طاعت لهم البلاد، اجتمع رأيُهم على أن يتقارَعوا عليها، وكانت عادةً فى البَربَر، كَيْ لا يأنفَ أحَدُهم ممَّا يصير إلى أخيه، فرجعت إلْبيرة فى قرعة زَاوِى، وحِصنُ آشَر مع جَيَّان فى قرعة حَبُوس ابْن أخيه جَدِّنا ـ رحمة الله عليهم ـ وتعاقَدَ جميعُهم على أنَّه، إنْ طرق العَدوُّ جِهَة صاحبه، يكون الآخَرُ يحميها بنفسه ورجاله.

١٠- رد الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيرى اختطاط غرناطة(٣):

فلما بصر بفعلهم ثوّار الأنْدلُس، جذعوا منهم، وحذروا أن تقوى شوكَتُهم، فيطرقوهم ويحصّلوا على بلادهم، لِمَا اختبروا من شدَّتهم

(١) جيان: مدينة بالأندلس، وهى كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم والعسل (الروض المعطار).

(٢) لدى الإدريسى فى نزهة المشتاق: «وهو حصن حسن حضين كثير العمارة آهل، وله سوق مشهودة.

(٣) غرناطة (أيضًا: أغرناطة) مدينة بالأندلس، وهى من مدن إلبيرة، وهى مورثة من أيام الثوار بالأندلس، وإنما كانت المدينة المقصودة إلبيرة فخلت وانتقل أهلها إلى أغرناطة، ومدَّنها وحصّن أسوارها وبنى قصبتها حبّوس الصنهاجى، ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس، فكملت فى أيامه وعمرت إلى الآن (الروض المعطار).

ورأيهم، فاجتمعوا فى مُنازلتهم وقَصْـدِهم إليهم بأحشادهم، كراهيَّةَ تَوْطيدهم بذلك المكان وبُغْضِـهم لجنْسِـهم، وقَدَّمـوا على أنفسـهم إنسـانًا سمَّـوه بالمُرْتَضَى، زعـموا أنَّه قُرَشىٌّ، كَىْ يستـهِلُّوا بخلافته عامَّـةَ الناس، وليرجع أمرُهم إليه، ونزل الجمع على مقربة منهم.

وكان قـبل ذلك، لما بلغـهم احتشـادُهم وتألُّـبُهم، جـمعوا أهلَ إِلْبـيرة المـذكورة وقـالوا لهم: «نحـن لم نأتِ لفسـاد دِيارِكم، ولا قَـهَـرْناكم على استيطانِها، وإنَّما كان ذلك على اختياركم لنا، وهذه الفِئَات مُقْبِلَةٌ لطلَبنا: فإن استوثَقْنـا منكم، دافَعْنا عنكم، وإن كانت الأُخرى، فـأعلمونا: نَمْضِ عنكم على أجمل وَجْهٍ، فَلَنْ نعدم الخَيْرَ بسيـوفنا!» فأجابهم القومُ: «اثبتوا فى قتال عدوِّكم والدفاع عنَّا وعن أنفسكم! فنَحْنُ رعيتُكم الطائعة وأسيافكم القاطعة!» فقال لهم زاوى بن زِيرى: «إذا كان هذا رأيُكم، فأرَى من الصواب أن نرتحلَ عن هذه المدينة، ونختـارَ لأنفسنا فـيما يقرب منهـا مَعْقِـلا نأوى إليه بأهلينا وأموالـنا... والحَرْبُ سِـجَال...[1] يصيب عندها ولا يصـاب، فقد يُظَنُّ عجـزًا! وقد أمـر النبى ـ ﷺ ـ عند احتـشاد المُـشْرِكين على الـمدينة أن يُخَنْدَق حَوالَيْها، وسنَّ الحَزْمَ، مع مدِّ الوَحْى له، فكيف نَحْنُ؟».

وقالـوا لأهل إِلْبيـرة: «لَسْنا نكلِّفُكم من الأموال مـا تسرَّعـتم به، إلا أن تنفقوها فيما يخصُّكم من تقوية مـدينتكم بحشود رجَّالةٍ منكم، تنفقون عليهم ليكونوا بهـا لكم أعوانًا: تصـرِّفونهم حَـرَسًا وجـواسِيسَ ومـا أشبـه ذلك، وتحـملون من تعرفـون أنَّه يستطيع علـى الجُنْديَّة، أو تبنون لأنفسكـم سورًا

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

يتوقَّع بتَـرْكه ثلمـةٌ تدخل بها الداخلة عليكم، وأمَّـا سِوَى ذلك ممّـا يخصُّنا نحن، فاعلمـوا أنه لم نأت الأندلُس إلاَّ وأجْلَبْنا مع أنفسنا من الأمـوال ما لا نحتاج فيه إلى أَحَدٍ، بانين على الإقامة إن اضطَرَرْنا إليها، ولم نَأْتِها عن فاقةٍ ولا سعاية، إنَّما جـئناها رغبةً فى الجهاد، وأن تكون كفايـتُنا التى شهرنْا بها على العدوِّ دون سائرهم، وأن نفنى باقى أعمارنا فى طاعة الله، إلى أن دفعَتْنا الأقدار إلى مـا تَرَوْن، ونَحْنُ لم نطلب أحَدًا، ولا تعـدَّيْنا على بشر! وهؤُلاء باغُونَ متطاوِلُون، ومَنْ ﴿بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ (الحج: ٦٠) ومن قُتِل دون ماله وأهله، فهو شهيدٌ!».

فرضى القوم من قـولهم، وزاد ذلك فيهم رغبـةً، واتَّفق رأىُ الجميع أن يخيِّروا لأنْفُسهم جبَلاً مُنيفًا ومَعْقِلاً شامخًا، يبنون فيه ديارهم، ويرحلون إليه بقلَّتهم وكـثرتهم، ويجعـلونه القاعدة، ويخـربون له إِلْبِيرة المـذكورة. . .(١) فوقعت أعْـيُنُهم على بسيطٍ جميل، قـد جمع الأنهار والأشجار، وجـميع ما يليـه من البَلَد كلُّه ينسـقى من وادى شَنيلى(٢) المنحـدِر من جَبَل شُلَيْـر(٣)، ويصروا بالـجبل الذى فيـه الآن مدينةُ غَـرْناطة موسِّطة للبَلَد كلِّـه: الفَحْصَ أمامَه، وجِهتَىِ الزاوِيَة والسَّطح بجنبتَيْه، ونظَرَ الجبَل وراءَه، فأفْتَنَهم المكان، وعملوا عليـه كلَّ حساب، ورأوا أنه فـى وَسَط النِّعَم وجمهـور الرعايا، وأن العدو، متى نازَلَهُ، لم يطِق له إحصاراً، ولا منعه داخلاً ولا خارجًا البتة، فى كلِّ ما يحـتاج إليه الناسُ من المرافـق، فشرعوا فى بُنيـانه، وتولَّى كلُّ امرئٍ منهم إقامةَ داره من أَنْدَلُسٍ وبَرْبَرٍ، وخربَتْ عند ذلك إِلْبِيرَة.

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

(٢) انظر فى ذلك: نزهه المشتاق ٢/ ٥٦٩.

(٣) انظر فى ذلك: نزهه المشتاق ٢/ ٥٦٩.

١١- خروج المرتضى لحرب بنى زيرى وهزيمته:

فلم يكن إلا مُدَّةٌ يسيرةٌ قبل أن يستكمل البُنيان، فإذا بالطوائف الباغية قد أقبلت طامعةً متألِّفةً، ويظنُّون أنَّهم، عند وصولهم، لا ترتفد لهم ساعةً، وقدَّموا كتابًا إلى زَاوِى المذكور، يأمرونهم - بزعمهم - بالخروج أمامَهم على الأمان، وأن لا سبيل إلى البقاء، ولا يتركونهم بذلك الموضع: يُبلون بذلك العذْر عندهم، وإذا ظفروا بعد هذا، أن لا يقيلوا لهم عثرةً.

فلما قُرِئَ على زاوى كتابُ المُرْتَضَى المُقام لهذا الناموس، جمع رجاله، وخاطَبَ ابنَ أخيه حَبُوسًا، يأمره بالقدوم عليه، فأتى فى جميع عسكره، ودخل المدينة على أعيُنهم، غير مُجانب لهم، ولا مُتكامن منهم، واجتمع بغَرْناطة من صِنهاجة دون الألف من خيرة الخيرة، وكانت الطوائف الباغية فى نحو من أربعة ألف فارس.

فأمر زاوى المذكور [بكتب الجواب من] إملائه، وقال للكاتب: «لا تَزِدْ شيئًا على ما أُملِى عليك! اكتُبْ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (التكاثر: ١ - ٤).

فلما ورد الجواب عليهم، عجبوا من دهائه، وقالوا: «إنَّ هذا الرجل لم يأبَ الطاعة لنا، إلا أنَّه واثِقٌ بنجدته وبمن معه، أو مُوَطِّنٌ على الموت، أو معجبٌ محيَّنٌ!» فزحفوا إليه.

وهشَّ القومُ إلى مُلاقاتهم، فأمرهم زاوى بالثبوت وتَرْكِ الطَّيْش، حتَّى يبدو له ما هم فيه، فقالوا بأجمعهم: «لا خَيْرَ لنا فى غير مُلاقاتهم، إذ قد

أيْقَنَّا بأنَّهم لا ينفعنا معهم شيءٌ إلا الظفر بهم أو الموت على أيديهم، ولا مَهْرَبَ لنا في الأرض دون قتالهم! إن بقينا، لم يبارحونا، وأحصرونا مع رعايانا إن لم يروا منّا دفاعًا عنهم! فإمَّا هُلكٌ وإمّا مُلك! وأنَّ موتَنا في مُلاقاتهم، بعد إبلاء العذْر، أحبُّ إلينا من تغلُّبهم على مدينتنا!».

فخرجوا إليهم بأنفس جريئة وعلى الموت مُوطَّنة، وقلوب حَنِقة وللموت طالبة، فلم يكن إلا كصَفْقةٍ بالكفٍّ على الكفٍّ حتى ولَّوهم الأدبار، وانهزموا أمامَهم مذعورين، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم، لا يلوى منهم أحدٌ على صاحبه، واتَّبعتْهم صِنْهاجةُ، وانبسطت عليهم أيدى البَرْبَر، يقتلون منهم نهمةَ أنفسهم، ويأخذون أموالهم وما تركوه من أسْلِحتهم، حتّى امتلأَتْ من ذلك أيديهم.

وكانت تلك الوقعة أوَّلَ ظفر ثبتوا به في أوطانهم، وهَابَهم الناسُ، وانقادت لهم الرعايا، وتوطَّد مُلْكُهم بغَرْناطة، وطاعت لهم أكثرُ بلاد أعدائهم المهزومين.

١٢- رحيل زاوى بن زيرى[1] إلى إفريقية وموته هناك مسموماً:

وإنَّ زاوى بن زيرى، لما بصر بهذه الحال، ورأى تألُّب أهل الأندلُس عليهم وبُغْضهم لهم، عمل بذلك فِكْرَته وقال: «قد علمتُ وأيقنتُ أنَّ هذا يكون دابَهم أبدًا، وإن كُنّا قد مُنحنا الظفر في أوَّل صفقة، لم نأمَنْهم على أنفسنا وديارنا كلَّ حين! وهُمْ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ، خَلَفَهُ ألفٌ، مع مَيل جنسيِّهم من الرعايا إليهم، فتكون الزيادة فيهم والنقصانُ مِنّا! ولا يموت لنا

(١) انظر في زاوى بن زيرى: الإحاطة ١/ ٥١٣.

نَحْنُ أَحَد ونخلفه أَبدًا!» فنظر من المكان بعين الحقيقة، وزَهِدَ فيه، مع ما عَلِمَهُ من وفاة بَادِيس بن المنصور، والِدِ المُعِزِّ، مَلِكِ القَيْرَوان، وأنَّ ابنه وَلِىَ طفلاً صغيراً، فشرهت نفسه إلى تلك الولاية، وعزم على النهوض إليها، للقَدَر الذى قدَّره الله من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه.

وكان لزاوى بَنُون، يعدل كلٌّ واحد منهم ببَدَنه مائة فارس فى نجدته وقوَّة بأسه ورأيه: منهم بُلُكِّين[1] بن زاوى، فأعاب هذا الرأى على أبيه، وقال له: «بَنَيْتَ لغَيْرك، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير! لا تترك حاضراً لغائب! واثبتْ بمكانك الذى لم تحصِّل عليه إلا بعد مشقةٍ وإشرافٍ من نفسك على الهلاك!» فقال زاوى: «نستخلف على المدينة من شيوخ تَلْكاتَة الموثوق بهم فى المُهِمّات مَنْ يثقِّفها، وينوب منابى فيها، حتى أُباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوان وكيفيَّة دَوْلَتها، فإما أن يتهيأ غَرَضُنا، وإلا انصرفْنا إلى مَرْكَزنا».

فتهيَّأ للمسير على سبيل المشاركة للمُعِزِّ، وأن يكون له بالأنْدَلُسِ عُدَّةً وعَبْدًا، وما أشبه ذلك مما يُسْتَعْمَل فى المُشارَكات واتِّصال الأيدى على المُهِمّات، واستَخْلَف من استخْلَفه من الشيوخ ألا يدخلوا عليه داخلةً ولا يُسْلموا من أحواله شيئًا لابن أخيه ولأحَدٍ من خَلْق الله، يُريهم فى مسيره النظر لهم والسعْىَ فيما هو خيرٌ من موطنهم ذلك.

ثمَّ خرج عن البلدة كأنه يُقاد قودًا، فلم يخرج منها بمرحلة إلا وكُتُبُ

---

(١) جرى الناسخ على كتابة اسم «بلقين» بالقاف، ولكنا فضلنا كتابتها حيثما وردت «بالكاف» أى «بلكين» وهو الرسم الذى يورده ابن خلدون، أوثق حجة فى الأعلام البربرية، وكذلك السلاوى فى «الاستقصاء» وابن خلكان فى «وفيات الأعيان» ١/ ٢٨٧ ولديه: وبلكين، بضم الباء الموحدة واللام وتشديد الكاف المكسورة.

مُسْتَخلفـيه سائرةٌ إلى حَبُوس بن مَاكْسَن، يسـفِّهون رأى زاوى ويقولون له أن يُعَجِّل بالقدوم إلى البلد، وأنه أَحَقُّ بولايته من غيره، قبل أن يطمع فيه من لا يرضونه، أو يَشْرَهَ إليه من فَغَرَ فَـاهُ إليه بزوال زاوى عنه، فلم يتأخر عنه إقبالُ حَـبُوس، وتَلَقَّتْهُ صِنْهاجة بالطاعة والانقياد لمُلْكه، وسمع بخبَره زاوى، وهو فى طريقه على مـقربة من غرناطة، وندم على ما كـان منه، ولامَهُ وَلَدُه على ذلك.

ويُذْكَر أنّه، لما وصل إلى القَيْرُوان(١)، وأحَسَّ بمَذْهَبه بعضُ وزراءِ المُعِزِّ نكروه وخافوا دواخِلَه عليهم، وأن يكدِّر مـا صفا، ورأوا أن ولاية المُعِزِّ على طفوليَّته، وعـيشهم معه، وتحكُّمَهم عليه، أَخَفُّ عليـهم من تَوْلِيةِ داهيةٍ مثل زاوى، لا يملكون معه من قِطْـمِير، فَدُسَّ إليه مَنْ سَـقاهُ السُّمَّ، ومات بتلك البلاد.

١٣- إمارة حبوس بن ماكسن(٢).

وصفَـا الأمْرُ لحبُّوس بـن مَاكْسَن، وسار بأجْـمَل سيرة وأعْـدَل طريقة، وصرف أَحكامه أجمع إلى قُضاة البلاد، وتعفف عن كلِّ شىء، وجَمُدَتْ يَدُه على الحـرام والأموال، فـأَحبَّـه الناسُ، وأَمِنَتْ معـه السُّبُلُ، وقل الفـسادُ، وارتفع الجورُ.

---

(١) القـيـروان: هى قاعدة البلاد الإفـريقية وأُمّ مدائنها، وكانت أعظم مدن المـغرب نظراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أمـوالا، وأوسعها أحوالا، وأربحهـا تجارة، وأكثرها جباية، وبالجـملة فمدينة القيروان دار ملك المغرب، ورأت من الممالك والمملوك والدول والفقهاء والعلماء والصالحين مـا لم يكن مثله فى قطـر من الأرض، ثم محنت بالعـرب والفـتن، وخلت من الناس وذهبت نضرتها ومحاسنها (الروض المعطار).

(٢) انظر فى حبوس بن ماكسن: الإحاطة ١/ ٤٧٧.

وكان الرجلُ مُحِبّا فى أقاربِه وبنى عـمِّه، لم يستأثر عليهم بشىء، وقسم عليهم البلاد، وأمـر كلَّ قائد أن ينتخب من الرجال عـددًا يليق به وما يكون فى قدر مـا أعطاه من الجِهَات، وأنهى إليـهم: «إلا فائدة تفيـدونى بها تُنَفِّق عندى من مال أو تحـفة غيـر الاستكثـار من الأجناد، فَمَتَى دعـوتُ أحَدَكم لمُـهِمَّـة، وبَصَرْتُ عـسكرَه أكثـر عددًا وأجـود خيـرةً، فذاك الأثيـرُ عندنا، والحَظِىُّ لَدَيْنا» فسـارَعَ الأجنادُ إلى اللحقة، وزاد الجيش فى أيـامه، وقامت هِمَمُ الرجال على ساق، وتنافسوا على خصال الحروب ومقاطع الشجعان.

وكان بنو عمِّه كلُّ إنسـان منهم سُلْطانًا فى ناحِيَته، قد حاز جِـهتَه وانفرد بعسكره، وكان حَبُوس ـ رحـمه الله ـ لا ينفرد برأى دُونَهم، ولا يقطع مقطعًا إلا بمشورتهم، حتى إنهم ليجتمعون معه للحُكم فى موضعٍ خارجَ قصره دون السير إليه، وذلك استحسانًا منه، كَىْ لا يحصل عليهم ما يقع فى أنفسهم منه ذلة ولا ما ينقمـون عليه، وكان رفيقًـا بهم، مُحْسِنًا إليهم، مؤلِّفًـا لكَلِمتهم، وكان من قـوله: «إنَّ صِنْهاجة عندى مثل الأسـنان فى الفم: إن عدمتُ منهم واحدًا، لا نخلفـه أبدًا!» فكانت له بهم الصولة على النـاس والاستطالة على العدوِّ، ومـا كان كلُّ أحَدٍ يرى تَرْكَه غنيـمةً والسلامـة منه من أعظم الفائدة، فضلاً أن يطمع فى شىء من جِهَاته، أو تُحَدِّثه نفسُه بغزو بعض بلاده.

١٤- المؤامرات التى دبرت لإسناد الإمارة إلى يَدِّير بن حباسة

موت حبوس:

وكان لحَبُـوس بن ماكْسَن ـ رحمه الله ـ ابن أخ يُعْرَف يَدِّير ابن حُـبَاسة، وكان عنده آثَرَ من وَلَده، للَّذى كان يرَى من نباهته، وإقباله على قراءَة الكُتُب

ومُجالَسة الفُقَهاء، وهو الذى كان يلقى به الرُّسُل، ويصرفه فى المُهمّات، وكان بارا بحَبُوس وبجميع أهل المملكة، وكان من أَحَبّ الناس فيه كاتِبُ حَبُوس المعروف بأبى العباس، ولِمَا يرَى من تواضُعه وحُسن مُشاركته فيما عَنَّ له من سبَب، وطار له بذلك نامُوسٌ كبيرٌ عند صِنْهاجة حتى آثَرُوه على غيره.

وكان بَادِيس بن حَبُوس جَدُّنا ـ رحمه الله ـ كبير النفس، عالى الهِمَّة، حادَّ المزاج، لا يستطيع أَحَدٌ [أن] يمَخْرِق عليه فى أمْر مِن الأمور، ولا ينكسر لأحَد من بنى عمِّه، ثِقَةً منه بسعادته، وإنَّ الانخضاع والتمريض فى القول لا يَغْنِيه ذلك ولا يزيد فى أيَّامه، وكان ذلك كلُّه منه فى حزم ورَوِيَّة، لا يفسد جانبًا حتى يصلح آخَرَ، ويضرب بعضهم ببعض، فوجست أَنْفُسُ البعض منه، وأُشْرِبوا هَيْبته ومخافته، وتوقَّعوا، إن صار الأمر إليه، أن يجرِّبهم على خلاف ما عهدوه من أبيه، فأضمر أكثرُهم لهُ الغوائل، وآثَرُوا عليه يَدَّيْر المذكور، وتمنَّوا بولايته: كلُّ ذلك لشقائهم وتمام أيَّام سعادتهم!.

وسَمِعْتُ المُظَفَّرَ بادِيس ـ رحمه الله ـ يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه ويقول: «كنتُ واقفًا بين يدى حَبُوس أبى ـ رحمه الله ـ حتى انْتُدِبَ إليه من شيوخ صِنْهاجة من قال له: «إنَّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولِّى على أمرك مَنْ يخلفك ممَّن تُرْجَى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبنى عمِّك! فإنَّ الموت يغدو ويروح!» فقال أبو العبَّاس كاتِبُه: «ليس يصلح لهذا الأمر إلا يَدَّيْر، لطهارته، وعفافه، ومحبَّته فى الناس!» وكان فى الجُمْلة من شيوخهم صديقٌ لى اسْمُهُ فِرْقَان، قد اصطنَعْتُه واستملْتُه، فسمعتُ ردَّه على أبى العباس، وهو يقول له:

«ما ينبغى لك أن تتكلَّم بهذا! كيف يُقَدَّم للأمْر غَيْرُ ابنه، وهو مستطلعٌ بجميع الأمور، وقولُك أنتَ وقولُ غَيْرك باطِل! كأنِّى، والله، أرَى موتَ حَبُوس وولايةَ بادِيس من بعده، وإنَّ يَدّيرَ سيتحامَق على باديس، ويظفر به، ويقتله!» قال باديس: «فسرَّنى كلامُه، وأعطيتُه عليها ألف دينار».

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقان، ثمَّ إنَّه اطَّبَى من وجوه صِنْهاجة أقوامًا، ووعدهم بالإحسان، وسعى بجهده على حلٍّ تلك الصفقة، إلى أن كلَّموا أباه فى تَوْليته، فرضى ذلك، وأمر الناس بانصياعهم له، وزجر يَدّير فى ملأ من الناس، وقال له: «لا تشره ما ليس لك، يا بن حُبَاسة!» يُخاطِبه بهذا اللفظ.

فوقع من ذلك فى نفس يَدّيْر عداوة مجدَّدة لباديس، وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكابرتِه وإجماع الجماعات عليه، وشتَّت أقوامًا من صِنْهاجة، حتى صاروا معه، ووَالَى بُلُكِّين شقِيقَ باديس ـ رحمهما الله، وكان من أهل البأس والنجدة، غير أنَّه لم يكن له معرفةٌ بسياسة المُلْك، ولمَّا رأى بعضُ أصحابه موالاته لبُلكِّين وسعْيَه له فى ظاهر الأمر، لامَهُ على ذلك، وقال له: «إن كنتَ لا تسعَى لنفسك، ويكون من سَعْيك لغَيْرك ما نَرَى، فبادِيسُ أحقٌّ بذلك، الذى هو الأكبر والأسعد، وله الرياسة!» فكان جوابُه لقائل ذلك: «ليس سَعْى لبُلُكِّين إيثارًا منِّى له على نفسى، غَيْرَ أنَّه صحيحُ النيَّة، غَيْرُ حاذق بمكايد المملكة، وهو شقيقُ الذى أطْلُبُ، ولن أجدَ لطلَبه أقْدَرَ على ضرِّه من أخيه! فإنَّما أنا أصيدُ به! فلو اتَّسقت لى الأمور، وتهيأ قَتْلُ بادِيس على يدى أخيه، كان أمْرُ بُلُكِّين من بَعْده هيِّنًا، وخَلْعُه مُمْكِنًا!».

فكان أبَدًا يحضُّـه على قتل أخيه، ويُريه السـعْىَ له، وكان الأَخُ فى ذلك مُتَشَبِّثًا فى أمره مُشْفِقًا على أخيه، إلى أن تُوفِّى حَبُوس بن ماكْسَن ـ رحمه الله .

obeikandl.com

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

(أ) من أوليتها إلى موت ابن نغرالة

١٥- أولية إمارة باديس بن حبوس[1] وتعاظم الوزير اليهودى أبى إبراهيم:

وولى الأمر من بعده جدُّنا باديس - نضَّر الله وَجْهَه - فحاولَ أموراً كباراً، وشَـقِىَ مع كلِّ أُمَّةٍ: صِنْهـاجة يطلبـون مكانه مع يَدَّيْر، وسـلاطينُ الأندلُس يرمُون بلاده، وهو فى ذلك كلِّه حسنُ السياسة، صبورٌ على الأذِيَّة.

وكان أبو إبراهيم اليهودىُّ كاتبًا بين يدى أبى العبَّاس كاتب حَبُّوس، ولمَّا توفِّى أبو العبـاس المذكور، وترك بَنِينَ، أقام حَـبُّوس - رحمه الله - أكـبَرَهم عِوَضًا من أبيه، واسـتعمله مكانه، وكان فى الابن صبوةٌ لا يـرتبط معها إلى خدمة الرياسة، فمكر به أبو إبراهيم اليـهودى، ولزم خدمة الرئيس، وصار، متى عاب وَلَدُ أبى العبَّـاس، يحضر أبو إبراهيم، فيسأل عنه حَبُّـوس، فيقول معتذرًا فى الظاهر ومطالبًا له فى لَحْن القـول: «وَلَدُ أبى العبّاس، كما ترى، صبىٌّ يُؤثِر الراحـة، وأنت جديرٌ بالإغـضاء عليه وإقـامة عذره، وأنا عَـبْدُه، أنوبُ منابَه، فـمُرْنى بمـا شئْتَ: يتـهيَّأُ ذلك!» فلم يزل على هذا أبـدًا حتى تمكَّن، وظهرت خدمتُه وسَعْيُه فى ضمِّ الأموال.

وكان مع هذا قـد ميَّـز عن باديس سعادتَه ودهاءه، فـافتـرض السَّعْىَ له والتخـدُّمَ لإرادته ما دَامَ أَمْكَنَهُ ذلك، فى وقت المـناوِينَ له والقائميـن عليه، للذى قدَّر من أيامه معه.

---

(١) انظر فى باديس بن حبوس: الإحاطة ١/ ٤٣٥.

obeikandl.com

فلما اتَّفق أعداؤه مع يَدَّيْر عليه، شاركـوا فى ذلك أبا إبراهيم، واجتمعوا فى منزله، يرومون قَتْلَ باديس وإقامة يَدَّيْر، وَعَدَهم على الاجتماع عنده، وتقدَّم إلى باديس، وأخبره الخبر، وأتى معه إلى المنزل، وقال له: «ليس الخبر كالعيان! اسمَع بأذْنِك وَعِ بقلبِك!» وهو بموضع مرتفع على البيت الذى يرومون فيه عَمَلَهم، وأبو إبراهيم فى ذلك كلِّه يقول عند محاورتهم كالمخاطِب للبارئ: «يا مَنْ يَرَى ولا يُرَى!» وهو يعنى بذلك باديس جدًّنا الذى يَرَاهم ولا يَرَوْنَه، فشكر ذلك باديس لأبى إبراهيم، وأيقن بِثقَته وأمانته، وصار له خادمًا من ذلك النهار، وشاوَرَه فى أكثر رأيه مع بنى عمِّه.

وكان فى اليهودى من الكيس والمُداراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذى كانوا فيه والقوم الذين يرمونهم، فاستعمله لذلك استيحاشًا من غيره، ولِمَا كان يَرَى من طَلَبِ بنى عمِّه له، ولأنَّ هذا يهودىٌّ ذِمِّىٌّ، لا تشرهُ نفسُه إلى ولاية، ولا هو أَنْدَلُسِىٌّ، فيتَّقَى منه إدخالَ داخِلةٍ مع غير جنسه من السلاطين، ولاحتياجه إلى الأموال التى يطَّبى بها بنى عمِّه، ويحاول بها أمْرَ المُلْك، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يُدرك معها الآمال، ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُسْلِمٍ فى حق ولا باطل، ولأنَّ الرعايا أكْثَرُهم بتلك البلدة، والعُمَّال إنَّما كانوا يَهُودًا، فكان يجبى منهم الأموال ويعطيه، فيلقى ظالمًا منهم إلى ظلمة، يأخذ منهم ما [يملأُ به] بيت المال، وإقامة أود المملكة أَوْلَى به منهم.

١٦- فشل المؤامرة التى دبرها يدير بن حباسة ضد باديس

فلما ولى باديس، كَثُرَ عليه الخلافُ والهَرَجُ، واتَّفق رأيُهم على ما قدَّمنا على قتله وتولية يَدّير. وأعطى على ذلك أقوامًا المثاقيلَ والصكوكَ بالإنزالات القويَّة.

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضعٍ يُعرف بالرَّمْلة، وبإزائها مُنْيَةٌ كان يحكم بها حَبُوس أبوه، وكان لها بابانِ [فاتفقوا] على أن يقيموا المَلْعَبَ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المُنْيَة، وهُمْ قد تسلحوا بالدروع من تحت الثياب، عازمين على الشرِّ.

وكان ممَّن ارْتَشىَ على ذلك شيخٌ من صِنْهاجة يُعْرَف بِفرقَان، أُعْطِى خمَسمائة مثقال وصكًا بقَرْيَةِ قُولْجَر من عَمَل السَّطْح، فقال فى نفسه: «لم أَجِدْ فُرْصةً نحظى بها عند باديس أَمْكَنَ من هذه!» فجعل أَنَّ الفَرَسَ زَادَ به فى جَرْيِهِ، كأنه جمح، حتى دخل المُنْيَة، وألقى باديس على الخروج من ذلك الباب، فقال له مختلِسًا: «انْجُ بنفسك واخرُجْ من الباب الآخر! فإنَّ الملأَ يأتمرون بك ليقتلوك!» وأراهُ الدنانيرَ التى أُعطى على ذلك، فخرج باديس من الباب الآخر، يجدُّ فى السير إلى قَصَبَتِهِ، وهُمْ لا يشعرون، ينتظرونه.

فبينما هُمْ على ذلك، إذا بعَلِىٍّ بن القَرَوىِّ وأصحابه من وزراءِ باديس وثِقاته قد أقبلوا إليهم، فقالوا لهم: «إنَّ السلطان وَرَدَ عليه من بعض أَنْظاره خَبَرٌ مُقْلِقٌ وجب الانصراف له، فاعذروه فى تخلُّفه عنكم! ومع هذا، فإنَّه لم

يَخفَ عليه شيءٌ!» فلما سمع القومُ بذلك، فكلٌّ من كان فى نفسه خَبَرٌ هرب على المقام، وهرب يَدِّيرُ بنُ حُـبَاسة، لا يلتفتـون على شيءٍ، يطلبون النجاة بمُهَجهم.

ثمَّ افتضحت الـقضايا كلُّها لباديس من بعد هروبه، ومـشى إليه بالنصائح كثيرٌ ممَّن بغاهُ قـبل ذلك، وطلع إليه أخوهُ بُلُكِّيـن، وبكى بين يديه، وسأله العَفوَ عمّا أدْخلَهُ فيه الفاسقُ ابنُ عمِّه، وأنَّه لم يَزَلْ به أبَدًا يروم ذلك منه لولا تَثَبُّتُه وشـفقتُه عليـه، وإنَّ يَدِّير خرج عن البلدة، وصار فى حـيِّز الأعداء، وكلُّ رئيس قد انتدب إلى فتْنة جدًّا ـ رحمه الله ـ ينحازُ هو إليه، ويصير من أعـوانه وعلى أجناده، يَدُلُّ بهم البَلَد، ويُريهم المَـخـادِع، ويكشف لهم من عَوْرات الجِهة مـا خَفِيَ عنهم، لا يفترِ بالضرب عليه وتَـهْتِيكِ بلاده، وجدُّنا فى هذا لا يأوى معه إلى راحة، ولا يقرُّ به قَرارٌ.

وصِنْهاجة مع هذا يخاطِبُونه، حتى إنه وقعت بيد السلطان باديس ـ رحمه الله ـ كُتُبٌ كثـيرةٌ من عند صِنْهاجة إلى يَدِّير، تضـمَّنت أزيَد من مائتىْ رَجُلٍ من الأكابر، فغضب لذلك، وهَمَّ بقتلهم، وشاوَرَ أبا إبراهيم فى الأمر، فقال له: «أرى من الرأى الاَّ تُؤنِّـبَ أحَـدًا على هذه الكُتُب، ولا تعلـمـهم أنَّهـا صارت إلـيك، وأن تأمُرَ الآن بنارٍ تحـرقهـا بها وتطفئ أثَرَهَا، ورأسُ العـقل مُداراةُ الناس، فإن عاقَبْتَ، كم عَسَى [أن] تُعاقِب، وهُم أجْنادُك وأجْنحَتُك! فاحتَلْ للأمر بغَيْر هذا الوجه!» فقبل نصيحته، واستعان ببَعْضهم على بَعْض، وأفشى العطايا، وضرب الابْنَ بأبيه والأخَ بأخيه.

فكان دأب يَدِّير هكذا أبدًا، لا يقرُّ عن الضـرب على بلاده ومعاودة ذلك

بلا سآمــة ولا فتــرة، إلى أن أظفره الله به وصار فى ثِقــافه، وذُكِـرَ أنَّه مات مقروعًا حَتْفَ أنْفه، وتأتَّت الأُمور لباديس من بعده، وصفا له الجوُّ.

١٧- انتصار باديس على زهير صاحب ألمرية (١).

وأوَّل فَتْحٍ أفـاءَ الله عليه هزيمـتُه لزُهَيْــر الخَصىّ والِى ألْمَــرِيَّة، وكان له كاتبٌ، يُعرف بولَد عبَّاس، مــن أشدِّ الناس حماقةً واستخفافًـا، مُثيرًا للشرِّ، مؤرِّشًـا بين الملوك، وكان الغـالِبَ على أمر زُهَيْر، إذ لم يكــن زُهَيْر يصلح لشىء لغباوته وجَهْله، وكان قد جـمع كلَّ خَصىٍّ بالأنْدَلُس واحتفل، فبالغَ، وأدركه الطمع فى غَرْناطة، لِمَا بلغه من موت حَـبُوس بن ماكْسَن، فأتى حتى نزل على مقــربة منها، بموضع يُعرف بالفُــونت، محتقــرًا لمن وَلِىَ غرناطة، يزعم أنَّهم أَصــاغِرُ وأمْـرُهم مختـلٌّ بعـد حَبُـوس، لِمَا أراد الله من هلاكــه وهلالك جنسيِّه الخصيان.

وكان جدُّنا باديس، رحمه الله، قد رأى عند ذلك رُؤيا أنَّ الحَوْرَ بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه، فهالَهُ ذلك، وخشى أن تكون الوقيعة عليه فأرسل فى [طلب] المُعَبِّر وقصَّ عليه، فقال له المُعَبِّر: «أبشرْ بهذه الرُّؤيا! إنَّ الحَوْر

(١) سوف ترد فى السياق أكثر من مرة، وقد وضعها المحقق فى حرف الميم، والصواب وضعها فى حرف الألف، وألـمرية Almeria ثغر من ثغور الأندلس الشهيـرة يقع فى جنوب أسبانيا على البحر المتوسط شرق مالقة، وهى مدينة مشرقة جميلة الموقع والتخطيط، وكانت أيام الدولة الإسلاميـة من أعظم ثغورها الجنوبية، وكان سكانهـا يومئذ يزيدون على مائة وخمسين ألفا، وهم اليوم لا يعـدون ستين ألفا، وقـد سقطت ألمرية فى يد النصـارى سنة ١٤٨٩م، وما تزال تقوم بها حتى اليوم أطلال العقبـة الأندلسية القديمة، وبهـا عدة أبراج منيعة تشـرف عليها من علٍ، ولألمرية ميناء جميل يرسو به كـثير من السفن (الإحاطة ١/ ٢٣٩ هامش ٤) وانظر لذلك أيضًا: الروض المعطار، ص ٥٣٧.

شبيهٌ بالخصيان، الذى لا طَعْمَ لـه، ولا أصل يتورَّك عليـه، وهُمْ بهـذه المرتبة، ولا شكَّ فى سقوطهم وبوارهم على يديك!» فكان ذلك.

وقدَّم على العساكر أخـاه بُلُكِّين، وكان من أشجع الناس، وكان باديس، عند موت أبيه، قـد اختصَّه بكلِّ مـا شاءَ وفَضَّلَه فى الميـراث على نفسه إلاَّ الناضَّ الذى تحتاجهُ المملكة، فلقى العسكر المرذول، فلم تكن إلاَّ ساعة من النهار حتَّى انهـزم وقُتِل جميعُ من كـان فيه من الخصيـان، وخفى زُهَيْر عن العسكر، فلم يوجد حيًا ولا ميتًا، وكانت تلك أَوَّلَ سعادة باديس، كما كانت هزيمة المُرْتَضَى أوَّل سعادة أبيه، ثمَّ افـتتح البلاد، وصارت إليه الأنظار التى تَلِى ألْمَرِيَّة، وظفر بعدوِّه كاتبِ زُهَيْر، وأمـر بقتله متأوِّلاً لإثارته الفتنة، ونقم عليه أشياءَ كثيرةً قَبْل ذلك، من أقاويل خَشِنة ومُعامَلات قبيحة عَرَّفَهُ بها.

وقرَّ مُلْكُ باديس جـدِّنا قرارَهُ، وطار له الذِّكْرُ، وكانت له من الهَـيْبَة فى الناس أن لم يَجتَرِئ عليه أحَدٌ بعد تلك القضيَّة.

ثمَّ إنَّ بلكِّين أخاه لم يلبث بعد تلك الوقيعة إلا يسيراً حتى مات ـ رحمه الله ـ وكبِـرت سنُّ سَـيْف الدولة فى حال الحـداثة، وهو أبونا، وترك عـمُّه بُلُكِّين ابنًا كان يناوئُه ويخشى منه ضرراً كثيراً، ويتوقَّع على نفسه من المُطالَبات بتلك الأخبار، فخرج عن البلد بجميع مالِه وتركةِ أبيه، لم يعترض له شىءٌ.

١٨- شخصية الأمير بلكين سيف الدولة والد المؤلف:

ولم يكن للمُظفَّر جدِّنا غـير بُلُكِّين أبينا ـ رحمهم الله ـ وكان رفـيقًا به، مشفقًـا عليه، حَذِراً من أعدائه وبنى عمِّه أن يُبلغـوه من بعده بما بُولِغَ هو به بعد وفاة أبيه، فكان لا يحسُّ من أحَدٍ داخِلةً ولا نفاقًا إلا ونظر فيه بما يوافق أمْره من إخمال أو نَفْيٍ أو أخذِ مالٍ، لئلاَّ يبقى لابنه مَنْ يُناوئُه ويُذِلُّه.

وكان سَيف الدولة حليمًا رَفيقًا، ضدَّ أبيه في كلِّ حال، فإنَّه لم يجرِّب من الأمر، ولا ابتُلِيَ بما ابتُلِيَ هو به، وكان يَعِدُ الناسَ بالجميل، ويقول لهم: «أنا أُنسيكم طريقةَ أبي!» ومن استوجب من أبيه القتل أو أدنَى ضَرَرٍ، كان هو الذي يعنى بأمره، ويتشفَّع فيه عند الأب، حتى يتخلَّصه، فأجمع الناس على محبَّته خاصَّةً، وعامَّةً للذي يرون من مكارِمِه، مع تمكين أبيه له وبَسْطِ يده على الأموال.

١٩- نشاط يوسف بن نغرالة اليهودي ومؤامراته:

وكان في زمانه للمُظَفَّر أبيه وَزيرانِ ابنا القَرَوِيِّ: أحَدُهما عليٌّ، والآخر عبد الله، ممَّن نشأ معه، وكانا حَضِيرَيْهِ في المكتب، وكانا قائدَي العسكر، وإليهما كان يرجع الرأيُ في أُمور الفِتَن، وكان أبو إبراهيم الشيخُ مُؤذنًا لهما، مستعينًا بهما.

فلما توفِّي أبو إبراهيم، وترك ابْنَهُ وزيرَ جدِّنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرةً، ووصَّاهُ بأن يسعى في طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حَتْفُ كلِّ واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستئثارهم بالجبايات.

فجعل الخنزير نَفْسَه لذلك، وكان المُظَفَّر ـ رحمه الله ـ لا يقبل منه مُطالَبةً لمُسْلِمٍ، ولا عرَّضه لذلك، غير أنَّه كان يتلطَّف بالأموال، ويعطي لثِقاتِه وعَبيدِه ما يجعلهم في المُطالَبَة على هواهُ، وهو ساكتٌ، لا يتكلم بشيءٍ مثل أن يَدُسَّ في طَلَب أحَدٍ على يدي مُوَفَّق الخصيِّ صاحِب المدينة من ثِقات باديس، وكان منتصبًا لهذه المشَابِه، فيأتي مُوَفَّق المذكور بنصيحة

إلى السلطان ممّن يزعم أنَّه من أهل الشرّ، فيُرسَل فى اليهودىّ ويُقال له: «بلغنى أمرٌ كذا وكذا» فيُرِيه اليهودىُّ التبرُّؤَ من ذلك بأن يقول له: «كلُّ ما نُقِل إليك كذبٌ، فتثبتْ!» فيقول له الرئيس: «أخبرَنى مَنْ لا شكَّ عندى فى نصيحته!» فكان آخرُ ما يقول له: «ما قَطْعُ الشرِّ إلاّ سياسةٌ» وكان لمباهاته ومَخْرَقتِهِ، يُرى الناسَ أنّه يقدر، ولم يكن ذلك منه، إلاَّ عن تحيُّلٍ ومكرٍ،

فلما توفّى أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنُه فى سنِّ الصبا، كَرِه توليتَه جدًّا، وقال لعلىٍّ المذكور: «التزِمْ خدْمة المملكة، فأنْتَ أحقٌّ بها!» فأبى ذلك علىٌّ، واطَّباهُ وَلَدُ أبى إبراهيم بالأموال الجسيمة، وقال: «ليس أرغبُ إلا أن أكونَ عَبْدَك وتَرْبِيَتَك، ولك الأمرُ، وأنا كاتبٌ بين يديك، وأقوم بنَفَقَتك كلِّها، ولَوْ كان أهلُكَ عَدَدَ الحَصَى!» فطمع علىٌّ فى قوله: وكلَّم السلطان فى ذلك، وقال له: «إن أبقَيتَ على وَلَد أبى إبراهيم ناصِحك، فأنا أرجو ذلك لولَدى من بعدى، وأنا المُشرِفُ عليه» ففعل السلطان ما قال، وقدَّمه على العُمَّال والجبايات، وكان يعطى لعلىٍّ صدراً من دولته إلى أن كَبِرَت سنُّه.

وأظهر [وَلَدُ أبى إبراهيم] للسلطان نصائحَ كثيرةً حظِىَ بها عنده، وتَبَرْمَكَ على علىٍّ وغيره، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسأل به عن علىٍّ ولا عن أحدٍ من خلق الله، وكان فيما قال له: «إنَّ الذى يأخذ علىٌّ أنتَ أولَى به، والرجلُ كثيرُ الأولاد والضَّفَف، ويذهب مالُكَ إن لم تَحْمِنى وتعضدنى، وهو متى تملأ، طَمِع فى مُلْكك! وأنا رجلٌ ذِمِّىٌّ لا همَّةَ لى إلاَّ خِدْمَتك وجَمْع الدراهم لبيت مالك!» فوَثِقَ الرئيس بقوله، وقاس عليه بعقله، ومنع

منه عليّا وجميعَ الناس، ولما رأى عليٌّ تأخُّرَهُ وتَقَدُّم اليهوديِّ، ندم على ما كان منه أوَّلاً، وفاتَهُ من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان، وغَاظَه ذلك وأكْرَبَهُ.

وكانت مَدينة وادِى آش(١) بيَدِه، قد قدَّم عليها أخاه عبدَ الله، وكان يأكُلُها طعمةً، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِم، وهى تُساوِى أزْيَد من مائة ألف دينار ثُلُثِيَّة، فدخل عليه اليهوديُّ بهذه المُطالبة وقال للسلطان: «اقبض وادى آش من عنده، ولك منِّى فيها أزيد من مائة ألف!» فقال له: «لستُ أقدر على أخذها منه بهذا الوجه، فتكون مفاسدةً، وهم متصرِّفون فى خِدْمَتِها» فوجد اليهوديُّ السبيلَ إلى حيلة فى نزعها باسْمِ سيف الدولة أبينا، وقال: «لآخُذَنَّ البلدة من يد عدوٍّ، فأضعُها فى يد سلطان يشكرنى عليها، ويَرَى لى ذلك عن تخدُّم ونصيحة!».

فقال لأبى: إنه يلزمنى طاعتُك ونصيحتُك لأكون لك كالذى أنا لأبيك، وأراك كثيرَ الذُّرِّيَّة، تلزمك نفقَات وتجمُّل الرياسة، ومن الغبن أن يكون وزراء والدِك أغنى منك! وهذه وادى آش، بِنْتُ غرناطة، لا تجمل إلاَّ لك، وأنا أثَمِّرُها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف!» ففرح لقوله والدِى ـ رحمه الله ـ وشكر له رأيه، ووعده بالزيادة فى مرتبته إن صار الأمرُ إليه.

ثمَّ مضى إلى الوالِد، فأخبره الخَبَر، وقصَّ عليه أمْرَ ابنه، فقال له

(١) وادى آش: مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة كبيرة خطيرة تطرَّد حولها المياه والأنهار، ينحط نهرها من جبل شلير، وهو فى شرقيها، وهى على ضفته، ولها عليه أرحاء لاصقة بسورها، وهى كثيرة التوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون، والقطن بها كثير، وكان بها حمامات، ولها بابان: شرقى على النهر، وغربى على خندق، وعليها سور حجارة (الروض المعطار، ص ٦٠٤).

obeikandl.com

المُظَفَّر: الآن وجب أَخْـذُها من أولاد القَرَوِىّ» فأرسل على المـقام فى علىٍّ وقـال له: «إن ابنى مـحـتاجٌ إلـى المال، وطـلب منِّى وادى آش، ولو كنت آخِذَها منك ومُـعْطِيَهـا لقرنك، لَعَـزَّ عليك! ولكن يجب لك أن تتسـرَّع بها لابنْى» فلم يكن جـواب علىٍّ إلا أن قال لـه: «ما صَلُح للمَـوْلَى على العَبْـدِ حَرَامٌ!» فضمَّهـا اليهودىُّ خادِمًا لأبى فيها، وشرط عليـه أن يعطيه رَسْمَها فى أنْجُم العام، واتفَقَا على ذلك، وصارت المودَّة متمكِّنة بين الابْن والوزير مُدَّةً طويلةً.

٢٠- موت الأمير بلكين مسموماً:

فلما رأى وزراءُ الدولة وعـلىٌّ وأخوه تَمكُّن اليهـودىِّ عند السلطان وعند الابْن أغـاظهم ذلك وأقْلَقَـهم، وبلغ منـهم كلَّ مـبلغ، وأجـمع رأيهم على الدخـول بينه وبين أبينا، وكـان أولاد على وعـبـد الله وزرَاء لسَـيْف الدولة ونُدَماءَ، ولا يُفارقونه، فعملوا عليـه من كلِّ وجه بأنفسهم ومع بنيهم، وقالوا لسَيْف الدولة: «إنَّ الأموال التى يغنم اليهودىُّ ويستأثر بها، أنتَ أحَقُّ وأولَى، وقد أخْمَلَك وأَخْمل الدولة أجمع! ولو أنك قَتَلْتَه، لم يقلْ لك أبوك فى ذلك شيئًا! وما عسى أن يصنع بابنه؟» أرادوا ـ الفَسَقة ـ قَتْلَ عدوِّهم على يدى ابن الرئيس، ليخـرجوا أيديهم من المسـألة: فإن عاقَبَ، عـاقَبَ ابنَهُ، إن شاءَ، وحـصَّلوا على الدولة دون مـلامة مـن السلطان، فلم يزالوا به أبدًا، ينمُّـون باليهودىِّ، ويكذبون عليه، ويمضـون إلى اليهودىِّ بالكذب على لسانه، حتى تغـيَّر أبونا عليـه وتغيَّـرت له نفسُ اليهـودىِّ، مع قلة تجارب سَـيْف الدولة لمكايد الناس، فـعمل على قـتله، وكان يتـحدَّث بذلك، ويفـشى سرَّه إلى

الوزراء الرافعين إليه، فـلا هو يعزم على قتله، ولا هو يتكتَّم بالأمر، إلى أن صحَّ ذلك عند اليهوديِّ، واعتزم رأيُه على أن يسبقه بالأمر، ورأى عيانًا تغيُّره عليه، وكان أبونا، لمـا همَّ بقتله، وأعَدَّ لذلك عبـيدَه، فكَّر فى سطوة أبيه، فكَفَّ.

وكان لسَـيْف الدولة أَخٌ صغيـرٌ اسْمُه مَاكْـسَن، عمُّنا الشهـيدُ فى وقيـعة بَطَلْيَـوْس[1] فعمل الخنزير رأيَه مع مَشْـيَخَة اليَهُود، وأخبَرَهم بتـغيُّر سيف الدولة عليـه، فـقـال له أَحَـدُهُمْ وأدْهَاهُم رأيًا: «لا تطمع فى الفـلاح بعـد الشـيخ، ولا فى سَـيْف الدولة! ولكن انظُرْ لـنفسك فـيمَنْ تُقِـيمُ إن مـات رَئِيـسُك: أوجَـدْتَهُ؟ وتحـيَّلْ فى سَقْـى سيف الدولـة، وهذا مَاكْـسَن أخـوهُ مـخمـولٌ، فـإن قَـتَلْت أنت هذا، ووَلَّيتَ هذا، قـدَّمْتَ عنده يدًا لا ينسـاك عليها!».

فسوَّلَتْ له نفسُه سَقْيَهُ، وكـان متمكِّنًا بذلك، لأنَّ أبانا كان كثير الشرب معه والتكرارِ عليـه فى منزله، فشرب يومًا عنده على عـادته، فلم يخرج عنه حتى قذف ما كان فى جوفـه، واستلقى على الأرض، فلم يَسْتَطِعِ المشى إلى منزله إلا عن مشقَّة، ولبث يومَيْن يجود بنفسه، حتَّى مات ـ رحمه الله عليه.

ولقد سـمعتُ كبيـرًا من خِصيانِ باديس يقـول: «أَرْسَلَ فى سَيْفُ الدولة يومًا وقال لى: «انهضْ إلى أُمَّهَاتِى وقُلْ لهنَّ إنى اعـتزمتُ على قتل اليهودىِّ» يقول الخَصىُّ: «فـقلتُ له: أنا لا أمضى بهذه الرسالة! فإنَّ الخَبَـرَ لا مَحَالَة

---

(١) بطليـوس: بالأندلس من إقليم ماردة بينهمـا أربعون ميلا، وهى حديثة بناها عـبد الرحمن بن مروان المعـروف بالجليقى بإذن الأمير عـبد الله فى ذلك، فأخذ له جـملة من البناة وقطعة من المال فشرع فى بناء الجامع واتخذ مقصورة وبنى مسجدًا بداخل الحصن (الروض المعطار).

عنده! لو أنَّك تريد قَتْلَهُ، ما كان نبغى لك أن تُسْمِعَنى ذلك ولا أحَدًا من خلق الله!» فعلمتُ أن حاله تَئُولُ إلى مثل ذلك.

وممّا أعان على الفساد قَبْلَ ذلك أنَّ أبانا كان مع أُمَّهَاتِه، اللائى رَبَّيْنَ وَلَدَهُ المُعِزَّ أخانا، على ضدٍّ من الأمن، لإفراغِهِنَّ المال على ابنه طفلا صغيراً ومَنْعِهِ هو منه، فاحتاج إلى اليهوديِّ عن المال، وكان أُمَّهَاتُهُ يُطالِبْنَهُ ويمنَعْنَهُ عن صحبة اليهوديِّ، حتى شعرا بذلك، واتَّفق رأيُهُما على مُطالبة النساء عند الرئيس، وتجريحهنَّ بسرقة المال وإرساله إلى البلاد، فلما وقف جدُّنا على المقالة، وقد وقعت المفاسدة بينهُنَّ وبين ابنِهِنَّ، صار مَلُومًا من الأب والنساء، وتحيَّل النساءُ على أن بَرَّأنَ أنفُسَهنَّ ممَّا قُذِفْنَ به، ودَعَت الضرورةُ سَيْفَ الدولة أن يتصالح مع النساء لرجوع أبيه معهُنَّ، ورُدَّت القِصَّة فى رأس اليهوديِّ، فكان ذلك ممَّا زاده غائلةً ونفوراً، وجرى على يديه ما قدَّر الله به لتمام المُدَّة.

وكان فى أوَّل المفاسدة قد احتبس له بكثيرٍ من جباية وادى آش وشكا به سَيْفُ الدولة لأبيه، فتحيَّل الخنزيرُ على أن دعا أبانا إلى منزله لشرابٍ، حتى سكر، وأَمَرَ بخروج بنيه وعياله فى ثياب الحزن، فهالَ ذلك أبانا لِمَا رأى من حالهم وبكائهم، إلى أن قال له: «هل مات عندك أحَدٌ؟» فقال له: «مات عندى مالٌ كبيرٌ لا يمتسك عنك إلا بمطلِ الرعيَّة! وهذا يومٌ طيِّبٌ: فأنِّس أَهلى بكَتْب براءَة تبرِّئنى بها إلى أن يَرِدَكَ مالكَ، فإنَّهم قد وجَستْ نفوسهُم وفزعوا، فأتِمَّ إحسانَك بكَتْب البراءَة!» فافتَرَصَه فيها، وكتبها، ثمَّ ذهب بها إلى أبيه وقال له: «إنَّما ينفق مالَهُ على الوزراء والشرابِ المُدْمِنِ! وهذا إبراؤُه

لى: فأينَ شكواه؟» فرجع مَلُومًا من الأَب زائداً، وصار فى خسارة مع الوزير والنساء، لِمَا أَراد الله من تمام المـدَّة، والله ينفعه بجميل نيَّته وصَـفَاء مَذْهَبه للخاصَّة والعامَّة!.

٢١- ما بلغ ابن نغرالة من المكان الأرفع:

فلما توفِّى أبـونا، وكانت من أكبـر الرزايا للناس، لِمَا كـانوا يرجونه من العـدل على يدَيْه، هاج الناسُ بأمره، وهمُّـوا بقتل اليـهودىِّ، وكـانت تلك مقـدِّماتٌ لهلاكه، غـير أنَّهم كانوا يتـوقَّعون مـعاقبـة الرئيس، وزاد فى طَلَبه لأولاد القَرَوىِّ، وصـوَّر عند المُظَفَّر أن بنيـه زيَّنوا لابنه الإدمان على الخـمر حـتى هلك، وأدركتْ لذلك أولادَ القَروَىِّ منـحسـةٌ عظيمـةٌ من نَفْيـهم عن أوطانهم، وأخْـذِ أموالهم، وقَتْل بعض الـوزراء الذين كانوا حوَالَى أبيـنا لِمَا اتُّهِمُـوا به، وجانِى القضيَّـة لا يُوبَه له، وتَبَرْمَكَ اليهودىُّ بعـد سَيْف الدولة، وسعى فى إقامة مَاكْسَن عمِّنا.

وكَبِرتْ عند ذلك سنُّ جـدِّنا، وأخْلَدَ إلى الراحة، وزَهِدَ فى طَلَب البلاد لكبر سنِّه وموت ابنه، وألقى بمـقاليده إلى اليهودىِّ فى الخدمـة عنه، فتمكَّن بما شاءَ من الأمر والنَّهى.

٢٢- استيلاء باديس على مالقة[1]:

وإنَّما كان طَلَبُ جدِّنا أكثَرُهُ وسَعْيُه على أَخْذ مالَقة، فإنَّه، متى كان يأخذ شيـئًا من مَعاقِل الأنْدَلُس، يبلغـه من المُعِزِّ بن باديس أنَّه يقـول: «يخاطِبُنى

(١) مالـقة: بالأندلس، مدينة على شاطئ البحر، عليها سور صخر، والبحر فى قبليها، وهى حسنة عامرة آهلة كثيرة الديار (الروض المعطار).

صاحبُ غرناطة بأَخْذ الكُوَر والقُرَى! أمَا أنَّه لو أَخَذ مثل قُرْطُبَة[١] ومالَقة وما أشبهـهما من القــواعد، كُنَّا نبايع له فى ذلك!» فجـعله كلامُه يجدُّ فـى خبرِ مالَقة، ولِلَّذى كان يرَى من اندبار سلاطينها، وتوقُّعِه على أنْ يأخذ البلدةَ مَنْ يُدْخل عليه الداخِلة منهـا، فلم يزل يعاوِدُها سِنين بلا سآمة ولا فـترة، حتى حصل عليها.

وبنى قَـصَبَتَـها بنيـانًا لم يقدر علـى مثله أحَـدٌ فى زمانه، وأعَـدَّها عُدَّةً للمُهِمَّات، وجـعل فيها جميع ما ورث لابنـه، وزاد عليه، وكان الذى يتوقَّع من كَلَب سلاطين الأَنْدَلُس واتِّفاقهم عليه لذلك أن يتـحصَّن فيها ما استطاع، وإلا، فيجـوز منها إلى عِدوة بنى عمِّه بأهْله وذخـائره ومُذْ أَخَذَهـا، حلَّ عن نفسه.

ونازَعَهُ عليها ابنُ عَبَّاد، وأطاعَهُ أَهْلُها دون القَصَبَة، فوجَّه إليها عساكِرَه، وهزمه عليها، ورجعَتْ إليه بعـد اليأس منها، ولـم يُلاقِ سلطانٌ على مدينةٍ ما لاقى هو على مالَقة من طول الـفِتَن ونفقة الأموال، فلمـا بلغ منها الغاية من آمـاله، حلَّ على نفـسـه، وتمتَّع بمُـلْكه، ومن ذلك دخلت عليـه الدواخِلُ باستنامته إلى الوزراء وولاةِ البلاد، على حسب ما نقُصُّه بعد هذا.

ولولا ما كـان غَرَضُنا وَصْفَ دولـتنا خاصَّةً، لذَكَـرْنا لُمَعًـا من دُوَل بنى حَمُّود فى مـالَقة، واختلالِ أمرهم واحِـدًا بعد واحد، حتى تصـيِّر الأمْرُ إلى جدِّنا ـ رحمه الله ـ لكن نقتصر على ذِكْر ما نحتاج إلى إيراده إن شاء الله.

---

(١) قـرطبـة: قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقـر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر، وهى فى ذاتهـا مدن خمس يتلو بعضها بعضًا، وبين المدينة والمدينة سور حاجز، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات (الروض المعطار).

obeikandi.com

فتهدَّنت الحال، وتأتَّت السعادات، وامتلأت بيوتُ الأموال سِنين لا يُسمع فيها بِفتْنة، ولا يُرَى معها تشغيب، إلى أن اختلَّت الأحوال بعد ذلك بما كان من نفاق اليهوديّ ـ لعنه الله ـ وتَصْيِيرِ وادى آش وجميع أنظارها لابن صُمَادِح، واستِئساد الرؤساء على البلاد، حتى إنه لم يَبْقَ لنا أكثر من غرناطة والمُنكَّب(١) وباغُه وقَبْرة، ولما شاع عند الرعايا خبر موت الرئيس الأجَلِّ ـ فإنَّه كان مُحتجِبًا أبدًا ـ خلَت المَعاقِل من الرجال، وافترصَتْها الرعايا بأسبابٍ نَحْنُ نَذْكُرُها إن شاء الله بعد هذا.

٢٣-علاقات باديس ببني صمادح أصحاب المرية:

والأَوْلى أن نقدِّم وَصْفَ ولايةِ ابن صُمَادِحٍ لألْمَرِيَّة(٢)، وعضد جدِّنا ـ رحمه الله ـ لرياسته، وإثباتَه له فى مُلْكه عند قيام ابن أبى عامرٍ عليه، طالبًا له لخلافه عليه، وأيادى كريمة سلفَتْ من المُظَفَّر قبله، لم يسبِقْه إليها أحدٌ من جنسه، ولم تكن مكافأتُه على ذلك إلاَّ أن افترص بلادَه وقَبِل دواخل إلى الإفرَنْج، يَعِدُهم بالمال الكثير، وأجابَهُ مُجاهِدٌ لِمَا أشار به عليه، وعملت الكلمةُ فى نفسه، فلما هَمَّ ابن أبى عامرٍ بالرجوع عن لُرْقة يُريد المَرِيَّةَ، تأَخَّرَ عنه مُجاهدٌ، وتبيَّنَ للمَنصُور قعودُه عنه وخذلانُه إيَّاه، وسألَهُ عن ذلك، فقال مُجاهِدٌ مُخاطِبًا له ولأعلام قوَّاده: «يا قوم إن كنتم لا تعرفون البَرْبَر، ولا جرَّبْتُم حُروبَهم، فأنا، والله، عليمٌ بها! فإياكم أن يكون بَوَارُكم على أيديهم، وأنتُم [ستعلمون] أنَّ فِتْنة عشرين سنة خيرٌ من مُلاقاة ساعةٍ واحدةٍ، فإنَّ فيها

(١) المنكب: بالأندلس، مَرْسى المنكب صيفيٌّ يكن بشرقيه، وله نهر يريق فى البحر، وعليه حصن كبير لا يرام، به ربض وسوق جامع، وفيه آثار للأول كثيرة (صفة جزيرة الأندلس).

(٢) فى المطبوع: «للمرية».

تتلف الدُّوَل، وينتقل المُلْك، ويستأصل الجمع، فعليكم بالتأنِّى!» فقال له ابن أبى عامر: «جَبُنْتَ! ارجعْ إلى دانِيَة ولا تفسد علىَّ الجيش!» فأقلع على المقام مغضبًا من قذفه.

وجزع الناس بزوال مُجاهِد عنهم، وأدرك الإفرَنْج الطمعُ، وطلبوا منه ما لا قدرة له به، وانصرف خاسئًا.

وجمع المُظَفَّرُ رجالَه وقال لهم: «كيف تَرَوْن هزيمة هذا العَسْكَر من غير قِتال؟» فأجابوه أن: «قد وُفِّقْتَ! وأنتم، مَعْشَرَ الملوك، لم تُعْطُوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها، وجعل عقولكم أَجَلَّ وأَنْفَسَ من عقول الناس، وبذلك فضَّلتم من دونكم!» ورجع المُظَفَّرُ غالبًا منصورًا، وصار أبو الأحْوَص [ابن صُمَادِح] طاعةً له، لا يروم شيئًا من كلِّ ما بِألْمَرِيَّة إلا وصار إليه، ولا يأمر فيها بأَمْرٍ إلا وكان مِلْكَ يَدَيْه، وبقى الأمرُ على ذلك سنينَ.

وكانت قُرْطُبَة فى ذلك الزمان بمنزلة ألْمَرِيَّة، إذ كان فيها ابنُ السَّقَّاء، لا يمتنع على المُظَفَّر من رغباته فيها شىءٌ، إلى أن توفِّى أبو الأحْوَص، وترك ابنه هذا المتوفَّى بألمرِيَّة ـ رحمه الله ـ عند ظهور المرابطين عليها، وهو إذ ذاك صغير السنِّ، فأرسل إلى المُظَفَّر يرغب إليه أن يكون له فى العضد والحماية بالمنزلة التى كان عليها لأبيه، وأنه أحسنُ طاعةً وأشدُّ انقيادًا من أبيه، وسألَهُ تجديد العَهْد معه والاجتماع به، فأجابه المُظَفَّر إلى كلِّ ما سأل، ووعَدَه بالذبِّ عنه على أتمِّ ما كان عليه لأبيه، واجتمع به وجدَّد معه عَقْدًا، وثبتَتْ رياستُه، وقَرَّ حاله قراره، وداما على ذلك دَهْرًا طويلاً، لا يُسمع فيها بِفتْنة، ولا يكابد معها تشغيبٌ.

وكان فى ذلك [الوقت] خدَّامُ دَوْلَتنا متَّفقين مع اليهودىّ، إذ كان وزير السلطان وصاحبَ سرِّه: فمنهم صَنِيعَةٌ له قد استغْنَى معه، ومنهم عَدُوٌّ له، مُؤَازِرٌ فى الظاهِر استدفاعًا لشرِّه، فاتَّسَقَت الأمور بذلك، وأعان بَعْضُهم بَعَضًا على خدمة السلطان، وأنِسُوا إلى ثِقَته بهم وعَضْدِ[1] بعضِهم لبَعْض، ولما تهيَّأت له الأمور، وتوطَّدت الدولة، بعد كلٍّ ما ذكرنا من تلك الفِتَن وغيرها، وحصَّل على مدينة مالَقَة بعد المكابدة واليأس منها، حلَّ عن نفسه، ومال إلى الراحات التى يستريح إليها الملوك، وفوَّض أمْرَه إلى الوزير والخَدَمَة.

٢٤- وصول الناية إلى غرناطة حظوته ومنافسته لليهودى:

وفى أمْكَنِ ما كانت الدولة وأبْهَجِها، قصدَه النَّايَة، عبدٌ كان للمُعْتَضِد ابن عبَّاد - رحمه الله - وكان من جُمْلَة من اتَّفق على غدره مع ابنه المشهور خَبَرُه، فأتى للقَدَر الذى لم يكن عنه محيصٌ، واعتنى به جماعةٌ من كبار العَبيد، وطلبوا له من السلطان العطَايا، فأجابهم إلى ذلك تَقَمُّنًا لسرورهم، كَىْ يزيدوا فى خِدْمته ونصيحته، وقالوا له: «قَصَدَكَ هذا الإنسان عن مفاسَدَةِ لغَيْرِك وتعويلٍ عليك، وقد أمَّلَكَ، فما تصنع فيه إنَّما تُسْديه إلينا» ودخل غرناطة فى أسْعَدِ وقت له، وأشْغَبِهِ على الدولة، وسار فى أوَّل أمره مع الخَدَمَة بأجمل سيرةٍ وتواضُعٍ لهم، حتى حمدوا طريقته، ونفعوه عند السلطان، إلى أن استعمله فى بعض خِدْمَته وصرَّفه فى ولاية بعض عسكره، وكان لطَلَبِهِ الثأر من بنى عبَّاد، قد اكتفى فِى فِتْنة مالَقة واستمال أقوامًا من الجُنْد، وكان فيها متَصرِّفًا بين يدى مُقاتِل بن يحيى قائدها، ولم يزل مُقاتِلٌ المذكورُ، متى خرجَت مُغيرة إلى بَلَد ابن عبَّاد، يُعلم المُظَفَّرَ بكفاية النابة

(١) عَضَدَهُ عَضْدًا: أعانه ونَصَرَهُ.

المذكور فيها، حتى كاد يجعل له الحسَّ كلَّه، إلى أن ورده كتابُ السلطان مشتركًا بينهما، وصار قائدًا معه في البلدة، وزاد جِدُّه، ونَما خَبَرُه، وتَضَاعَفَ إحسانُ المُظَفَّر إليه، وكان، متى ما أتى مالَقة، نزل السلطان في داره، وشرب معه، مع تنويهه به والتزيُّد له من ذلك مع الأيَّام.

وكان، مع تقريب السلطان له مَتَى انفَرَد به أو افتَرَصَه على الخَمر، يجرِّحُ عنده اليهوديَّ، ويقول له: «قد أكَلَ مالَكَ، وتملَّك بأعظم من مالك، وبَنَى خيْرًا من قَصْرِك! فالله الله في إزاحته والتحبُّب إلى المسلمين بفقْدِه!» والمُظَفَّرُ في هذا كلِّه يَعِدُه ويقول له: «لا بُدَّ لي مِن ذلك، وأُوَكِّلُكَ على قتْلِه!» فَرُبَّما لفظ بذلك بمَسمَع من لا يُؤبَه له من عبيده والمُتَصَرِّفين بين يديه، فينقلون ذلك على المقام إلى اليهوديِّ ليَصِلَهُم عليها، فلا تزداد نفسُ الخِنْزير إلاَّ حماقةً ومُنافَرَةً، ويكاد أن يموت همّا وحنقًا، مع حسده له على المنزلة التي خُصَّ بها دونَه، ورام مطالبته عند السلطان بكلِّ مرام، فلم يقبل منه، فلما رأى أنَّ منزلته لا تزداد إلا ترفيعًا، وخاف على نفسه أن يحمل السلطان على هلكته، انقطع رجاؤه من كلِّ وَجْهٍ وقال: «إنَّما اسْتِهْزَاؤُنا بالناس من أجْل عزِّ السلطان! وأَمِنَّاهُم على أنفُسنا بحمايته وعنايته، وأمَّا الآنَ، فقد انقطع الرجاءُ: لا سلطان نأمَنُهُ وقرين سُوْءٍ يطلُبنا عنده، وعامَّةٌ تريد هلاكَنا، ونَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُون في الأرض!».

٢٥- إجلاء الأمير ماكسن بن باديس:

وكان [اليهوديُّ] قد ألقى يَدَه في عمِّنا ماكسن، رجاءً منه أن يسند إليه، فكان من أشدِّ الناس عليه، ولم يكن حَوَالَيْه رجلٌ رشيدٌ يُسَدِّده ويأمُرُه

بالمُداراة، إلى أن قال له مواجَهَةً: «أتُرِيدُ أن تقتلنى كما قَتَلْتَ أخى؟» فعملَتْ فى نفس اليهودى، وكان ماكْسَن مع هذا كُلِّه سيِّئَ الطريقة، قليلَ البِرِّ، خَشِنَ الكلام، يَعِدُ الناس بالشرِّ، حتى كرهَهُ أَهْلُ دولة أبيه وأبغضوه، وكَثُرَ عليه الطَّلَبُ عند أبيه.

وكانت أُمُّهُ تَتْرُكُ معاملة الوزير الذى ألقى يَدَه فيه، وتمِيلُ إلى خَالِه: يهودىٌّ يُعْرَف بأبى الربيع بن المَاطُونى، وكان قابض الوجيبة، فتخاطِبُهُ أبدًا، وتَطْلُبُ منه مالاً باسْمِ السلف، فغارَ الوزيرُ لذلك، وعمل على طَلَبه وطَلَبِ أُمِّه وحاشِيتِهِ، وافترى عليهم عند السلطان، وشهد له على ذلك جماعةٌ من أهلِ الدولة، ممَّن نقموا على ماكْسَن قَبْلَ ذلك ما قدَّمْنا ذِكْرَه، وأغْرِىَ بهم حتى جعلَتْه الأنفة من مكروه ما نُقِلَ إليه أن يأمر بقَتْلِ أمِّه ودَاياتِهِ وبَعْضِ من انتمَى، وقتل الوزيرُ خَالَهُ غدرًا فى منزله على الشراب لخِلافه عليه فى هذا وغَيْرِه، واتَّقى منه نصيحة السلطان، وأعطاه على ذلك مالاً جسيمًا، لئلاً يثرب عليه قَتْله، فقبل السلطانُ ذلك منه، وودَّ أن لو قَتَلَ كلَّ يومٍ يهوديًا، فيُغْرِمَ عليه مالاً.

ثمَّ أمر بعد ذلك بنَفْىِ ولَدِه، وكان من آكَدِ الأسباب فى نَفْيه أن خرج السلطان يومًا لعَرْض الأجناد، وقتَ الفِتْنة مع ابن صُمادِح، فانتدب إليه من شيوخهم من قال له: «ما ينبغى لك أن تُقَدِمَ علينا العَبِيد وغَيْرَهم، وتَتْرُكَ مثل هذا الابن! أرْسِلْهُ معنا، وتتَّبعه فى كلِّ مُلِمَّة!» يعنى ماكْسَن، فعزَّ ذلك على أبيه، مع سَخَطه عليه لما كان يرَى منه ونُقِلَ إليه عنه، وخاف أن يكون وراءَ هذا الكلام فعلٌ بأن يخملوه ويقدِّموا ابنَه، وجزع اليهودىُّ لذلك جزعًا شديدًا

وقال: «ما حسبتُ نفسى فى ذلك اليوم إلا مقتولاً!» فأَعْلَمَ السلطانَ بهذه الوجوه، وأمر على المقام بنَفْيِه عن البلَدِ، ووجَّه معه من عبيده من يُخْرِجه عن نَظَره كلِّه، ووصَّى اليهودىُّ ـ لعنه الله ـ ذلك العبد أن يَصِلَ معه إلى موضع سمَّاهُ بحيثُ يخفى أمْرُهُ، فيضرب فيه عنقَه.

وكان أخونا المُعِزُّ قد ربَّاه جَدُّه، ونال معه الكرائم، وأحبُّوه فى حُرْمة أبيه، واتَّفق رأىُ الجميع مع اليهودىِّ على قَتْل ماكْسَن وتوليةِ المُعِزِّ، حذراً على أنفسهم من ماكْسَن أن يثور عليهم ويعاقِبَهم بمَحَبَّتهم فى [ابن] أخيه وتَرْبِيتهم له، فكان من ذلك ما أمَّلُوهُ.

وخرج عَمُّنا على أسوأ حال، مذعوراً، خائفًا، بَعْضُهم يُشير بقَتْله، وبَعْضُهم يأبَى إلا إزاحته عن النَّظَر كلِّه، حتَّى صار ببعض الطريق، وانحلَّ عن غُمومه بهلاك اليهودىِّ، على ما نذكُرُه بعد هذا.

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس

obeikandi.com

obeikandl.com

٢- من موت ابن نغزالة إلى نهايتها

٢٦- مؤامرة الوزير اليهودى ابن نغرالة

ثورة صنهاجة عليه وقتله:

وإنَّ الخنزيرَ ـ لعنه الله ـ لما رأى طغيان النساءِ، وكلُّ فرقة منهنَّ تُريد ولاية مَنْ تُرَبِّيهِ من أبناءِ السلطان، ورأى تغيُّر مولاه عليه وإمعانَ الغاية فى مُطالَبتِه والازديادِ فى جاهِهِ، لم يَجِدْ فى الأرض مَهْربًا، ولا وجد إلى التخلُّص سبيلا، وشاورَ فى ذلك مَشْيَخَته من ذوى الرَّأى، فقال بعضهم: «انجُ بنفسك، وقَدِّمْ جُلَّ مالكَ إلى أىِّ البلاد أحْبَبْتَ، تَستَوطنها غَنيًا آمِنًا!» فقال: «ذلك مُمْكِنٌ لولا أنَّ الرئيسَ الأجَلَّ، إن أرسل فىَّ إلى صاحب تلك الجهة، يقول: «ذهب وزيرى بأموالى: إمّا أن تصرفه علىَّ، وإمّا أن أُفاتِنَك!» أتَرَى أنه يبيع الرئيس عنِّى؟ هذا ما لا يجوز إلاَّ أن أُصَيِّرَ إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما، ونأمن على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يُمكنه إسْلامى، وأنا قد وضعتُ فى يده بلاداً ومجداً كبيراً!» فاتَّفق رأيهم على مُخاطبة ابن صُمادِح، وأنَّه الأولَى لجيرته وقربه من كلِّ أمرٍ يحتاج إليه فيه.

وأخبرنى رسولُ ابن صُمادِح ابنُ أرْقَم، وكان قد تخيَّروه للرسالة حينئذ، قال: حضرتُ يومًا مع المظفَّر ـ رحمه الله ـ وقد خرج إلى بعض متنزَّهاته والنايةُ معه، واليهودىُّ وراءه، حتى بصر الناية بحكيم كان للوزير، يهودىٌّ، فأمر بإهانته وإرجاله عن دابَّته بحضرة الرئيس، وتوقَّح فى ذلك، وأبلغ فى شتم اليهودىِّ، فاستعظم اليهودىُّ ذلك وقال لابن أرْقَم: «حسبك هذه

الإهانة، ولا صبر عليها! فإن كُنتم تستطيعون لى على شىء، وإلاّ فلا بدَّ من الترامِى على غَيركم!» فقـال له ابن أرْقَم: «أنت جديرٌ بالتثبُّت فى هذا الأمر! وأى ضرورة دفعَتْك إلينا وبيـدِكَ الرعايا، وإليك تُجبى الأموال؟ والسلطانُ لم يغيِّر عليك شيئًا أكثر من همزات هذا المُطالِب! فاحتَلْ بأن تُصابِرَ الأُمور إلى أن يموت الشـيخُ، لا سيَّمـا أنه قد أَسَنَّ، وتُلقى يَدَك، فى حـفيده المُـعِزِّ، وتبقى حالُك معه حسب ما كـانت مع جدِّه، وهو أَقْرَبُ إلى السلامة!» فقال له اليـهودىُّ: «كنتُ أفـعلُ ذلك لولا أنَّ المُـعِزَّ صـغيـرُ السنِّ، وله أُمَّهـات وطبقات جَّمـة من النساء والحاشية، فكيف نرجو مـعهم الفلاح؟ والحال إذ ذاك تكون علىَّ أشـدَّ لاختلاف أهوائهم، وقـد صحَّ عندى أن الصبىَّ يحـقد علىَّ ما قاله الناس من سَقْىِ أبيه، وقد أَدَرْتُ هذه الوجوه، فلم يتَّجِهْ لى منها أَمْثلُ من الـترامِى على المُـعْتَصِمِ!» فـقال ابن أرقَم: «دخلتُ على الـمُظفَّر، وألقيتُ إليه من الكلام رُمـوزًا، وقلتُ له: «أَيَّدَكَ اللهُ! تَيَقَّظْ! فإنك لم تَطْعَن فى السنِّ، ولا بلغتَ فيـه مبلغًا يولد عليك الغـفلة عن دَوْلَتك» وجاءَ منِّى أن يستَفْهِمَنى عن الكلام وأَقُصَّ عليه بَعْضَه، فدعا اليهودىَّ وقال له: «انهضْ إلى ابن أَرْقم وقلْ له: لأىِّ وجـهٍ قال لى الآن: تَيَـقَّظْ!، واستَـفْهِمْـهُ عن ذلك!» فجاءَنى اليـهودىُّ وأخبرنى بالقـضيَّة، فدهشتُ لهـا ومِتُّ، ولم أجِدْ جوابًا، فاتَّهـمنى الخنْزِيرُ، وخاطـب بأمرى المعـتصم وأشـار عليه أن يُقـعِدنى عن الرسالة ويوجِّـه فيها من يثـقُه، فسفـر فيها رَضِيـعَه وأَمَرَه بنسج الأمـر معه، وكيف الـحيلةُ فى تصيـُّر الدولة إليـه، وغرناطة مـعدن الجيش، وفيـها من صِنهـاجـة من لا يجـوز هذا الأمـر عليـهـم؟ وقـال له: «لا تُدْخِلِ نفـسك

والمُعْتَصِمَ فيما لا يتمُّ وتَفتضِحُ فيه مع المظفَّر، وهو صاحب الأموال والقدرة على الفتنة! وتخزى معه، وتكون سببًا إلى هلاك نفسك والفساد عليه!» فرأى الخنزير من رأيه أن يُخْرِجَ من البلاد كلَّ من يتوقَّع قيامَه.

وتخيَّر من كبار صِنْهاجة وغيرِهم من العبيد، الذين يخشى معرَّتهم، أقوامًا، وأشار على السلطان بإرسالهم إلى المعاقِل الْمهِمَّة، وصكَّك لهم بها، وقال لهم فى سرِّ الأمْر: «أنتم إخوتى، وقد أَخْمِلتُم معى، ورأيتمونى! وأرى من دولة هذا السلطان ما ينبغى لكم إنكارُه بأن يقدِّم عليكم من ليس منكم ولا شأنه شأنكم، وتبقى ولايتُه عارًا عليكم وشنارًا ما بقى الدَّهرُ، وقد نصحت السلطان فى أمره، فلم يقبل منِّى، ولا يُقدر على مُضادتَّه، والآن أتوقَّعُ على هذه البلاد الشريفة والمَعاقِل الفارهة أن يليها من قِبَل النابة مَن يشقى به الجميعُ، ولا نقدر معهم على إمساك الدولة، وتكون لهم الصولة علينا، ثم لا مَهْرَبَ إلا إلى يديه، فإذا أمْسكْنا معاقِلَنا وكان بنو عمِّكم بالحضرة، يتجسَّر على تَبْديديكم، وكان أمره بعد ذلك هيِّنًا، متى أراد التغيير، قتلناهُ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدِنا وأمر بنَفْيِه على يديه، لَجَأَ إلى مَعْقِلِ صاحِبِه».

فقبل القومُ قَولَه، مع شَرَهِهِم إلى ولاية البلاد، وبادروا إلى ذلك، فأخرج يحيى بن يِفْران إلى مدينة المُنكَّب، ومُسكَّنَ بن حَبُوس المغْرَاَلىَّ إلى جيَّان، ومَن سِواهُم إلى غيرها من القواعد، وزيَّن للسلطان أن ذلك من وجه النَّظَر له، وأنَّه لا يحمى القواعد إلاَّ كِبار الرجال، وأن المعزولين قد صَحَّ عنده غفلَتُهم وتضييعُهُم، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله فى هذه المشَابه، لِثِقتِه به.

وكـتـب [اليـهودىُّ] إلى ابن صُمَادِح يُخبره بـخروج القَوْم الغَوْغاء من المدينة، وأنّه لم يَبْقَ فـيها إلا من لا يُوبَه له، ويحـصدهم سَيْفُـه إذا دَخلَها، وأنّه مُتَهيِّئٌ لفَـتْح أبوابها متى جسر وطرقها، وضـيَّع النَّظَرَ فى سائر الحصون غيـر القواعد، وأهْمَل مـا يَرْتَقِبُونَ به من الـرجال والعُدَد على وجـه الغفلة، حتى خلَتْ.

والمُظفَّر، فى هذا كلِّه، لا خَـبَر عنده إلا الإقبال على الشـرب والدَّعة، فلما خَلَت المَعاقِل، وصحَّ عند أهلها، بـإهمالهم واحتجابِ السلطان عنهم، أنَّه قـد مات لا مَـحـالةَ، وتصـايَحَت بعضُـهـا لبَـعْض، وَخلَّتْ بأقطارها، وافْتَـرَصَها رجـالُ ابن صُمادِح، وصـاروا فيهـا حتى لم يَبْقَ منهـا إلا حِصْن قَبْرَيْرة، على مقربة من غرناطة فى طريق وادى آش.

وأرسل اليهـودىُّ على المقـام لابن صُمَـادِح، يلحُّ عليه فى الإقـبال إلى المدينة، وأن لا مانِعَ يمنعه، فالتوى عن ذلك ابن صُمادِح، وجزع من الجسر على مثل غَرْناطة، إلى أن اتَّسع الخَرْقُ وتَمادَى النفاق، وصار اليهودىُّ مُتَنَقِّلاً من داره إلى القَصَبَة حِذْرًا من العـامَّة، حتى يتمَّ ما أمَّل، فأنكر ذلك الناسُ، مع بُنْيَـانه لحِصْنِ الحَـمْراء على أنه، إذا دخل ابن صُـمَادح البَلَد، صـار هو بأهْلِهِ إليها، إلى أن تتـوطَّد الحالُ، فأنفت العامَّة والخاصَّة لـمكر اليهود وما اشتهروا به من تغيير الأحوال، ورأوا من الرُّتَب خِلافَ ما عهدوه.

وللَّذى أراده الله من هلاكهم فى يوم السبت لعـشر خَلَوْن من صفَر [مـن سنة ٤٥٩] استعمل اليهودىُّ الشـراب تلك الليلة مع أقوامٍ من عَبيد المُظَفَّر، كانوا قد عـاقَدُوه واتَّفقوا معـه، وبعضُهم فى السرِّ يشنأُهُ، فـأعْلَمهم بأمْر ابن

صُمادِح، وأنه واردٌ عليهم ومسوِّغٌ لهم من القُرَى فُلانة وفُلانة من فَحْص غرناطة، فانتدب إليه أَحَدُهم ممَّن كان يكمن بُغْضَه، وقال له: «قد علِمنا هذا! فأَخْبِرْنا عن تسويغك هذه الإِنْزَالات، أَهُوَ مولانا حيٌّ أو ميِّتٌ؟» فردَّ عليه بعضُ حاشية اليهوديّ، ووبَّخه على قوله، فأنف ذلك العبدُ وخرج فارّاً على وجهه [وهو] سكران، يصيح بالناس ويقول: «يا معشر من سمع المُظفَّر قد غدره اليهوديُّ! وهذا ابنُ صُمادِح داخِلٌ فى البلدة!» فتسامع لذلك الناس أجمع خاصَّتُهم وعامتَّهم، وأتوا عازمين على قتل اليهوديّ، فتحيَّل على المُظَفَّر حتى أخرجه إليهم، وقال: «هذا سلطانكم حيٌّ!» ورام الرئيس تسكينَهم، فلم يقدر، واتسع الخَرْقُ على الراقِع، وهرب اليهوديُّ بنفسه إلى داخِل القصر، واتَّبَعَتْهُ العامَّة حتى ظفروا به وقتلوه، وأحالوا السيف على كلِّ يهوديٍّ بالبلدة، وحصلوا على عظائم من أموالهم.

واستأسدت إذ ذاك صِنْهاجة، وطَغَوْا بما صنعوه على الرئيس، مع الفِتْنة المُصْطَكَّة عليه من كلِّ قطر، وكانوا هُم الوزراءَ ومُدَبِّرى الدولة، والمُظَفَّرُ من هذا كلِّه تحت خوفٍ وذلٍّ، قد حقد عليهم ما صنعوه بوزيره، من غير أن يَعْلَم بشىء من دواخِلِه، ولا صدق قَوْلهم عليه، وسائرُ أمرِه معهم بالمداراة والصبر، إلى أن تفتَّحت له البلاد، ورجعت طاعته إليه بما نَحْنُ نذكُرُه بعد هذا إن شاءَ الله.

ولما مضى مُسكَّن إلى جيَّان، على ما قدَّمنا ذِكْرَه، أَلقَى فى طريقه عَمَّنا ماكْسَن، يحمله الصِّقِلِّيُّ، فاستَنْقَذَهُ، ومشى به إلى جَيَّان، وقال: «لا فائدةَ أكبر من هذا: ابن الرئيس يكون معى حُجَّةً على ما أُريدُه من مُلْكِ جيّان أو

غيرها؟ وسينقاد إليه الناسُ، ونحصل على عظائم!» كالذى كان، فولِىَ جيّان باسْمِهِ، وصار حاكِمَها مع بنى عمِّه، وحصَّل إذ ذاك من أموال اليهودى فيها على ما لا يتحصَّل، وبقى ثائرًا على أفضلِ حال.

٢٧- الحركة الموفقة التى قام بها باديس لانتزاع وادى آش من أيدى ابن صمادح:

وإنَّ المُظَفَّر، لما رأى ما نزل به من كَلَبِ العدوِّ وطَمَعِ الناس فيه، وما حلَّ به من كلِّ وَجْهٍ، جمع الناس وقال لهم: «ما تَرَوْن فى أمرِ وادى آش، وتصيُّرِها إلى ابن صُمادِحٍ، واستحواذِه على أنظارِنا؟» فأجابه قوَّاده وجملةُ رجاله أن: لا دواءَ لهذا، إلا أن تبذل الأموال، وتترك الدَّعة، وتُباشِر الأمر بنفسك!» فقال لهم: «مَثَلى ومَثَلُ ابن صُمادِح كمَثَلِ القُبَّعة التى كان بإزائها عشٌّ إوزّة، فأعجبها بيضُها، فقالت: «لأحضننَّ هذا البيض، يكون خيرًا من متاعى!» فلما رامت ذلك، عجزَتْ وقصُرَتْ جَنَاحاها عن التحضين، فلما رجعت إلى متاعها، وَجَدَتْها قد فسَدَتْ، وكذلك ابن صُمادِح: تعدَّى على بلدى، وسيخرج عنه وعن كثير مما كان قديمًا بيده» فقَوِيَتْ نفوسُ الناس، وادَّرع الحزمُ والعزمُ، وتأهَّبَ للمسير، واجتمعت إليه الأجناد [وفرَّق] فيهم العطايا، ونازَلَ وادى آش حتى حاصرَها.

وكان فى أوَّل الفتنة، للذى رأى من قيام رعيَّته وخشى خلاف الجميع، قد وجَّه لابن ذى النُّون، صاحبِ طُلَيْطُلَة، يعلمه بما دهمه من الأمر، ويسألُه صِلَةَ يده به، وأنّه ما انصرف إليه من البلاد أعطاهُ منها ما أَحَبَّ واختار، فسارَعَ ابن ذى النون إلى ذلك، ولحق به، وهو على وادى آش قد حاصرَها

وقَرُبَ مَرامُها، واجتمع معه إلى أجْمَلِ هيئة وأتمٍّ رتبة، وفى قَصَبة وادى آش ذلك الوقْتَ وزراء صاحبِ ألْمَرِيَّة وأكابِرُ رجاله، فاشتدَّ عليها الحربُ، وكَثُر الإنفاقُ، حتى إنه انتهت النفقة عليه، على ما رأيته مكتوبًا بخطٍّ يد جدِّى - رحمه الله - ستَّةَ بيوت من المال دَرَاهِمَ ثُلُثِيَّةً، البيتُ منها ألفُ ألفِ دينار ثُلُثِيَّةٍ.

وصار ذلك مَثَلاً فى الناس لصبره وكثرة إنفاقه.

فلما رأى مَنْ بالقَصَبة من أكابر أهل ألْمَرِيَّة ما دهمهم، وأنّه لا مَلْجأ لهم إلا الهرب أو السَّيْف، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، تحيَّلوا وأرسلوا إلى ابن ذى النون، وهُمْ على الهلكة، يعلمونه بما هم فيه وقَطْعِ رجائهم عن إمداد صاحبهم، ويسألونه أن يتوسَّط أمرهم مع المُظَفَّر، ويأخذ لهم العَفْوَ، ويخرجُون على سلامة، ووعدوه على ذلك، إن هو استنقذهم، أن يُصيِّروا ألْمَرِيَّة مُلْكه، وكان ابن ذى النون من الطمع فى غايةٍ لم يَنْتَه إليها مَلِكٌ، فطَمِع فى قولهم ذلك، وترامَى على جدِّنا، ورغب إليه، فأسْعَفَهُ، حتى خرجوا وأخْلَوْا له القَصَبة، وثَقَّفَها بحماة رجاله.

واستنجز ابن ذى النون وَعْدَه، وقال: «إنَّ الذى أُريد من هذه البلاد بَسْطَة[1]» فلم يكن بُدٌّ للمظفَّر من إنجاز وَعْده، وأمر بإخلائها له، وتفتحت للحاجب بلادٌ كثيرةٌ أَربت على التى انصرفت إليه.

وأرسل إليه ابن صُمادِح بعد ذلك، يسأله العَفْوَ والإغضاءَ على ما كان منه، وأنَّه لا يتعرَّض من ذلك شيءٌ لولا اليهودىُّ، وخوفًا، إن أهمل البلد،

---

(١) بسطة: مدينة بالأندلس بالقرب من وادى آش، عامرة آهلة حصينة ذات أسوار، وبها تجارات وفعلة بضروب الصناعات (الروض المعطار).

أن يتعدَّى عليه من يخشى داخلَته، وترامَى على جدِّنا وأتاه بنفسه ليجتمع معه على ذلك، ويجدِّد عقداً، ففعل وقبل اعتذاره، ويُحْكَى أنَّه، عند اجتماعه به، كان أوَّلُ ما خاطَبَه به: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩٧) فأجابه المُظَفَّر على البديه: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (يوسف: ٩٢).

٢٨- الحركة الموفقة التي قام بها باديس

لانتزاع مالقة من يد ابن عباد:

ولما صار إلى المظفَّر جميعُ بلاده، وتوطَّدت له الدولة، وكانِ قبل أَخْذِهِ لوادي آش قد أَخَذَ مـالَقة، وقدَّمها قَـبْلَ شغْله كلِّه، وكان قائدُ عـسكره إليها تلك السفرةَ يحـيى بن يِفْران، وكان الرجلُ من أكابر تَلْكَـاتَة وكان مُطاعًا في قومه، قـد شقي جدُّنا به طول مُدَّة الفتنـة، ولمّا استأسَدَ صِنْهـاجة، على ما قدَّمنا ذكره بعـد قتل اليهوديّ، تَرَأَّسَ فيهم يحـيى المذكور، ونال من الرئيس كثيراً من ماله وعرضه، فحـقد ذلك عليه، وكان عازمًا على أنه، إذا انصرف من فتح مالقة، أن ينظر في خلعه، ويثور عليـه مع بني عمِّه، وكان الخَبَر قد طرأ إلى جدِّنا، فـقضى الله تعـالى أن مات يحيى المـذكور في تلك السـفرة مقتـولاً في الوقيعة، فـقال عند ذلك المُظَفَّر: «أَتَتْنا في يوم واحد فـرحتان: أَوَّلُهما مـوتُ يحيى، والأُخرى فَتْحُ مالَقَـة!» ثمَّ نهض على المقام إلى وادي آش، ففعل عليها ما وَصَفْناهُ.

وكان ابن عَبَّاد قد دخل مدينة مالَقة المذكورة قبل هذا الفتح، وامتنعت له القَصَـبَة لِمَا كان فـيها من كفـاة المَغَارِبة، وقـائدُها ذلك الوقْت مَخْلُوفُ بن مَلُّول، شيخٌ كبيـرٌ من ثِقَاته، وانتظروا قوَّةَ الرئيس صبرًا منهم، وكـثرةَ بُقْيًا،

وأَنَفةً من كشفٍ لحرمة الذين كانوا بالقَصبَة المذكورة، إلى أن ورد العسكرُ، وخرج إلى مُلاقاتهم من فيها من عسكر ابن عَبَّاد، فمُنِحوا عليهم الظفر، ودخلوا عَنْوةً.

وكان حصول ابن عَبَّاد عليها لداخلةِ أهلها ومَيْلِهم إليه، اختياراً له علينا، على إحسان المُظَفَّر - رحمه الله - إليهم، وأنَّه وجدهم على أسوأ حالةٍ، فأصلح من أحوالهم كثيراً، وحمل فُقَهاءَها ومُقْرِئيَها على المَطايا، وأنزلهم على أفضل المَراتب، ما كان مشهوراً عنه فى الأقطار، إذ كانوا قَبْلُ فى حال قلَّةٍ وعلى غير رتبة، ثمَّ كافأوه بما فعلوا، وبعد ظفره بهم، عفا عن ذلك كلِّه، وزاد فى مَراتِبهم، ولقد اختُطِبَ لابن عَبَّاد مُدَّةَ كونه فيها، وحُكِيَ أنَّه قيل فى الخطبة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) فلم تعطِ السياسة مُعاقَبةَ أحَدٍ منهم، إذ كانوا فيه سواء، ولا يصحُّ إمساكُ بلدةٍ إلا بأهلها.

فقرَّ مُلْكُ جدِّنا قَرارَهُ، وجبر الأموال، وزادت الجِبَايات.

٢٩- الكشف عن أمر فنيانة[1] وفتنتها:

ولما انصرف من فِنْيَانَة، غزوتَه تلك الوادِى آشِيَّة، دعا بقائدَيْه [النـاية وعبد الله بن القَرَوِيِّ] وكانا على العسكر مُدَّة فِتْنة وادى آش، وامتحن على أموالهم أين أُنفِقَتْ: أكانت فى واجِبٍ أَمْ زِيفَتْ، لِمَا استعظم من النفقة، وجمع القائدَيْن والكَتَبة، وكشف على ذلك غاية الكشف، وكان النـاية من أهْلِ التجربة والفكرة فى العاقبة، قد عمل هذا الحساب، وأخرج منه نَفْسَه:

(١) قرية بقرب وادى آش من الأندلس جامعة خطيرة كثيرة الكروم، وكان بها طرز للديباج، والمياه تطرد فى جميع جنباتها (الروض المعطار).

فمَتى وردَتْ أموالٌ من غرناطة للعَطَاء، يتحـرَّى عنها، ولا يقبض منها شيئًا، ويقول للذى يأتى بهـا: «احْمِلْها إلى خِبـاء الشيخ عبد الله بن القَـرَوىّ، فهو أعْلَمُ بما يصنع، وهو أسَنُّ وأدْرَبُ!» فـاحتجَّ النايَةُ بهذا الفـعل عند المُظَفَّر، وأتى على ذلك بالبُـرْهان، وتبـرَّأ منهـا، وغـضب الحاجِبُ عـلى عبـد الله ساعتَئذٍ، وأمر بنَفْيه.

وكان أكـثرُ الجند يشنـأُ النايةَ على ما وَصَـفْناه، ويؤثر عبـد الله لتَرْبِيَـته معهم، فشق ذلك عليهم، وأدْرَكَهم من الأنَفة أن خرجوا كلُّهم حُرْمةً فى عبد الله، وأخْلَوْا عليـه المَحَلَّة، وزال عنهم أكـابرُ صِنْهاجـة أجمع، فلم يصـبح الحاجب بِفْنيَـانة منهم معه أحَـدٌ، ورَجَوْا أن يكون يرغب إليهم، ويفـزعونه بتلك الفعلة، فأتى إليـه النايةُ يرعد فَرَقًا، وأخبره بالقِصَّـة، فقال المُظَفَّر فى نفسه: «لا خَيْرَ لى فى ودّ[1] هؤلاء! فإنَّ ذلك مما يزيدهم طغيانًا، وتجرُّهُم العادةُ، متى أحبُّوا الخلاف، على أن يمتثلوا هذه الطريقة، ولا حاجة بى إلى إمساكـهم، وفى مُضِيِّهم الـغنيمـة والراحة!» فـسكت عنهم وتركـهم على أهوائهم، فصـاروا فِرَقًا وأشْتـاتًا، منهم من مضى إلى جيَّـان يريد مُسكًنا ابْنَ عمِّـهم، ومنهم من انقطع إلى شَرْق الأندَلس، ومنهم مـن رجع إلى غرناطة على خفاء يُرَى أنه لم يكن فى الجملة.

وأقْلَعَ المُظَـفَّر عـن فِنْـيانة وأتـى غرنـاطـة، لـم ينقـصـه من ذلك شىءٌ، ولا عـدم جُنْدًا، واستـوزر النايةَ، وبقى على الدَّعـة والتـمكين دَهْرًا طويلاً.

---

(١) فى المطبوع: «فى ردّ».

٣٠- استيلاء باديس على مدينة جيان:

ولمّا تمكّن ماكْسَن من جيّان، وثار معه مُسكّنٌ مع بنى عمِّه، أَقْلَقَ ذلك جدًّنا، وخاف النايةُ على نفسه منهم، وجزع من أن يَتَّفِقَ مَنْ هنالك من بنى عمِّهم وسائر البَرْبَر الذين بغرناطة، ويقتلوه، ويسعوا فى ولاية ماكْسَن، ولم يَرَ المُظَفَّر ـ رحمه الله ـ لمُفاتَنَته وَجْهًا، وإنَّ مُسايَرته ومُداراته أَوْلَى، وإنَّ فى فتْنَته من العار وسوء القالة أن يُقالَ: «رجع المُظَفَّرُ يُكابِدُ فتْنَةَ ابنه، وإن أعياهُ أَمْرٌ عجزا!» فتَرَكَه على حاله، ورأى أنَّ السعْىَ عليه بالمُداخَلة أَوْلَى، والناية، فى ذلك كلِّه، يجدُّ ويَجْتَهِدُ، خوفًا على نفسه، ويَبْذُل الأموال للمَغَاربة، ويرسل منهم إلى قَصَبَة جيَّان مُتَخَيِّسين مَنْ يُداخِلُهم.

وكان مُسكّنٌ قد أخملَ عَمَّنا ماكْسَن، واستبدَّ بالرأى، وجمع الأموال دونَه، وصار له ماكْسَ بمنزلة البازى الذى يُصَيَّد به، وماكْسَن لا يقدر على أكثر من الصبر، إذ لا فِئَة غيرهم، وقنع بتلك الحال لاستنقاذه له من الموت، ورأى إقرارَ روحِه فى جسده غنيمةً، فَضْلاً عن طَلَب ما سِوى ذلك، فلم يَزَلْ أبدًا يُداخل عليه بالأموال، حتى استمال جميع مَغَارِبة القَصَبة، وكان، مُدَّةَ كونه بجيّان، يُخاطِبه أقوامُ من صنْهاجة فى مَحَبَّته، ويقولون بذلك فى المحافل والمجالس سرًا وجهرًا، ويرَوْن ولايته خيرًا من تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشْبَهَهم، قد سئموا من ذلك، وأشربوا المُظفر من الشنآن والبغضاء ما لو استطاعوا لَخَلَعُوه، لكنَّ السعادة والمُدّة لم يقطع عليها قاطِعٌ! والرئيس من هذا كلِّه تحت أَمْرٍ عظيم، والناية متوقِّعٌ للقتل مساءً

وصباحًا، وتكثُر عليه الأراجيف مع الساعات، إلى أن نجعت تلك المُداخلة: فقام المَغَارِبةُ بالقَصَبَة على ماكْسَن، وخرج منها فارًا بنفسه، هو وجميع من معه، وهرب مُسكَّن، لا يلوى على شيء، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم، ووقع فيهم البهتُ، إذ لم يدروا من حيث أتوا لمّا سمعوا النداءَ بالليل: «لا طاعةَ إلا للمُظَفَّر!» وعجَّل الحاجبُ بثقاف جَيَّان واستراح من تلك الفِئَة.

ولقد حُكِىَ عن المُظَفَّر ـ رحمه الله ـ أنُه لما تهَيَّأتْ له هذه السعادة، رأى النايةَ مهمومًا، فسأله فى ذلك، فقال: «اهتمَمْتُ لخلاص هذه الشرْذِمة بأرواحهم، ولسنا نأمن شرَّهم فى البلاد! «ومِنْ ثَوْرٍ حَىٍّ لا يُلْبَس هَرَاكِيس!» واسْمُ وَلَدِك كبيرٌ!» فأجابه المُظَفَّرُ أن قال: «الذى حلَّ بهم أشدٌّ من القتل، لخلائهم عن أوطانهم وكَشْفهم فى انتقالهم بأهاليهم إلى من يتولَّى خِدْمَتَهم ويُرْكِبُهم ويُنْزِلُهم، والموتُ دونَ هذا راحةٌ!».

فقصد ماكْسَن إلى طُلَيْطُلة، وصار بها عند ابن ذى النُّون مُكْرَمًا، على حال الجُنْديّة، وتقلَّب مُسكَّنٌ فى البلاد، يخدم الجُنْدية، وصاروا أبادِيدَ.

٣١- استيلاء النايةعلى بياسة[1].

وزاد جاهُ النايةِ بغرناطة، وأَخْمَلَ صِنْهاجةَ، وأظهر لهم البغض لنفاقهم كان بزَعْمَه على اليهودىّ وعلى الحاجب فى ابنه، واستخصَّ بنى بِرْزال وأَحْسَنَ إليهم، وقرَّبهم من نفسه، وهُمْ كانوا أَولياءَهُ وأَنْصاره، وبثَّ فيهم العطايا، وأخلد السلطانُ إلى الراحات.

(١) بياسة: بالأندلس، بينها وبين جيان عشرون ميلا، وكل واحدة منهما تظهر من الأخرى، وبياسة على كدية من تراب مطلة على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة، وهى مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر وحولها زراعات، ومستغلات الزعفران بها كبيرة (الروض المعطار).

ثمَّ إنه، لما فُوِّضَ له الأمْر، رأى أن يجعل لنفسه ذِكرًا وثناءً يؤثَر عنه، فى غزو البلاد ومُداخلة بعضها، فانتدب إلى مدينة بَيَّاسة، وقال للمُظفَّر: «إنَّ مُداخلةَ بعض أهْلِها عندى!» وكانت إذ ذاك لولَد مُجَاهِد فقال له الحاجِب: «لا تتعرَّض إليها، ونَحْن فى دَعَةٍ! وكأنِّى والله أرَى تُنفق عليها الأموال، وتُهْلك الرجال، ولا نُحصِّل على فائدة!» فألحَّ عليه وزيَّن له الأمر، حتى أجابه إلى ما سأل، وأمَرَهُ بالمَسِير، وهَيَّأ معه الجيش، وأعطاه الأموال، فَرَامَ من بيَّاسة أمرًا عظيمًا: كلُّ ذلك يتعذَّر من أمْرِها ما لا يُرجَى به أخْذُها، حتى سئم السلطان النفقة ومنع منه المال.

وكان فى المَجْلِس ممَّن يُطالبه بذلك رجلٌ كاتِبٌ للمُظَفَّر يُعرف بابن أَضْحَى، ويقول للحاجب: «لم تقِمْ بيَّاسة وعشرةٌ أمثالُها ببعض هذه النفقات التى كُنْتَ عنها فى غِنًى!» وكلُّ ذلك يتَّصِل بالناية، فيُخْرِج المغايرَ، ويغنم الأغنامَ، ويوجِّهُ بها إلى مولاه ليَجْبُرَ منها بعض نفقاته، فكان ابن أَضْحَى يبيعها ببخْسٍ من الثمن، ويُحضر المال بين يديه، ويقول له: «أين هذا مِمَّا أنْفقت؟» فيخرج أخلاق المُظَفَّر عليه، فيصبر عليها الناية، واستسلف طعامًا كثيرًا من شيوخ جيَّان، وكان بانيًا على أنَّه، إن لم يقدر فيها على شىءٍ، أن يكون ذلك طريقَهُ فارًا، لا ينصرف إلى غرناطة، إلى أن استفتحها بكثرة المؤاظبة والمُلازمة، وكانت عليه الصولةُ على مُطالِبِيه بذلك، ودخل المدينة فى عِزّةٍ ورفعةٍ وإكرامٍ من السلطان جسيمٍ، مُهَدِّدًا لمَنْ طالَبَهُ، ومُسْتَطيلاً بذلك مُعْلِنًا.

وقدم إلى المُظَفَّر يقول له: «لا أدخُل البَلَد حتَّى تأمُر بنَفْى ابن أَضْحَى أو

أنْصَرِف من مكانى هذا!» فرأى الحاجِبُ أنَّ نَفْيَ ابن أَضْحَى أوْلى من فساد عسكره، فأمر بنَفْيه، بعد تَغريمه وإهانَتِه، وخرج من ذلك الوقت ساعيًا على الدولة ومُطالبًا لها إلى زمان ولايتنا، حتى أظفرنا الله به، على ما يأتى ذِكْرُه بعد هذا.

٣٢- مؤامرة ضد النابة ومقتله:

وإنَّ وزراءَ الدولة وكثرةَ عبيدها، لمَّا بصروا بما فعل النابة، والزيادة فى أمْره وجاهِه وأنَّه هو الحاكِمُ دون السلطان، حتى قالوا: إنَّه طامِعٌ بالرياسة ولا قيام مع بنى بِرْزَال، وشنع ذلك عليه، أدركَتْهُم منه أَنَفَةٌ عظيمةٌ وحسدٌ شنيعٌ، فاتفق رأيهم أجمع، أعنى ولاةَ البلاد: منهم وَلَدُ القَاضِى، صاحِبُ بَاغُه وابنُ يَعيش، صاحِبُ قَبْرة[1]، ووَاصِلٌ، صاحبُ وادى آش، والقاضى ابنُ الحَسَن النُّبَاهِىّ بمالَقة أنَّه متى قدِم إحدى هذه الجهات، قُتِلَ فيها، وأرْسِلَ فى ماكْسَن - وقُدِّم - أراد والِدُه أم لم يُرِدْ.

ثمَّ إنَّ النفر المذكور عملوا رأيهم، وفكَّرُوا فى العاقبة، ورأوا أن يقتله واصِلٌ العِلجُ بوادى آش [فيكون ذلك] أستر لقتله وأبعد للظنِّ بهم: فإن عاقَبَ، عاقَبَ غُلامَه وتَبَرَّأوا من ذلك، فوُعِد واصِلٌ المذكور على ذلك بالوزارة مكانَهُ، وضمنوا له توْطيدَهم للأمر عند السلطان، حتى تهيَّأ ذلك فى دماغ العِلْج، واستعدَّ لقتله، إلى أن حدث بوادى آش أمْرٌ لم يكن بُدٌّ للسلطان أن يرسل وزيره فيه، من تحصيل أموال والكشف على أحوال، فنهض فى أنحس وقتٍ وأشَرِّ قدَر، وكان واصِلٌ هذا المذكور من أكبر صنائع النابة،

---

(١) قبرة: مدينة بالاندلس، بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا، ذات مياه سائحة من عيون شتى، وبها سوق جامعة (الروض المعطار).

وممَّن اطَّباه بإحسانه، وشرَّفه عند السلطان، ورفعه من الحضيض، ففشَا الأمْرُ عند الناس قبل ذلك أنَّ واصلاً عازمٌ على قتل النابة.

وحكى لى إنسانٌ من البَرْبَر، قال: «نصحتُه بذلك وحذَّرتهُ أن لا ينهض إليه، وأنَّ مثله لا ينزل فى داره، فكان من جوابه: «تريدون أن تنزعوا الرِّيَبَ من أنفسكم وتردُّوها على أصدق الناس إلىَّ!» فلمَّا توجَّه إلى وادى آش، ونزل فى منزل واصِل، أشهر له إكرامًا وتَبَجُّلاً لم يكن عليه قَبْل، حتى اطمأنَّ، وانصرف عنه أعوانُه، ولمّا دخل الليل فى جنَّه، أتاه واصِلٌ برمحه، وهو سكران، فضربه ضربةً أنفذه بها، حتى أثَّرَت الضربة فى الحائط، وقطع رأسه وطَوَّفه صبيحة الليلة [بأَزِقَّة مدينة[1] وادى آش ومُنادٍ ينادى] «هذا جزاءُ من طلب ما لا يعنيه!».

فورد الخبرُ فجأة بغرناطة، وبُهِتَ له الناس، ولم يَدْرِ أحدٌ من حيث أُتِيَ، فمنهم من يقول: «السلطان دسَّ إليه، إذ لا يمكن لذلك العِلج أن يتعدَّى!» وبلغ ذلك من السلطان مبلغًا عظيمًا، وَعلِمَ أن هذا من اتِّفاق عليه، ودخل منه فى بحر طامس، حتى أسهر ليله وامتنع من لذَّته، وأشهر للناس تجلُّدًا، وهدَّده الجند، وأرسل إلى واصِل بالأمان، يأمُرُه بالقدوم عليه، ويشكره فيما فعل، سياسةً منه وتوطيداً إلى أن يستبرئ كيفيَّة الحال، وينظر لها على مهل، فزاد بذلك العِلجُ حماقةً، وقال مُعلِنًا: «لم أُدْخِل يدى فى هذه القضيَّة وحدى، حتى يساعدنى عليها من لا يُنال بهم عن أحدٍ!» وأتَى مُشترطًا للوزارة، وكلَّمَ وَلَدُ القاضى المظفَّر فى أمره وقال له: «إنَّ هذا العبد، وإن جنى عليك فى قتل وزيرك، فإنَّما فعل حبًا منه فيك ورغبة فى قُرْبك،

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «مدية».

وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيتُك!» وجعل [أهل] الدولة يعتنون به ويسألون العفو له، فأحسَّ السلطانُ ذلك فى نفسه، وأيقنَ أنَّ هذه النَّصْبة لم تكن إلاَّ عن اتِّفاقٍ عليه، وحسب نفسه مخلوعًا لا محالة، فإنَّه، ساعةَ ما قُتِلَ النايةُ، أُرْسِلَ عن ماكْسَن إلى طُلَيْطُلة، ووُجِّه إليه بخاتم الناية كَى يتحقَّق قتلَه، وقيل له: «ليس بغرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصُدُّك!» إلاَّ أنه لم يتجاسر حتى يَرَى إلى ما تئُول الأحوالُ، فكظم الحاجب هذا فى نفسه، واحترق له قلبه، ودارَى جميعَهم، وصوَّب فعلَ واصِلٍ، وقال: «هذه نارٌ موقدةٌ ليس ينقذنى منها إلا إطفاؤُها والنظر لها على سَعةٍ!» وأمَرَ بتقديم واصِلٍ على الخَيْل.

٣٣- استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة:

واتَّفق رأىُ الجميع، مع بعض أهل قصْره من النساء، أن يُدخَلَ عليه ابنُهُ، ويُخلَع من أجْله على كلِّ حال، فلما رأى المُظَفَّر اتِّفاقهم عليه، وأحسَّ بهذه المصايب، ولم يَرَ لنفسه مع من يستريح، أرسل فى أبى الربيع النصرانىِّ، وكان فيما مضى كاتبَ حَشَمٍ، قد عرف خدمة اليهودىِّ وتصرَّف معه، فأرسل عنه سرًا، وأتَتْ كُتُبُه قبل ذلك، فراجَعَ عنها بخطِّ يده، فكان ذلك زيادةً فى الشرِّ وخبال الدولة، فلمَّا أحسَّ بهذا ولَدُ القاضى صاحبُ باغُه، شافَهَ المظفَّرَ فى الأمر وقال له: «إن كنتَ تعزم على أبى الربيع، فنحنُ لا نبقى معك، ولا يلتوى أحدٌ حوالَيْك!» فأجابه: «ألاَ أبقى الله منكم أحَدًا!» وضيَّع الحزم فى هذا، لا سيَّما أنه قد علِم أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئًا، فَعَملَت فى نفس صاحب باغُه وأهل الدولة، وتغيَّرت الأنفس، وكثر الإرجاف، واتَّفق مع صاحب قَبْرَة، وكان صديقه قديمًا، إلى أن ورد أبو الربيع.

فاستراح إليه المظفَّر على المـقام، وأعلمه بما حلَّ به، وأتاه المذكورُ من دَانية، إذ كان بها من وقت قتل اليهودى، فقال له أبو الربيع: «قد أيقنتُ أنهم أرسلوا عن ابنك، ولا مـخـتلف عليـه، ولا قـدرة بك على مُكابرة العـامَّـة والخـاصَّة! فـالرأى فى ذلك والحـيلة أن تتلافـى الأمر، وتوجِّـه فى ابنك، وتكتُبَ إليـه بخطٍّ يدك بالعفـو عنه وإيثـارك له على كلِّ والٍ لم يَصلُح لك، وأنك مقـدِّمُهُ لولايتك وموَرِثُهُ مُلكَك، فـإنك، إن فعلتَ، هَدَّنْتَ قلوبَ هذا العالم وتَقَمَّنْتَ مسرَّتهم، فإذا وصل ولدُك بين يديك، كنتَ فى أمره بالخيار، وتخدَّمتَ قصتَّه على سعـة: فَمكابَدَتُه، وهو معك، خيرٌ من مُكابَدَة شرِّه مع بُعد! ولستَ تأمَن مكرهُ حيث ما توَجَّهَ!».

فرضى المُظَفَّـرُ ذلك من قوله، وأرسل على المقام عنه فـقيهًا كـبيرًا من فُقَـهائه يؤمِّنه ويوطِّده، ويبـشِّره بمَذْهَب أبيـه واستخـلافه له، وأنه ليس فى الدولة من بنيه من يُـرْجى لهذا الأمر سواه، وكـتب إلى ابن ذى النون يرغب فى تسريحه إليـه، فسُرَّ بذلك جمـيع الناس، وانصرفت نفوسُهم عـمَّا كانت عليه، وطفَّف العالَم فى مـحبَّة ماكْسَن، ورجَوْا الخـيرَ معه، إلى أن وردَ فى أنحَسِ طالع وأنكَدِ جِدٍّ.

فأَنِـسَهُ أبوه، وبذل له الأمـوال، وجعل يوصِّـيه بوَصـايا لم تنفـعه، أراد بذلك ضُرَّه وانصراف نـفوس الناس عنه، فأوَّلُ ما أمره به بالـشدَّة والفظاعة، ويغِّض إليه صِنْهـاجةَ، وقال له: «أنت تعلم مـا شقيتُ أنا بهم بعد حَـبُوس! فَصُلْ عليـهم ليهـابوك، وليس فى الدَّولة غيـرك إلاَّ بنى أخيك: فـهم أطفال صغـار!» وكان ماكْسَن من السـفه وعَجْز الراى وقلَّـة الفطنة بحيث لم يَخفَ

على أحد، فزاد على ذلك أضعافًا مضاعفةً، ووافق سوءُ طبعه مَقالةَ أبيه، فتحكَّم الشرُّ فيه، ولم يقدِّم شيئًا على شتم الناس والاستهزاء بهم، ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبَّه وسعى فيه، فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوسُ العالم فيه إلى البغضة، وتبيَّن لهم من قلَّة عقله، وأجمعَ الكلُّ على ألا خَير فيه يُرْتَجى.

وكانت بنت عمِّه أُمُّ العُلُوِّ طامعةً بزواجه، وكانت مُطاعةً فى قومها، قد استمالت أكثر نساء الجُند، فأوَّلُ ما ابتدأ بتهجينها وَشَتْمِها، وأنَّها فيما يزعم لا تصلح له، فزاد ذلك فى نحسه والسعْى بكلِّ وجْهٍ عليه، وكانت كريمةُ المُظَفَّر الساعية فى خبره يعد سعيها فى قتل أُمِّه، قد أغارت من أن يكون ماكْسَن يزوج بنت عمِّه، حذرًا منها أن تجعل منها حاشيَةً وتمنع حرمَته، واتَّقى من ذلك واصِلٌ وامرأتُه، فقالا لها: «أىُّ فائدة لك فى زواج أُمِّ الْعُلُوِّ؟ لكنَّ الأوْلى بِكِ أن تعطيه صَبَيَّةً من تربيتك، تكونين من أجلها حاكمةً على داره!» ففعلَتْ ذلك وأخرجَتْها إليه بأموال، وصوَّرت عند السلطان أنها تُوفِّيت، لئلاَّ يطلبها فى قصره، باسْمِ أُخرى ماتَتْ عندها.

وشقَّ على بنت عمِّه ذلك كلُّه، ورجَعت تسعى عليه مع نساء البربر وتدخل بين امرأة واصل المذكور، وبين كريمة الحاجب، وتقول لها: «إذا أرَدتِ الانفراد بماكْسَن، فما حمل امرأة العِلْج على السكنى معه؟» فُمنِعت الدخول إلى داره، فأنفت لذلك، وكان مع ذلك زوجُها واَصِلٌ يؤثر عليها صبيَّةً كانت لها، ويؤذيها من أجْلها، فاجتمع على المرأة الغيرةُ والأنفةُ لِمَا طُرِدت عن دار ماكسَن، فلم تلبث أن مضت إلى أبى الربيع النصرانى: وقالت

له: «أنا أَمَةُ المُظَفَّر فَلْيَنْظُر من نفسه! فإنَّ الاتِّفاق عليه على وجه كذا وكذا!» وبيَّنتْ جميع ما راموا من غدره، فأتى أبو الربيع إلى الحاجب مسروراً، وقال له: «انظُرْ كيف تبتدى سعادتُك فى تشتيت هؤلاء القوم! أخْبرتنى امرأةُ واصِل بكذا وكذا! ألمْ أقُلْ لَك[1]...؟».

(١) فى هامش المطبوع: «إلى هنا انتهى ما هو موجود فى نسخة «مذكرات عبد الله» الوحيدة من تاريخ دولة باديس بن حبوس جد المؤلف».

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

obeikandl.com

١- مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة
عند ابتداء إمارة عبد الله

٣٤- رفض مطالب ألفونش السادس واشتراكه مع ابن عمار:

[... وأَمَّـا] أَلْفُونْشُ، لمّـا تيقَّن هذه الفِتَن، عَلِمَ أنَّ ذلك من أكْـبَر سعـادته وأعْظَم فُرَصِه فى طَلَب الأمـوال، فأرْسَلَ إلينا رسـولَه: أوَّلَ مُداخَلَةٍ نشأَتْ بَيْنَنا وبَيْنَهُ، فأَتى باطِرُ شُولِش يطلُب مِنَّا ضَرِيبَـتَهُ، فأَبَيْنا عليه، واجتمع رأيُنا على أن لا نفـعل، وأنَّ ضَرَرَ أَلْفُـونْشُ لا يُخشى وغَـيْرُنا أمَـامَنا، نعنى بذلك ابن ذى النُّون، ولم نَقِسْ أنَّ أحَـدًا يُعاقِـدُهُ على مُسْلِمٍ، فانـصرف عنَّا دون عَمَلٍ.

وإنَّ ابنَ عَمَّار انتهز هذه الفُرْصة، وكان مُنْتَظِرًا له بِبَاغُه، مُرْتَقِبًا لِمَا يصنع معنا، فلمّا رأى أنه لم يتمَّ له عَمَلٌ، أَلْقَى يَدَه فيه على المقام، وقال له: «إن كنتم مُنِعْتُـمْ عشرين ألف دينار (وهى التى سـأل عن ضرِيبتِـه) فنَحْنُ نعطيكم خمسين ألفًا، على أن نُعاقِدَكم على غَـرْناطة: تعطونا القاعِدة، ولكم ما فيها من الأموال!» فـعاقَـدُوه على ذلك، واتَّفق رأيُهم على أن يبنوا على غـرناطة مَعْقِلاً يضيِّق عليها حتى تلقى يدها، وكان ابـن أَضْـحَى، المـذكورُ قـبل هذا ـ هو المُـخْرَجُ على يدى النابة ـ قـد انحـاش إليهم، يدُلُّ بهم على عَـوْرات البلدة، ويُريهم أشدَّ مـا يكون عليهـا من المَوَاضِع إن بُنِيَ، ويجعل فـيه ندبًا للضرب والتضييق، فأراهم حِصْنَ بَلِيلُّش.

وأكْرَى ابنُ عـمّار من عسكر أَلْفُـونْش ما قوى به على البُنيـان بأعداد من

obeikandi.com

الأموال جسيمة، يسوِّفهم فيها تارات، ويَعِدُهم ويُخادِعهم، حتى تمَّ البُنيان، وجعل المُعتَمِد يُحاوِل ذلك بنفسه، ويبرُز أبدًا على مقربة من غرناطة مدَّة كَوْنه، طمعًا في أن يقومَ معه أهْلُ البلدة، فلمّا تمَّ بُنيانُه، قوَّاهُ بالندب، واتَّخذ فيه جميع الأقوات، وأمَرَهم بالتضييق، وكانت الحالُ شديدةً، ونُسِيَ به أمْرُ القَلْعة.

وعند انصراف المُعْتَمِد عنه وعساكِر الرُّوم، عَبَّيْنا عسكرًا كثيرًا، ونَهَضْنا إليه، فلم نقدر فيه على شيء، وانقطع رجاءُ الناس من دولتنا، لاجتماع المُطالِبين عليها مع الرومي، ونَدِمْنا على التفريط أوَّلاً في مُعاقَدته حَسَب ما سأل، وكان من أحسن شيءٍ على السلاطين أخْذُ مَعْقِلٍ بالسيف، فإنَّه، متى اعترض، لم يستطِعْ على دخوله لمنعته وما عُدَّ فيه، ولا على إحصاره، حتى ينفد ما فيه لقوَّةٍ تأتِيه، فيُقْلِع عنه إلاَّ من كان أقْوَى، ولم نكُنْ نَحْنُ إلا مُتكافِئين في ذلك: متى ما أعْطَى أحَدُنا لعسكرٍ مالاً، وأراد الآخرُ نَقْضَه، أرْبَى عليه وأراحَهُ منه.

فكانت بَلِيلُّش قد أفسدت، وضيَّقت على فَحْص غرناطة، ولم يكْفِ ما حلَّ من أجَلِها حتى جعَلَنا الفُونْشُ أن نُغْرِمَ ما فَاتَهُ منّا، تباعةً وتذنيبًا لرَفْضِنا إيَّاهُ، واستدفاعًا لِمَا يُتَّقَى من تَمادِيه على الطَّلَب، وابنُ ذي النون في هذا يتوسَّط له بالأمر، ويسعى في تصيير المال إليه، يرضيه بذلك وينتظِرُ فسادَ مَمْلَكتنا، فيَفْتَرِصُها هو أو يأخُذَ منها حِصتَّه، فكان ـ على ما قدَّمْنا ذكْره ـ عدوًا في الباطِن، صديقًا في الظاهر، وهو مع ذلك لا يزال يُدَاخِلُ قُرْطُبة، ويَسْعَى جَهْدَه فيها، إلى أن قدَّر الله، وافتَرَصها غُدْرًا بمُداخَلة من بعض

أهلها ممَّن لا خَطَرَ له، واستُشْهِدَ فيها ابنُه عَبَّاد [بن المُعْتَمِد] وقائدُه ابنُ مَرْتِين.

فلمَّا انقضت بقُرْطُبة هذه الدائرة، وسمع بالخَبَر أهلُ بَلِيلُّش، أخْلَوْها على المقام، ودَخَلَها رِجالُنا، وصارت فى مِلْكنا مُشيَّدةً مَبْنِيَّةً، فَنظَرْنا منها بالذى نصنع بقَصَبَة غرناطة، وتروَّح مُخَنَّقُها من حيث لم يُحْتَسَبْ.

٣٥- المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب ألمرية:

وكان قائدَ مدينة بَسْطَة ابنُ مَلْحَان، رَجُلٌ معجبٌ، قد شَرِهَتْ نفسُه إلى رُتَب الملوك، وكان المُظَفَّر - رحمه الله - قد فوَّض إليه أمرَ البلدة عِوَضًا من أبيه، فلما صارت لنا الدولة، وكثر فيها آراءُ الوُزَراء، جعل كلٌّ واحد منهم يطلبه بمال، ويسألُه مُتاحَفات: فمن لم يعطِهِ، طالَبَهُ وأذَاهُ، مع صغر سنِّنا، فلم يَجِدْ سبيلاً إلى الدفاع عن نفسه، ولا شكوى لمن يذبُّ عنه ويحميه، فترامَى على ابن صُمَادِح وقبله، وصارت البلدةُ إليه، عَلِمَ أنَّه لا يُفاتَن طولَ مدَّة الفِتْنة مع ابن عَبَّاد، ثم إنَّه غدر حِصْنَ شِيلَش، ونحن، فى ذلك كلِّه، لا نفتر عن مُخازاته بالإضرار ببلده، وصار إلينا مع حِصْن شَنْت أقْلَج من مَعاقِله ما وَقَعَت المُعاوَضةُ به من شِيلَش، وصالَحْناهُ مُهادَنةً وانجرارًا للحال، حتى نَرَى ما نصنع مع ابن عَبَّاد.

٣٦- مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه:

وبقى ابنُ عمَّار مُرْتَهِنًا بما جعل على نفسه للنَّصْرانىِّ من كراءِ بَلِيلُّش فى تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقْطِعُها له، ويَعِدُهُ بها، وأدْخَلَ سلطانَه من

openkutub.com

ذلك فى تشغيب، لأنَّه كان لا يُريد أن يجعله يَخْلُد إلى راحةٍ لِكَىْ يحتاج إليه فى تلك الفِتْنة لا يقرُّ عن إِدخال ضَرَرٍ على المسلمين، ومتى ما كان الْمعتَمِدُ يسعى فى تهدين الأمر، ونرومُ معه الصُّلْحَ، أو تنشأُ مُهادَنَةٌ، لا يَنامُ فى نَقْضِها وإشعالِ نار الفتنة.

فعاد ثانيةً إلى النصرانىِّ الْفُونْشُ، وزيَّن له أمْرَ غرناطة، وصَوَّرَنا عنده فى صورةِ مَنْ لا يقدر على شىء من أجْلِ الضعف وسنِّ الصبا، وأنَّه ضامِنٌ له أموال غرناطة لتَصِير إليه بأسْرها، على أن يُعاقِدَهُ، إذ تمكن من البلدة، أن يجعلها مُلْكَهُ، وله ما لَقِىَ أموالنا، والْقِىَ يَدَه فى الْفُونْشُ، عازمًا عليه فى الإقبال إليها، وأعطى على ذلك أموالاً جسيمة، ووعده بخمسين ألف مِثْقال إذا تمَّت القضيَّة، سيعطيها زائدةً على ما يَجِدُ، لمُساعَدَته على السير.

فأَدْرَكَ الرُّومىَّ من ذلك طمعٌ كبيرٌ، وقال: «هذه نَصْبَةٌ لَسْتُ أخلُو فيها من فائدةٍ، وإن لم تُحَصَّل البلدة! وأىُّ فائدَةَ لى فى إعطاءِ بلدة من واحدٍ لآخَرَ إلا تَفْوِيتُه على نفسى؟ وكُلَّما أكثر الثوَّارُ، ووقع بينهم التنافُسُ كان لى أفْيَدَا!» فأتَى على نِيَّةِ أخذِ مالِ الفريقَيْن، يكسِّرُ رءُوسَ بَعْضِهم ببعض، ولا كان أيضًا فى أمَله أن يأخذ البلاد لنفسه، فإنَّه عمل فى ذلك حسابًا أن قال: «إنا من غير المِلَّة، وكلُّ الناس يشْنَأُنى، فَبِأَى وَجْهٍ أطمع فى أخْذِها؟ إن كان من باب الطاعة، فأمْرٌ لا يمكن، وإن كان من وَجْه القتال، فيهلك فيها رجالى وتذهب أموالى، وتكون الخسارة على أكثر ممَّا نرجوه إن صارَتْ إلىَّ، ولو صارَتْ، لم تَتَمَسَّكْ إلاَّ بأهلها، ثُمَّ لا يؤمنون! ولا من المُمْكِن أن نَسْتَبِيحَ أهْلَها ونُعَمِّرَها بأهْل مِلَّتى! ولكنَّ الرأىَ، كلَّ الرأى، تَهْدِيدُ بَعْضِهِم

ببَعْضٍ، وأخْذُ أمـوالهم أبَدًا، حتى ترقَّ وتـضعف، ثمَّ هى تلقَى بِيـدها إذا ضعُـفت، وتأتى عفْـواً، كالذى جَـرَى بُطلَيْطُلَة[١] إنَّمـا كان من فَـقْرِ أهلِهـا وتَشتُّتِهم، مع اندبار سلطانها، وصارَتْ إلىَّ بلا مَشقَّة!».

وكُنَّا نحن نعلم هذا من مَذْهَبه، على ما كـان يُخبِر به وزرَاؤُه، ولقد قال ذلك شِشْـلانْدُ فى حال هـذه السفرة، وشـافَهنا بـذلك، وقال: «إنَّمـا كانت الأنْدَلُسُ للرُّوم فى أوَّل الأمـر، حـتى غلبـهم العرَب، وألْحَـقُوهم بأنحَسِ البِقاع: جِلِّيقِيَّة[٢]، فهُمُ الآن عند التَمكُّن، طامعين بأخْذِ ظلاماتهم! فلا يصحُّ ذلك إلا بضعف الحال والمطاولَة، حـتى إذا لم يَبْقَ مالٌ ولا رجالٌ، أخَذْناها بلا تكلُّف!».

فكان الجميعُ يُسـايرُ الأُمورَ، ويُدافِعِ الأيَّامَ، ويقول: «مِنْ هُنا إلى أن تتمَّ الأموالُ وتهلكَ الرعايا بزَعْمِهم، يأتى الله بالفَرَج وينصر المسلمين!».

فورد علينا من إقـبال ألْفُونْشُ مع ابن عـمَّار هَوْلٌ عظيمٌ، وصحَّ عندنا أنه لم يَأتِ إلاَّ طالبًا لمُلْـكنا: قد استَوْثـق من ألْفُونْشُ على ما قـدَّمْنا ذِكْرَه، ثمَّ أرسل إلينا ينذرُ بإقـباله، ويأمُرُنا بـالخروج إليه، يُرَى أنَّه يذهـب إلى تجديد العَـهْد والاجـتـماعِ بنا، على مـا يفـعله مع السـلاطين، فلم نشكَّ أنَّ ذلك للتقبُّض علينا وإنجـاز ما عاقَدَ عليهم، فاجتـمع علينا أهلُ الرأى والمشورة، وقالوا: «ما الذى تذهب إليه؟ هذا عَـدُوٌّ قد جاءَ لطَلَبك، ولا قدرة بك على

---

١) طليطلة: بالأندلس وهى مركز لجميع الأندلس، وكانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق، وهى حصينة لها أسوار حسنة وقصبة حصينة (الروض المعطار).

(٢) جليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالى الأندلس فى أقصاه من جهة الغرب، وهى بلد لا يطيب سكناها لغير أهلها (ياقوت).

مناواته! وسَواءٌ عليك خَرَجْتَ أم بَقيتَ! فإنْ أنت بَقيتَ، حلّتْ بك الداهيةُ العُظْمَى، ووقعت المُفاسَدة، وأصاب مُطالِبُك سبيلاً إلى العَمَل، وتكون هذه أشَدّ من الأولى، وقت رَفضْنا بَطْرُه شُولِش وألقى ابنُ عمَّار يَدَه فيه حتى بَنَى علينا بَلِيلُّش، والآن لم يتروَّح مُخَنَّقُنا حتى نعود إلى ما هو أدْهَى وأمَرُّ، فلو رأت الرعايا بعض خِلاف من هذا الجيش، لم تُبْق ولا تَذَرْ لشعفة ما قد دَهَوْا به قَبْل، وكان الرجاءُ ينقطع، ويتلف الكلُّ حتى تُؤخَذَ هُنا باليدِ على غَيرِ صُلْحٍ، فلا يرقب فينا إلا ولا ذمّةً! فالخروجُ إليه أيْسَرُ لأمْرَيْن: فإن كانت سلامة، شكرتَ رأيكَ، وثبت مُلْكُك، وإن كانت الأُخْرى، كان خروجُك عن أمَان، وصِرْتَ حَيّزًا في العافية! فاعْزَم على لقائِه، وقُلْ له قولاً ليِّنًا، ولله أن يُنَفِّذَ قضاءَه.

فاستَعْدَدْنا لذلك جَهدَنا وأجْمَعْنا حَوَالَيْنا مَنْ نَثِقُ به من رجالنا، وأخَذْنا أُهْبَة الحال، ولقيناه على مقربة من المدينة، وبالَغْنا بالضرورة في إكرامه، فأعرض علينا وَجْهًا بَسِيطًا وخُلُقًا حَسَنًا، ووَعَدَنا أنَّه يُحامِي عنَّا كما يُحامِي عن بَلَدِه.

ثمَّ وقعت المُعاملة، ومَشَت الرُّسُل منَّا إليه ومِنْه إلينا، يُبيِّنُ ما عُوقِدَ عليه وأنَّه سِيقَ سُوقًا، ويقول: «إنِّي قد تَشبَّثتُ في الأمر، ولم نُعَجِّل حتى نسمع ما عندكم، فإن جامَلْتُمونى ورأيتُم لقَصْدى وَجهًا، وانصرفتُ عنكم على خير، وإلاَّ، فها أنا مع من عاقَدَني!» وطلب خمسين ألف مِثْقال، فشكَوْنا إليه قلَّة البلاد، وأنَّ ذلك لا يقدرُ عليه، وفيه من القطع لنا ما يَفْتَرِصُنا به ابن عبَّاد، فإنه لو أخَذَ غرناطة، قوى عُنْصُرُه «ولم يَنْطَعْ إليك، فَخُذْ ما نقدر إليه،

وَاتْرُكْ رَمَقًا لا نَسْتَأصِلَ من أجله! وَما تركتَ، تَجِده عندنا متى ما طلبت!»
فقبل العُذْرَ بعد جُهْدٍ عظيمٍ، وقاطَعْناه لقصْده بخمسة وعشرين ألفًا، نِصفَ العدَد، ثمَّ أعددْنا له من الفرش والثياب والآنية كثيراً، استدفاعًا لشرِّه، وَجَمَعْنا ذلك كله فى خِبَاء كبير، ودعَوْناه إليه، ولمَّا رأى الثياب استَحْقَرَها، ووقع الاتِّفاقُ معه على زيادة خمسة آلاف مِثْقال لِتَتمَّ بها ثلاثون ألفًا، فأكملناها له لئَلاَّ ينفسد الأكثرُ عن الأقلِّ، فشكر على ذلك كُلِّه، وطابت عليه نفسُه ورجع إلى ابن عَمَّار يقول له: «كَذَبتَ لى فى قولك: إن غرناطة فى ضَعْفٍ، وإنّ صاحِبها من صغر سنِّه لا يعقل! ورأيتُ من رتبتها وأحوالها ما خالَفَ قولَكَ!».

فرجع ابن عمَّار يسأله أن يعقد بَيْننا عَقْداً يُوقَف عنده، وَاستمالَه على أخذ إِسْطَبَّة من عندنا، وكانت مَعْقِلاً عظيمًا ممّا يَلِى جِهات إشبيلية[1]، قد كان أخَذَه قائدُنا كَبَّابٌ فى الفِتْنة، وَسَألناه نَحْنُ خبَرَ القَلْعة، فوقع الاتِّفاق على أن تكون قَلْعَةُ أسطَلير عِوَضًا من إسْطَبَّة[2].

وكانت قَاشْتَرُهْ ومَارتُش المَعْقِلَيْن اللذَيْن على جَيَّان، ومن أجْلهما انقطع صاحِبُهما عَمُّنا [ماكسَن] ولم يكن لجيَّان مَعْنًى إلاَّ بهما، فترامى ابنُ عمّار فى أمرهما على الفُونْش، ووَعَدَهُ على مَارتُش بأموال كأنّه يشتريها منه، فَعزَمَ علينا فيها للطمع فى المال، ووَعدَنا نَحْنُ على قاشْتَرُهْ بالمَطْمَر، وكان أيضًا

---

(١) إشبيلية: مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام، وهى مدينة قديمة أزلية (الروض المعطار).

(٢) مدينة بالأندلس على خمسة وعشرين ميلا من قَلْشانة، ومن قلشانة، وهى قاعدة شذونة، إلى قرطبة أربعة أيام (صفة جزيرة الأندلس).

حِصنًا قد اشترك نَظَرهُ مع نَظَرِنا بِيَدِ ابن ذى النُّون، فضمَّن خَبَرَه أنَّه يعطيه لنا عِوَضًا منها، فدافَعْنا الأمر جُهْدَنا: فلم نقدر على أكثر فَعْلِ القوىِّ مع الضعيف.

ثمَّ إنَّه عَقِدَ العَقدُ بَيْن يَدَيْه على ذلك، وأن لا يتعدَّى مِنَّا أحَدٌ على صاحِبِه، وذكر فيه ما نعطى كلَّ عام من الضريبة: فجعل علينا عشرة آلاف مِثْقال فى العام، وطيَّب لنا الكلام بأن قال: «طمع ابن عمَّار أن نغدر بك، ومَعاذ الله من ذلك أن يشيع فى الدنيا أنَّ مِثْلى كبيرًا فى الرُّوم يقصدك، وأنت كبير فى جنسك، ثم نغدر بك! فابْقَ على أمان! لا أُكَلِّفُكَ إلا الضريبة، تُوَجِّه إلىَّ بها فى كلِّ عام دون مَطَلٍ، وإن تأخَّرتْ بها، أتاك رسولى عنها وتلزمك عليه نفقات، فبادِرْ بها!» فَقبِلْنا قوله، ورأينا إعطاء عشرة آلاف فى العام ندفع بها مَضرته خَيْرًا من هلاك المسلمين وفساد البلاد، إذ لم تكن بنا قدرة على مُلاقاته ومُكابَرته، ولا وَجَدْنا من سلاطين الأنْدَلُس عَوْنًا عليه إلا من يسوقُه إلينا لهلاكنا، فبَقِيَت الأُمور على مُصالَحة ومُهادنة ورفاهية، لا يُسمع فيها بفِتنْةٍ.

٣٧- استيلاء ألفونش السادس على طليطلة:

وممَّا هيَّأهُ الله أن فَقَدْنا وسائط السَّوءِ بعد ذلك بفَقْد ابن عمار، وَشغْلِه فى مُرْسِيَة[١]، وبزوال سِماجَة عنَّا وأشياعِه، وتوفِّى قبل ذلك ابنُ ذى النون عند بلوغه آماله بقُرطبَة، وكانت الأنْدَلس قد ارتَجَّتْ له، وخافه الرؤساءُ،

(١) مرسية: بالأندلس، وهى قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت دار العمال وقرار القواد (الروض المعطار).

فلم يلبث بها يسيراً حتى مات: وكذلك الأشياءُ إذا تمَّتْ، وكان أهْلُ العِلْم يخبرون بذلك أنّه إذا حصل على قُرْطُبَة، فقد تمتْ أيامُه وإذا تمَّ شيءٌ، دنا نَقْصُه.

ثمَّ خُلِع من بعده حفيدهُ، وقام عليه أهْلُ بلده، ولجأ إلى الْفُونْشُ، فصرفه إليها على قَهْرٍ وغلبةٍ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمةً، أشَدُّها ما جعل على نفسه فى شراء حِصْن من الْفُونْش على مقربة من طُلَيْطُلَة بمائة وخمسين ألف مِثْقال طيِّبة وخمسمائة مُدي من طعامٍ ضيافةً لكلِّ ليلةٍ مدَّة مقامه عليه: أخَذَها من أهل بلده حتى ضعفوا، ولازمَها الْفُونْش حتى صارت إليه، وَعوَّض صاحِبَها ببَلَنْسِيَة(١)، وَلم يَعْتَرِضْ له مالاً ولا أهْلاً غير الذَّهَب والفِضَّة.

وكان حفيدُ ابن ذى النون، فى أقَلِّ ولايته، لم يقدِّم شيئًا على الغدر بوزير جَدِّه [ابن] الحَديدى لسعاية البُغاة أعدائه، وسوَّلت له نفْسُه أنّ قَتْلَه لا يصحُّ إلا على يدى قوم قد سجنهم جَدُّه على بصيرةٍ، فأطلقهم وسلَّطهم عليه، ولمَّا تمكَّنوا منه، كان كَلَبُهم عليه أشدَّ، وصاروا طالبين للثأر وكانوا أقْوَى الأسباب فى فساد مُلْكه، وهُمْ بنو اللَّوَارَنكيِّ، وبنو مُغِيث، ومن انحاش إليهم، وكان قديراً على قتله دونهم، لكنَّ العَجْزَ وضُعْف الرأى عَمَّيا عليه وجه الصواب.

---

(١) بلنسية: فى شرق الأندلس، بينها وبين قرطبة على طريق بجّانة ستة عشر يومًا، وعلى الجادة ثلاثة عشر يومًا، وهى مدينة سهلية، وقاعدة من قواعد الأندلس، عامرة القطر، كثيرة التجارات، وبها أسواق وحَطٌّ وإقلاع، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وهى على نهر جار ينتفع به، والسفن تدخل نهرها، وسورها مبنى بالحجر والطوابى (صفة جزيرة الأندلس).

٣٨- استيلاء ابن هود على دانية[١] بعض أخبار بني هود:

وحصل أيضًا ابن هود على مـدينة دَانِيَة بغفلة صاحِبهـا عن الرجال وحبِّه فى الأموال، مع مُداخَلات أُوتى بهـا من قِبَل وزيرِه ابنِ الرِّيُولُه، الخارج عنه إلى سَرَقُسْطَة[٢]، فعمل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة، ودخل المدينة بلا مشـقَّة، وحـصل منها على عظائم مـن الأموال بوفرها، وكـان عنده ولَدُ مُجاهِدِ صاحِبِ دَانِيَة مكرَّمًا حتى مات.

وَإِنَّ ابنَ هود، لمَّا حـصل على دانِيَة، انفسد طبـعُه، وأدركَتْه الرَّغـبة فى البلاد، وزال عـما كان عليـه من جهاد الرُّوم، وطَمِع فى بَلَنْسِـيَة عند ذلك، وأعطى عليها أموالاً جسيـمة لألْفُونْش، وألْفُونْشُ فى هذا كلِّه، على ما قدَّمنا ذكره، يأخذ الأموال، ولا يحقِّق لأحـد أن يُهاوِدَه على أخْذِ بلدة، فتوفِّى ابن هود فى إثر أخْذِه لدَانِيَة وبلوغِهِ آمالِهِ منهـا، وقد كان ابن الخَيَّاط المُنَجِّم ذكر ذلك كلَّه، ولقد قرأتُهُ فى بعض كتُبه قَبْلَ أن ينقضى، حتى رأيتُه عيانًا.

وكانت قـضيَّتُـه في دَانِيَة كقـضيَّـة ابن ذى النون بقُرْطُبَـة: فإنَّ ابن هُود اهتزَّت له الأنْدَلُس عند حصوله على دانِيَة، وجـزع جميعُ الرؤَساء لأخذِه لها

(١) دانيـــة: مدينة بشرق الأندلس على البحـر عامرة حسنة لها مربض عامر وعليـها سور حصين، وسورها من ناحيـة المشرق فى داخل البحر قد بنى بهندسـة وحكمة، ولها قصبة مـنيعة جداً، والسفن واردة عليها صادرة عنها، ومنها كان يـخرج الأسطول إلى الغزو، وبها ينشأ أكثره لأنها دار إنشائه (الروض المعطار).

(٢) سـرقسطة: فى شرق الأندلس وهى المدينة البـيضاء، وهى قاعدة من قواعـد الأندلس، كبيرة القطر آهلة ممتدة الأطناب واسـعة الشوارع، حسنة الديار والمساكن متـصلة الجنات والبساتين، ولها سور حجارة حصين، وهى على ضفة نهر كبير (الروض المعطار).

obeikandi.com

دون قتال ولا زمان، وأَعَدَّ كلُّ أحَدٍ عُدَدَهُ مُتَأَهِّبًا لشرِّه، إلى أن أراح الله منه، وقبضه على فِتْنةٍ واقتبال أمَلٍ.

ثمَّ قام من بعده ابنُه المؤتَمِنُ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات، وشعر المؤتَمِنُ لابن الرِّيولُه وزيرِ أبيه بأعمال فاسِدة مع ألْفُونْش، ليتخدَّم له خدمة ابن عمَّار فيرأس لذلك عنده على أهل زمانه خِذْلانًا وطغيانًا، فأمر بقتله.

وتوفى المؤتَمِنُ، وورثه المُسْتَعِينُ حَفِيدهُ هذا الوالى الآن.

وكان المؤتَمِنُ رجلاً عالِمًا، قد طالَع الكُتُب، مع ما كان عنده من الآثار، فرأى مَوْتَه قريبًا، فكان لا يسرُّ بالمملكة، ويزهد فى كثير من الدنيا، ولقد أخبرنى بعضُ من حضر مَجْلِسَه من أعلام جُنْده أنَّه كان يُريهم ذخائره التى لم يجتمعْ مثلها عند مَلِكٍ، فيُهنئونه عليها، فيقول لهم: «ما أصْنَعُ بها، والمُدَّةُ يسيرةٌ، ولا أدْخُلُ منها قبرى إلا بكفنٍ!» فكان يكدر قولُه ذلك عليهم، حتى مات.

وكان مُنْذِرٌ أخوه بدانِيَة، إلاَّ أنَّ أباهُ الشيخَ لم يُمكِّنْهُ من مالٍ، حذرًا منه أن يخالف على أخيه لحدَّته وشدَّة بأسه، فلما توفِّى المُقْتَدِرُ، اضطربت الفِتْنَة بينهما، وكان مُنْذِرٌ منهما يتَضَعْضَعُ له وَيتكافى به، لِمَا كان من إحسانِه للأجناد ومواساتِه لهم، إلى أن توفِّى بعد أخيه، وقام ابنٌ له صغيرٌ بعده، يُدَبِّرُ مُلْكَهُ وزيرُهُ.

٣٩- ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع

وصار ابن عمَّار فى حَيِّز الخِلاف على المُعتَمِد، وجَعَلَهُ يطْلُب مُرْسِيَةَ، واعتراهُ عليها مشقَّات ونَفقات أموال، وجَرَى من أسْرِ ابن المُعْتَمِد عليها ما قد شهر، وطال مكثُه على مُرْسِيَة، يُحزِّب عليها الأحزاب وينفق الأموال، يُرى سلطانَه أنَّ السَّعْىَ له، وهو فى الباطن يجدُّ لنفسه، لكَىْ يتَّخِذَها مَعْقِلاً يَرأسُ فيه، كالذى صَنَعَ، ولقد كان يقول أهْلُ العِلم بالآثار والتأثير: «إنَّ مُلْكَ بنى عبَّاد يتناهى حتى يبلغوا إلى تُدْمير[1]»، ومن ثَمَّ يتمُّ هلاكُهم، وكان الناسُ إذ ذاك يتوقَّعُون عليه الفساد عند محاولَة ابن عمَّار لأمْرها، فلم يكن إلاّ بَعْدَه بحينٍ، عند بلوغ الكتاب أجَلَهُ.

وصار ابن عمَّار بمُرْسِيَة بأقبح طريقة من الاستخفاف بالناس، واستعمال المعاصى، والإدمان على الخَمْر، حتَّى أبْغضه أهْلُها، وكان للمُعْتَمِد طاعةٌ فى معصية، واشتهر بأخْذِ عِرْضِه وهَجْوِه بما قد نَزَّهَهُ الله عنه، فِعْلَ الأوغاد والأرذال.

وقدم إلى مُرْسِيَة ابنُ رَشِيق، فكان يطويها وينشرها، وشَبَّكَ عليه المعاقِل بقرابته، واتَّخذ لنفسه صنائع مُدَّة غفلة ابن عمَّار عنه وإقباله على راحته، إلى أن خرج عن مرسِيةَ، يُريد لنفسه فى رسالة النصرانىِّ ليخدم أمْرَ الأقطار[2]

(١) تدمير: من كور الأندلس، سميت باسم ملكها تدمير (الروض المعطار).

(٢) فى المطبوع: «الأنظار».

التى تُجاوِره فى الشرق، وعسى يَضَعُها فى يدَيْه، مِثْل شَنْتمريــَّة(١)، ويسْعَى فى إِصلاح مـا أفسد عليه ابنُ رَشِـيق، فإنه لم يَجِدْ إليـه سبيلاً لكَلَبِـه عليه، ولما نـهض إلى ألْفُونْش، فـأوَّلُ ما سعَى فى تَصْـيِيـر طُلَيْطُلَة إليه بمُـدَاخَلة أَهلها، ليكونوا حاكمين أنفُـسَهم، ويُؤَدُّوا الجِزْية للنصرانى دونَ رئيس، وأتى طُلَيْطُلَة، وابــنُ ذى النُّون فـيهـا باسْـمِ الرسالَـة، ووافقَ على ذلك، ومَـحَلَّة ألْفُونْش عليـها، فى حين صَرْفِ حـاجِبِها إليـها بعد خَلْع أَهلهـا له، لِيَفِيَ له بوَعْده، ثُمَّ يعكس عليـه القصَّة، فيُقْـتل فشعر لذلك، وغلب حـفيدُ ابن ذى النون الفئَة القائمة عليه، ففَرَّ منهم مَنْ خلص إلى ألْفُونْش، وفرَّ ابنُ عمّار.

ولمّا لم تتمَّ له خـدمة ألْفُونْش فى ذلك، نهض إلى صاحب سَـرَقُسْطة، وتخدَّم له خَبَر شَقُورَة(٢) (وبها ظُفِرَ به، ووُجِّهَ به إلى المُعْتَمِد) فلما ثبت أنَّه استقـرَّ عند ابن هود، غَدَرَهُ فيـها ـ أعنى مُرْسِيـةَ ـ ابنُ رَشِيق، مع استمـالته لأهل البلدة، واستحـسنوا ولايتَه، ولم تكن لابن عمَّار بعـد ذلك رجعةٌ إلى مُرْسِـيَة، وصـار خادِمًا عـند ابن هُود صاحِب سَـرَقُسْطة، ولمّا احـتلَّ بذلك القطر، أضْرَمَه نارًا، وأهاج فيها فِتْنَةً، وصار سفيرًا للإِفْرَنْج، وآثَرَهُ ابنُ هُود، وقرَّبَه، رجـاءً منه أن ينال على يدَيه ما نال المُـعْتَمِـد، للّذى قام له عنده من الطارُوس بسعادةِ صاحِبِه، لا بأعماله.

وكانت العداوة الواقـعة بَيْنه وبَيْن المُعْتَمد على يدى الرَّشـيدِ ابنِه، فإنَّه، بفسـوقه، كـان يتكبَّر على أولاده، ويضيِّـق عليهم، ويُسىء الصنيـعةَ مع من

(١) شنتمرية: مدينة فى الأندلس من مدن اكشونية، وشنتمرية على معظم البحر الأعظم، ولها سور، وبها المراكب واردة وصادرة، وبها دار صناعة الأساطيل (الروض المعطار).

(٢) شقورة: مدينة من أعمال جيان بالأندلس (الروض المعطار).

يجب عليه إكرامُه من قرابة سلطانه، والمُعْتَمِد، في هذا كله، يصبر له، ولأنَّه كان قد استمال النصارى، واندخل معهم بحيلة: فمتى ما دهم أمرٌ من قِبَلهم، وجَّهه إليهم، فيَنْجَلي من أمرهم ما يضيقُ الصدرُ به، وكلُّ ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيَّامه، وهو بجهله يعتقد أنَّ ذلك لا يتهيأُ إلاّ بسببه، ويَرُدُّ الحسَّ كلَّه إلى نفسه، وكانت هذه المعانى ممَّا أحنق عليه المُعْتمِد، حتّى عقَّب عليه بما كان جديراً به، وأَمْكَنَهُ الله منه، وجازاهُ بما لم يكن له منه بُدٌّ، ولا رآه لغيره أهْلاً، وكانت شَقُورَة قد أخلها المُعْتَمِدُ، وبَنى صاحِبُها ـ عَبْدٌ من عَبيدِ سِرَاج الدولة ـ أن يَضَعَها فى يديه، فلما صار ابن عمار إلى سَرَقُسْطة، نهض إلى العبد المذكور، عَساهُ يرجع إلى طاعة ابن هُود، فثقَّفَهُ وأرسل به إلى المُعْتَمِد، وعند ذلك قَتَلَهُ شرَّ قِتْلة.

وإنَّ ابنَ رَشيق بعد ذلك سوَّلَتْ له نفسهُ الخِلافَ على المُعْتَمِد، واحتَجّ بأن قال: «لم يُقَدِّمْني إلى مُرْسِيَة!» وزعم أنْ أهل البلد اختاروه، وأنَّ مُقَدِّمَهُ إنَّما كان ابن عمّار متى ذهب عنها، وسنَذْكُرُ من أَمْرِه بَعْدَ هذا، عند ذِكر أحوال المُرابِطين ـ أعزّهم الله ـ وقَصْدِهم إلى لِيِّط، ما انقضى من خَبَره عليها مما هو مشهورٌ.

٤٠- عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية:

لَيسَ كلُّ الناس عَلِمَ سرَّ الأمر كالذى نَصِفُهُ نَحْنُ، والدليلُ على ما قدَّمناه ذِكْرَه من ارتباط المُعْتَمِد إلى الخَيْر وإيثاره للصُّلْح بزوال هذا الفاسق ابن عمَّار عن دولته، لم يُرَ بعده فِتْنة فيما بَيننا وبَينه، وحقّق معنا فى كلِّ أمرٍ، كالذى فَعَلْنا نَحْنُ معه، وجَدَّدْنا العَقْد على ما ارتضيناهُ من مُعاوَضات، سِوَى ما كان

قديمًا بيده، مـما خرج عنَّا فى أيام المُظَفَّر، وأخَذَت الفتْنةُ عليـه حقَّها، ولم يوجَد فى طلَبِ ذلك خيرٌ، ولا إلى غير المُصالحة سبيلٌ.

فقرَّت الأحوالُ قرارَها، وتَهنَّى كلُّ واحِـدٍ منَّا بمُلْكه إلاَّ ما كان من سَيْفٍ برَّانِيٍّ يعترض بلادنا من الرُّوم، فكان الرُّزْءُ فيه واحـدًا والمشاركة سواءً، وإن كُنَّا لا نقدر على ذلك بـالإمداد بَعْضنا لبَـعْض لضعْفِ الحال، فكنَّا نتـشارَكُ بالمُداخَلة وإعمال الرأى والتحذير من أمْرٍ عسى أن يكون خفى عن الآخر وما أشبه ذلك.

٤١- المؤلف يتحدث عن منهجه فى كتابة مذكراته:

وإذا أتَيْنا على ذِكـر جُمَلٍ من أحوالِ الأنْدلس الحـادِثةِ فيـها، المشـهور خبَرُها حسبما استفاض، وتَرَكْنا وَصْفَ الاختلافات، إذ يوجد الحقُّ فى طرفٍ واحدٍ، ولم يكن منها ما طولِعَ بالمشاهدة ولا بالمعاينة أكثرَ من إشاعةِ خَبَرٍ، ذَكَرْنا منه ما ينقاس فى العقل، وحَذَفْنا منه الإكثـار والمشتبهات، وإنَّه، متى أتينا على ذِكْر خبرٍ حادثٍ فى دَوْلَتنا ممّا حاوَلْناه أو شاهدناهُ أطْنَبْنا فى وَصفِه، وقَتَـلْناهُ عِلْمًا إلى آخـرِه، وأخبـرْنا بسرِّه عن جَـهْرِه، وبأرَقِّ الأسـباب فـيه، والإطنابُ فـيما يحـاوِلُ الإنسان أبلغُ وأنْـعَتُ من وصْف المشـاهدة لغيـر ما يخُـصُّـه، كمـا أن وَصف المـشـاهدة، وإن كـان لا نعنيـه، أبلغُ من ذِكـر المستفاض الـذى لم يُوقَف على حقيقته، فإنَّما يُذْكَـر منه ما يقبله العقلُ، ثمَّ يَجتَـرى واضِعهُ على أن يـضع فيه من عـقله دون الأغْلَب عليه عند العـامة، فيصير مُكَذَّبًا.

ولهذا مـا اختَصَرْنا من الـكائنات المشهورة بـالأنْدَلس كثيرًا من الأخـبار

عنها، واقْتَصَرْنا على الإطناب فيما يخصُّنا منها، ممّا حاولْناهُ أو رأيناه عيَانًا، والحقيقةُ من الخَبَر عَوْنٌ كبيرٌ على ما يرومُ الإنسانُ من صِفَةٍ فى مَنْظومٍ أو مَنْثُورٍ، كالمادِحِ أو الذامِّ، فإنه، إذا وجد إلى المقال سبيلاً، أطْنَبَ وأبْلَغَ، وإن كانت بعض زيادة، فإنها لا تمكن إلاَّ فى الأغلب والأكثر، ويكون فى ذكر الأمْرَيْن مصدقًا لمَعْرِفة الناس به، ولأن كتابنا لم يكن مَبْنِيًا إلاَّ على وَصْفِ مَمْلكتنا خاصَّةً «والحديث ذو شُجون» فلا بُدَّ من ذِكر جُمَلٍ من غيرها عند الحاجة إلى وَصْفه أو ضَرْبِ مَثَلٍ به، تزيينًا للكلام وإقامةً للبُرْهان ودورانًا على الحقيقة.

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

obeikandl.com

٢- مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢- عزل الوزير سماجة ثم إجلاؤه واستقلال عبد الله فى الأمر:

وإنّه، لما تهدَّنَتْ لنا الأحوال وقرَّ مُلْكُنا قَرارَه بمُصالَحة المُعتَمد، ومُعَاقَدةِ الرُّوميّ على المُهادَنة، وتَوْطينِ النفس على ما نُعطيه فى العام، انصرف نَظَرُنا إلى إصْلاح أمْر بلادنا، والفتشِ على رَعِيَّتنا، والكَشفِ على العُمَّال إن كانوا عادِلين أو ظالِمين، ولمّا شعر بذلك خَدَمَتُنَا ومَنْ كان له مَذْهَبٌ فى نصيحتنا، انتدب جميعُهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على ما خفى عنّا زمانَ تلك الفِتْنة، فكُنّا لا نقبل من أحَدهم على الآخر إلا بعد رويَّةٍ وهجومٍ على الحقيقة، حذراً أن يكون مقال أحَدِهم حسداً للآخر أو طَلَبًا لا يُتَّقَى الله فيه.

وكان سِمَاجَة، وزيرُ دَولَتنا المتقدِّم ذِكْره، قد شعر بذلك وأحسَّه منَّا، فاغتمَّ للأمر وعمل فى نفسه، وشكاه إلى إخوانه، وكان فيما قال لهم: «إنَّما كُنَّا نطمع بالتحكُّم على هذا الرئيس والتمكُّن من دَولته مدَّةَ أيَّامِ صبوته، يعنى صغرَ سنِّه، وأمَّا الآن، فلَسْنا نَجِد سبيلاً إلى ردِّه عن دَولته، لا بِفِئَةٍ تحمينا، ولا بصغرِ سنٍّ نَجِد به السبيل إلى صرفِه عند العامَّة وتسفيه رأيه، لا سيَّما إذ كان رأيُه النظرَ من دَولته والبَحْثَ عنها» فقيل له: «لَسْتَ تَجِد سبيلاً إلى أكثر من المُدارة له، والإتيانِ لمرغوبه، وقلَّةِ الخِلاف عليه لئلا يتمكن عدوُّك منك، ويشتفى حاسِدك عليك، فهو، إذا وجد منك الذى يرغب، لم يلبث أن يُمِلَّ النَّظَرَ والخِدمةَ ويُفَوِّض الأمْرَ إليك! ثمَّ أنتَ بالخيار عند غَفْلته وإقباله

على راحته! وعليك بإشْغالِه بالنســاء، وعَجِّلْ له ابتياع الرقيق! ولَسْنا نأمن أن يكون يشنأُك من تَحْجِيرِك هذه الشهـوات عليه، فإنه نَظُنٌّ به ما يُظَنٌّ بمن كان فى سنِّه!».

ففعل ذلك، وكانت هذه الفتـرةُ التى دبَّرها من سعادتنا وتمكيننا من آمالنا فى الذى ذَهَبْنا إليه من الاستبداد بمُلكنا، فإنه شَبَّكَ علينا المَعاقِل بينى عمِّه، وأشَـدُّها علينا مـدينةُ المُنكَّـب، فجـعل يطلق لـنا العِنَان فى كلِّ مـا نُريده، واشترى الرقـيق، وجَعَلَنا نَخرج إلى النزاهة فى البـلاد، يُرِى بذلك الإنصاف والتأتِّىَ، إذ كان الرجل متَثَـبِّتًا، خائفًا من سوء العاقبـة، مع أنّه كان خائفًا من قبْل ذلك من أجلِ كُتُبٍ استعْـمَلها على ألْسِنَتِنا أقوامٌ من أعدائه إلى طائفةٍ من صِنْهَاجَـة يأمرون فيــه بقتله، ونَحْن براءٌ منها، فظفـر بالكُتُب، وأنزل بنا التهمة، وأمر بقَتْل أُولئك المُسَـمِّين فى الكُتُب، وغَيْرِهم ممَّن اتهم من كرائمِ باديس ـ رحمه الله.

وكانت تلك المعانِى مقدِّمات تُغازِلُه لعزْلَته، فلمّا كانت وجهتنا إلى وادى آش عن اختياره، وقـد كنتُ علمتُ مُعتَقده فى ذلك كلِّه بالقـياس والمَيْز مع بعض الأخبار، قلتُ فى نفسى: «هذا رجلٌ قد اعتاد الأَمْرَ والنَّهْىَ، ورأى من يَقْظَتنا للدولة ما لم يكن يُريده، وليس فعْله هذا بهواه، وكلُّ شىءٍ يضطرُّ فيه الإنسان، فإلَيْه لا يؤمن خلافه، والرجعة عنه، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه! فنكون أبدًا نكابد منه ما لا يوافِق! وإن فاتَتْنى هذه المرَّة، أكُنْ كَمَنْ نُبِّه على أمرٍ وحذِّر من نفسه، ثمَّ أوبق نفسه إلى المضرَّات، وإن أغْضَيْنا هذه المرَّة وعاد إلى مـا كان، ثمَّ نَرَى منه خلافًا، لم نقـدر عليه بشىءٍ، إذ يكون

نَظَره لنَفْسـه أجْوَدَ من هذا النظر، فإنَّ هذا الأمْر منَّا جـاءَه فجأةً لم يحتـسبْه ولا ظَنَّ به، والفُرَصُ تُمرُّ مرَّ السحاب! فـما دُمْنا نَحْن عليه، لا نتربَّص حتى يكون هو بالخيار علينا!».

فأراد إشاعة عَـزْلَتِه بالحضرة عند إِمكان السَّفَـر، فلم نَرَ لذلك وَجْهًا إلاّ ونَحْن خارجون عنها، لـيكون أشنَع فى الناس وأقطَع ليأس الرعايا، مع أنِّى، إذا حركتُ هذا بالحضـرة، دخلَتْه الصِّناعة وكتم عن الناس، وشـغَبت امرأتُه من الدار.

فلما وَصَلْنا وادى آش، جعلتُ من يدوس إلى الرعيَّة أن ترفع بمَظالِمها، وكان عامِلَها ابنُ أبى جـوش، صَنيعةَ سِمَاجة المـذكور، فأمرتُ عند شكواها بثقـافه، فأنكر الناس ذلك، وهان عليـهم أمره، وجمـعتُ الرعايا والوزراءَ، وحَدَّدتُ لهم حَـدًا يَقِفـون عنده ألا يجعلوا بَيْنى وبَيْنهم واسِـطةً، وأمَرْته هو بالتزام ما يخصُّه لنفـسه، وأن لا وزير لدَوْلتى إلاَّ نفسى، وحَددت لكلِّ خادم ما تكون طريقتُـه أن لا يتعدَّى سِواها، فسرَّ بذلك جـميع الوزراء، إذ تساوَتْ أقـدامهم، وانكشف حِـجابى لهم، لـكى تكون حوائجـهُم إلىَّ دونَ مَنْ هو مِثْلُهم أو دونَهم، واغتـبط الرعايا بعزلة الظَلَمة عنهـم، وعزلتُ كلَّ من يُتَّهم بخيانة، وقـدَّمتُ عُمَّالاً إلى الجهات، أُريد تجديد الدولة، وعـزلتُ بنى عمِّه من الحـصون، ولقـد كان فـريقٌ منهم، لمّـا سمـعـوا بذلك، يفِرُّون منهـا ويتْرُكونها حتّى يوَجِّهَ إلىَّ جُنْدُها عن قائدٍ، ولم نَلْقَ فى ذلك كُلِّه مَشَقَّةً، ولم يَبْقَ إلاّ ابن عَمٍّ له، صاحِب المُنكَّب، فجزع، إن تَرَكَهُ، أن يوجَد إليه السبيل بسَبَبِه، فأخبرنى بالأمر، وسألنى إرْسال قائدِى إليه، فعزِل، وسأل زَاوِىُ زوالَ

أخيه بَلْبَار عن وادى آش، فكان ذلك كلُّه على أَمْكَن سعادة وأَجْوَد تقدير، للذى شاءَ الله من تمام أيَّام وزارته.

ثمَّ أَمَّنْتُهُ فى نفسه، وأَبقَيْتُ عليه جميعَ أمواله إلا الذهب والفضَّة، وسوَّغْتُه إنزالاً ينعاش فيه، وأَمَرْتُه بلزوم مَجلِسى وأنَّه مُكَرَّمٌ طول حياتى، فقَبلَ الرجلُ ذلك كلَّه، وأطاعنا فى كلِّ أَمْر أَرَدْناهُ دون خِلاف ولا إظْهار لمَعْصية، فإنَّه كان جزوعًا، قليلَ الجرأة على العظائم، ولأنَّه لم يَجِدْ فئةً تُعينُه، ولِثقَتى بذلك أَمَّنْتُهُ فى نفسه، ومضى عليه دَهْرٌ طويلٌ على لزوم المَجلِس دون خِدْمة، فلم يَتْرُكْهُ.

وخاف منه مَنْ سعى فى أمرِه من أهل الدولة، وتوقَّعوا منه العودة، فلم يزالوا يُغْرون به، وينقلون عنه من قبيح القول، ويخافون من مغبَّة أَمْرِه، ما لم نَرَ معه وَجْهًا لإمساكه فى البلدة، احتياطًا على أنفُسنا، وربَّما كدحت بعضُ تلك الأقاويل، فهَلَكَ من أجلِها، ولا استَطَعْنا حينئذٍ على مُعاقَبته لِمَا ارتكب فى صَدْر الدولة من قَتْل أولئك النساء ومَنْ جرى مجراهُنَّ، لشركته فى ذلك مع سِواهُ من شيوخ تَلْكَاتَة، فيسوءُ ظنُّ الجميع، وتفسد من سَبَبِه الأحوال، فلا يقوم فسادُ المَمْلكة وسوءُ عاقبة الأمْر بما يلزم من إقامة الحدِّ، فرأينا من الصواب أن يرتحل عنَّا دون تغير ولا إبلاغ فى عقوبة، استمالةً لأنفُس الناس، وبَسْطًا لأموالهم، فخرج بجميع أثاثه وخَدَمه ودَوابِّه وجميع ثيابه وفرشه، مشَيَّعًا إلى ألْمَرِيَّة، فكان المُعْتَصِمُ يُكرمه من أجْلنا، ولا ييأسُ أن نصرفَه إلى منزلته، فيقدَّمَ ذلك الإكرامُ عنه، وخَرَجَت امرأتُه بحَلْيٍ كثيرٍ من الجَوْهَر، حاشى ما خفى عنَّا من المال، وإنَّما صار إلينا ما أعطيناه

بأيدينا من الذهب والفضَّة أوَّلَ ولايتنا، وقْتَ فَتْح بيتِ المال، ولم نتحقَّق ما اكتسب منها مدَّةَ خِدمَتِه لنا، ولا بَحثْنا عن ذلك.

٤٣- النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة ألمرية

تعاقب أحداثه وحله:

ثُمَّ قُمْنَا من بعده فى أمور البلاد والرعايا بأحْسَنِ قيامٍ وأتَمِّه، وجَعَلْنا الأُمَناء على البحث والتعَقُّب ورَفْعِ المَظالِم إلينا، ودام الأمْرُ على ذلك دَهْراً طويلاً.

وإنَّه، فى إِثْرِ مَضى سِمَاجَة المذكورِ إلى ألْمرِيَّة، بَلَغَنا أنَّه حقَّر الدولة لابن صُمَادِح وطمَّعه فيها، لِمَا كان يَرَى من طمع الرجل الذى قد شهر به ـ رحمه الله ـ فإنه كان كثيرَ الطمع، قليلَ الجسر، ضعيفَ المنَّة، فعمل قَوْلُه فى نفسه، ورَجَا أن ينالَ على يدَيْه فُرْصةً بمُداخلةٍ أو إدْلالٍ على مَوْضِعٍ فائدةٍ، كالذى تَهَيَّأ له مع اليهودىّ.

ووافَقَ ذلك أن وَقَعَتْ بين قائدَى النَّظَر ما بين فِنْيانَة والمُنْتُورِى مُشاجَرةٌ، على الجهات، ولم يتهيَّأ حيازة ذلك النَّظَر إلاَّ بُنْيَان المُنْتُورِى المذكور، وقد كُنْتُ، عند وجهتى إلى فِنيانَة، أرسلتُ إليه رسولاً يُعلمه بورودى عليه، وسألْتُه تلك القُرَى المصاقِبة لها وإنَّها أوْلَى بذلك المَعْقِل لقربها، وتطارَحْتُ عليه فى المُكارمَة بها، فكان من جوابه للرسول: «هَيْهات! ليست تُمْلَكُ الأقطارُ إلاَّ بالبُنيان والسَّيْف!» فلمَّا علمتُ مُهِمَّ ذلك الحِصْن على ألْمرِيَّة، وبَلَغَنى ما كان من تطميع سِماجة، وتذكَّرتُ مُراجَعته عن القُرَى، أغْضَبَنا ذلك ولم نُؤَخِّرْ أن عاجَلْنا ببُنْيان ذلك المَعْقِل، فقام على المقام بالجِدِّ

والقوَّة، وجَعلْنا فيه حُماة الرجال، وضاقت أَلْمَرِيَّةُ من أجْله، واحْتِيجَ إلى بُنيان مَعاقِلَ غَيْرِها، تَوَقُّعًا أن نسبق إليها، فيكون عِوَضًا عن المُنْتُورِى، فقام بُنيانُها على ساق، وصارت كلها حرزًا للجهات التى لنا، وأقْفالاً عليها، وضَرَرًا على جِهات أَلْمَرِيَّة، فعيلَ بالأمر، وضاق به ذرعًا، وكان لا يُوجِّه عسكرًا إلى موضع إلاَّ هُزِم، وأَسَرْنا كبارَ رجال على طُرُلْبَش.

وكان عِدَّةُ ما بُنِيَ عليه سبعة حصون، وكنتُ مع هذا آمُرُ أَهْلَها بالرفْق وحرزِ جهاتها ألاَّ يتطرَّق إلينا طالبُ شر، وإنِّى إنَّما بَنَيْتُها صَوْلةً وتَهَيُّبًا، حتى نُصالِحَ الرجُلَ على ما يَقَع بموافَقتنا، ويعرف أقدارَنا، وإنَّه، لمَّا ظهر من كَلَب الرُّوم على الأنْدَلُس ما ظهر، ورأيتُ نفسى ظافِرة متى رُمْتُ مع ابن صُمَادِح فِتْنةً، وتبيَّن لى ضعفُه عن المُناظَرة، صرفتُ نفسى عن التمَادِى والإلحاح، وقُلْتُ: «أنا فى مِثْل هذا مُدْرِكٌ! لا يفوت من الأمر متى أَرَدْناهُ شيء، وحسبُنا ما قد ظهر إلينا، فالإبقاءُ أوْلَى، وإصلاح الأمْر مع الجار - وجارٌ ضعيفٌ يُبْقَى عليه - خَيْرٌ من تَهَيُّئِنا لقَوِىٍّ لا يُرام! ولقد كان المُظَفَّرُ على بَصِيرةٍ من إثباته لدَولته وإبقائه عليه، ولنا فيه أُسوةٌ وقدوة!».

فصالَحْتُ الرَّجُل، وأَمَرْتَ بهدمِ تلك الحصون، ونُشِرَت أَلْمَرِيَّةُ من كفن، وتمكَّن بعد ذلك، ودَنَا، وصار أَصَدَقَ الناس لنا:

ولا خَيْرَ فى حِلْمٍ إذا لم تكُنْ لَهُ
بَوَادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أنْ يُكَدَّرَا

فلم نَزَلْ متعاقِدَيْن مُتشاركَيْن فى الحلو والمُرِّ إلى انصرام الأَجَل.

٤٤- توجيه عسكر ضد تميم بن بلكين صاحب مالقة وأخي المؤلف، ونصره إياه:

ثمَّ لم نلبث بعد ذلك إلاَّ يسيرًا حتى جاءنا من أخينا تَمِيم فحمةٌ لم نحتسبها بعد أن رأى ظهورَنا، وصُلْحَنا مع سلاطين الأندلس، وما صنعناهُ بجهات ألْمَرِيَّة، لم يفرق بين هذه الحالة والحالة الأُولى، لغرارة الصبا وقت اصطكاك الفِتَن والشغل الشاغل، فحسب الزمانَ كلَّه واحدًا، ولما سكت عنه قبلُ، لهذه العِلَّة على ما قدَّمنا ذكره من بدءِ أمره، تمادى على تلك الأفعال، فأرسل قَطائعه إلى حرب المُنكَّب وشَاط(١)، وخُوَيلةً فى إثرِها للضرب على النَّظَر المُصاقب لها، وأتانى أهل تلك الجهات شاكين بالأمر، فقلتُ فى نفسى: «هذا إنسانٌ لم يُبصِرْه الدهر، ولا حكمَتْه التجارب: ومتى تركناه على هذا ذائبًا، ولم نؤَدِّبْه عليها، تمادى شرُّه، وحسب أنَّ ذلك لهيبته، فازداد، ولا تنفع فيه مَوْعظةٌ ولا قيلٌ!» فلم نجد بُدًّا من تأديبه وزجره، فإنَّ الشىءَ تحقره وقد ينمى! وإنَّما كان ذلك الإغضاءُ لَمَعان تُوُقِّعَتْ، وانتظارًا به لحسن العودة وروية البصيرة، فإذا قد يَئِسنا من هذا وأَمِنًّا ما يُشْغِلنا عنه، فَتَرْكُهُ على هذه الضلالة من العجز والخرق!».

ووَافَقَ ذلك الزمان اشتغالُ المُعْتمِد بأمر ألْفُونْشُ، فإنَّه نازَلَ إشبيلية لتباعات تسبَّب بها، وضاقت الحال من أجْله، فاتَّفق الأمر وتهيَّأت الأسباب على حين غفلة وَانتهاز فُرصة، فنهَضْنا بأنفسنا إلى ذلك القطر، فوالله! ما سمع بنا أهل حصونه، ولم نتداركْ بالخروج صبيحة ذلك اليوم، حتى وَرَدَ

(١) شَاطُ: حصن بالأندلس من أعمال كورة إلبيرة، كثير الشجر والفواكه والخيرات (ياقوت).

علينا عن حِصنِ القَصْر بجهة صَالِحَـة أنّه صار فى مِلْكِنا وطاعَتنا رعيَّته، وهو حصنٌ أوَّلُ مـن يطوع وآخرُ من يعـصى لذَوِى الغلبة والظهـور، فاسـتبـشرنا بذلك، وصِرنا إلى الحَـمَّة(١)، نروم منها أمرَ ذلك النَّظَر، فـأُعلِمْتُ بصَخْرة دومِس (ولا مـعنًى لِريَّه(٢) إلا بها، وهى موسطة البلد) وقد اجـتمع فيها جلٌّ عساكر مـالَقَة مع قوَّاد صاحِبـها، فلو انتُزِعَتْ تلك الشوكةُ، كان أمْـرُ غيرها يسيرًا هيِّنًا، فاستَعددْنا لقتـالها، وضاربْناهم فى أوَّل النزوع عليها، فجزع مَنْ فـيهـا من الجُنْد، وأرسلوا إلينا الليلـةَ يطلبون الأمـان، ويخـرجون بخـيلهم سالمين فى مهَجِهم، فأجبْتُـهم إلى ذلك، عسى أن نكون نستميل غيْرَها بهذه الأيادى، وأخلوا الصَّخْرَةَ، وصار فيها جُنْدُنا.

وانتقـلْنا عنهم إلى حِصْنٍ كـان صاحبُ مـالَقَة قد بـناه لقطع الطريق بيننا وبينه أوَّلَ قيامه، على ما رسمناه، فلم يكن إلا ساعة قدومنا عليه وتَخاذَلَ مَنْ فيه، ودُخِلَ قسـرًا، وهو حِصْن أشْتنير(٣)، ثمَّ نَهَضنا إلى مَـرِيَّة بَلّش، فألْقت بيدها، وأردتُ التمادى إلى بِزِلْيانة(٤).

---

(١) الحمّة: من عمل المرية.

(٢) ريه: كورة من كور الأندلس فى قبلى قرطبة (الروض المعطار).

(٣) كذا فى المطبـوع، والذى في الروض المعطار: أشتَـبين: حصن بالأندلـس على يسار الطريق، تحت أصل جبل ممتنع، لا يدركه لمقاتل طَمعٌ.
بنى عليه بعض الملوك حصونًا كثيرة، وحوصر مدةً سنة ٣١٣هـ.
وبعد لأى ما افتتح وذلك فى عقب سنة ٣١٣هـ.
فلعل هذا الحصن هو المحرف فى المطبوع.

(٤) بزليـانة: قرية على ساحل البحر، قريبة من مالقـة، وأرضها رملٌ، وبها الحمّام والفنادق (صفة جزيرة الأندلس).

وكان كَبَّابُ بنُ تَمِيت صاحبُ أُرْجُذُونة(١)، قائدُنا، قد استفْلَك فى تلك الجهة، وزعم أنَّه لا يتعزَّل إلينا، فلمَّا رأى ظهورَنا فى هذه المَعاقِل، خاف أن يَصْفُوَ الجوُّ ويصرف البال إليه، فرام أن لا نَصِلَ إلى بزلْيانة وحذَّر من ذلك، وكان وراءَنا حِصْنُ مُنْت مَاس، ورأيتُ أنه لا تتمكَّن لنا مُنازَلَةُ مالَقة إلا بالراحة منه، فإنَّه يمنع الميرة إلى المَحلاَّت، فانصرَفْنا من بزليانة نريد مُنْت مَاس المذكورة، وأظْهَرْنا لكبَّاب الأَخْذ برأيه، فسرَّ بذلك.

ولما نهضتُ إلى مُنْت مَاس، رأيتُ مَعقِلاً عظيمًا، قد اجتمعت به جميع الرعايا، فعَرَضْنا عليهم الطاعة، فأبوا، خيفةً منهم أن نكون غدًا نُصالح أخانا ويُعاقِبَهُم، فأمَّنَّاهم من ذلك، واجتمع فيه كلُّ فاسِقٍ من أهل الشرِّ، وأعْرَضْنا عليهم الحرب بأنفُسنا، وتَركْناهم على ذلك، ورتبنا عليهم الرُّتب وانصرَفْنا إلى غرناطة، وفى انصرافِنا، طاعَتْ لنا غيرُها من المعاقِل، مثل أَيْرُش وصَخْرة حَبِيب، وكُنا فى أوَّل وجهتِنا قد أَخَذْنا رُيَّيْنَة بالسيف قسرًا، وطاعت لنا جُطْرُون، وهُما قَصَبتا مالَقة، وطارت فى تلك المدَّة عن يده عشرون مَعْقِلاً، وانصَرَفْنا إلى مُنْت ماس ثانيةً، ويئِسوا من تَرْكهم، وطاع أهلُها، وثقَّفْناها، وهدَمْنا من الحصون ما نستغنى عن إمساكه بغيره، وأمَّنتُ الجِهَة وبحثتُ عن فوائدها، وصار ذلك مُقَيَّدًا، وأوْسَعْنا أهلَها خيرًا.

ولما رأى أخونا ما دهمه من الأمر، وقيامَ رعيَّته عليه، خاف على نفسه من أهل البلد، مع تَبْريزنا نَحْنُ عن مالَقَة فى حين أَخْذِ مُنْت مَاس، واشتغل

---

(١) أرجذونة: بالضم ثم السكون وضم الجيم والذال المعجمة، وسكون الواو، وفتح النون، وهاء: مدينة بالأندلس (ياقوت).

بعض الناس بقتال انحازوا إليه دون مَوْضِعِنا، وتبعهم أكثرُ عسكرنا، فانتهز أهلُ مالَقة الفُرْصة، لما رأوه من قلّة مَن فى المَوكِب معنا، وخرجوا على باب فُنْتَنَالَّة، وحملوا على العسكر حملةً اختلط فيها الفريقان، ولمَّا رأيتُ فُرار مَنْ معنا واختلاطَهم بجُنْد مالَقة، أمْسكْنا على العَلامات، وأمَرْنا بضرب الطبل بعد تولّيه، حتى اجتمع إلينا بعضُ الناس لمَّا رأوا ثبوت العَلامات، ثمَّ كانت لنا عليهم الكرَّة، بعد أن أُسِر بعض رجالنا، فأنقذوهم، وهزموا عَسْكَرَ مالَقة، وكان بها من جُنْد البَربَر نحو ثلاثمائة فارِس أنجاد، إلا أنَّ الحزم داخلَهم، ونزع إلينا أكثَرُهُم.

ولمَّا رأى بعضُ من معنا تلك الهزَّة، أشار علينا بالانصراف، وخوَّفنا من تَقْوِية ابن عبَّاد أن تَدْخُلَها ما لا يُمكن، فقُلْت: «إن الانصراف على هذه الحالة عَجْزٌ! وسيشيع فى الجهة كلِّها أنَّ رجوعَنا لم يكن إلا عن هزيمة! فالأوْلَى أن نكسِّر يومَين نُبرِّزُ فيها كل يوم فى الموضع الذى الْتَحَمَتْ فيه الخَيْلُ، نُريهم: إن كانت بكم قدرة، فعاوِدوا ما فَعَلْتُم!» وثقَّفْتُ العسكر لئلاَّ يطيش منه أحَدٌ، فكان ذلك، وأقْلَعْنا بعزَّة حتى وصَلْنا نَظَرَنا على أتَمِّ ما يُمكن، ولو رَفَعْنا أوّلَ تلك الوهلة، خَلَتْ جميعُ المعاقِل التى طاعت لنا، وكأنّنا ما صَنَعنا شيئًا.

فبَقِيَت الحال ضيِّقةً على مالَقة، وأرسل إلينا أخونا، يستعطف ويسأل العَفْوَ وإقالة العثرة، فدبَّرْنا أمْرَه فى أنفُسنا، وعملْنا فيه رأيًا سديدًا، وعلمْنا ما هو عليه من الحَرْص والشَرهِ والحدَّة، وأنَّ صَرْفَ المَعاقِل إليه تَقْوِيَةٌ لشرهٍ، وأنّه، إن عاوَدَ بما كان عليه، لم نقدر له على شىء، ولا تطوع بَعْدَها رعيتَّه

---

(١) عَجَرَ الرَّجُلُ عَجْرًا: مرَّ سريعًا من خوف او غيره

إن أردْناهم بَعْدُ، لِمَا يَرَوْن من إسلامنا لهم إليه، وخـافوا أن يُعاقِبهم، مع ما كانوا ينقمون عليه من سوء الطريقة مـعهم، يُعْلِنون بذلك، وأخذوا منَّا ميثاقًا غليظًا الا نُسْلِمَـهم إليـه، وعاهَدْناهـم على ذلك بأيمانٍ مـغلَّظة، وظهـر من أقاويلهم أنَّهم، متى رُدُّوا إليه، لم يجـيبوا، وأدخلوا الداخِلة، وصيَّروها إلى رئيس غَيْرنا، فخِفْنا من هذه الوجوه ما يجب أن يتوقَّع.

ثُمَّ لم نَرَ وَجْهًـا فى الإِلحاح عليه، فـربَّما أخْرَقَ، وصيَّـرَها إلى سِوانا، كالذى صنع ماكْسَن عـمُّنا بجَيَّان، فتكـون مُصيبـةً للبلدة، وعاراً عظيمًا، من تَوْلية أخـينا وشقـيقنا إلـى غَيْـرنا، وتَـغرِيبه فى البـلاد، وأُمُّه فى قـيد الحيـاة، ولو لـم تكُنْ. فأَبَقينا عليـه، وقد أدَّبْناه بما كفى، ووسـعْنا عليه فى النَّظر مـمَّا لم تَـبْقَ فيـه من الرعـيَّة، وكـان مُهِـمًّـا عليه، وأخـلَيْنا له رُيَّيْنة وجُطْرُون، فإنَّ رعيَّتهـا نصارى، وهُمْ بَيْن النَّظَرَيْن، لا يقدرون على نفاق مع أحَد، وأعطيناه قُـرًى يتَّسع فيهـا لمَرافِقِه، وبقِيَـتْ بيده حُصُون الغَرْبـيَّة مِثْل قَرْطَمَـة، ومِيـشش، وحُمَـارِش، وأعطيناهُ قَامَـرَة، بَلَدَ الزرع، ليتَّـسِعَ فيـها للحَرْث، وحـرَّمْناهُ غَيْرَها، التى يتوقّـع من أهْلها ومنه: إن استأسَـدَ بها، لم يؤمَن شَرُّه.

وبَقِيَـتْ حـالُه فى أفضل الأحوال، مـا رَضِيَتْ به الوالِدة وحَمِدَهُ جـميعُ الناس، صِلَةً للرحـم، وعَـفْواً عند المقـدرة، وتأديبًا لمـا يخشى عاقبـته، وقرَّ حـالُه قرارَه، ونَفْـسُـه فى هـذا علينا حـاقِدةٌ، تَبْلُغُنا عنه أقـاويل سيـئةٌ، ونحن لا نعرج عليهـا ونقول: «إضْرَارُه بالقول خَيْـرٌ من إضرارِه بالفعل، لو صَـرَفْنا إليه المَـعاقِل! وعَلِمْـنا أنّه فى عافـيـة ونعمـة طـائلة مـمَّا عنده من

الأمـوال التى ترك جـدُّه بمـالقـة، لم يحوج قطُّ إلـى نفقة دِرْهَم مـنها، ولا نالَته فِـتْنةٌ، ولا بلغه مكـروهٌ، وكُنَّا نَحْن أَمامَـهُ نُقاتِل عنه العَـرَب والعَجَم، ونعـطى عـنه الجِزْية، وهـو فى دَعَة، فإذا كـان بيـده فوق مـا يكفيـه لقِلَّةِ تَموُّنِه واحتـياجه إلى نفسه فى التـمَوُّن والنفقات، فإنَّ هذا كـثيرٌ، وهو تحت نِعَم جـمَّـة!» فطابـت أنفُـسُنا على ذلـك، وكَفَّ هو عن كـثيـر مـمـا كـان يرتـكب مـن القـتل والظـلم، حتى أنه لا يَرِدُنى من عنده رسولٌ من أهل بَلَده أو جُنْده إلاَّ ويوصِّى أن نشدَّ بيدى عليه، ويقول لى: «بتأدِيبك له فَلَحْنا وكفَّ عنَّا، وإنَّه، مـتى يأمن منك أمْرًا، طغـى علينا، وشقـينا به، وما فى الدنـيا أشْعَرُ منك فى إمْسـاك تلك المَعـاقِل عــنه، فإنك كنتَ بعـد هذا لا تلجمه أبَدًا!» فخـرجـت الأمور خَيْـرَ مَخْرَج، وأمَّـنَّا جِـهتَه بسَتْره فى مكانه، ولم نفجع فيه أُمَّه.

٤٥- ذكر ثورة كباب بن تميت وثورة بني تاقنوت ونهايتهما:

وإنَّ كبَّابَ بن تَميت، قائدنا بأُرْجُذُونة وأَنْتَقَيْرة[١]، لمّا رأى ظهورنا على مالَقة، أكْبَـرَه ذلك وشقَّ عليه، وعَلِمَ أنَّ الأَمْرَ منْجزٌ إليه، إذ كـان قد أضْمَرَ نفـاقًا وطـاعةً فى مَـعـصِيـةٍ، لِمَـا تأسَّس به هناك فى حـين الفـتنة من ضَمِّ الأطْعِمة، والاسـتحواذ على أموال الناس بقَطْعِـه السُّبُل، وانقطاعِ أهل الشرِّ إليه من كلِّ قطر، وكـان أمْرُه من ذُنُوب سِمَـاجَةِ عندنا، الذى سـوَّغه البلد، وجَعَـلَه مِلْكًا فى يده ويدى بنى عمِّـه، حتـى شقى به، ولمَّـا تمَّ صُلْحُنا مع المُعْتَمِد بن عبَّاد، خَالَـفَنا فيه، وجعل يُفْسد وينقض ما أبْرَمْناه من ذلك، ولا

(١) أنتقيرة وبالإسبانية Antaquera أندلسية حصينة تقع شمال غربى مالقة.

يقرُّ عن الضرب، فجعَلْت أقدمُ إليه المَرَّة بعد المَرَّة، وأنذره عاقبة اتِّباع هَوَاه، وأقولُ له: «إنَّ للمُصالَحة وقتًا ينبغى للمَرْءِ حِفْظُها، فإذا أَفْسَدْتَها، فأنْتَ من المُطالبين لى!» فلا يَزْدَجِرْ مع هذا كلِّه، ولا ينفع فيه وَعْظٌ، لإعجابه وتحامُقِه، وكانت كُتُبُ المُعْتَمِد أبدًا تَرِدُ بالشكوى منه، فأَضْمَرَ لما من كفِّه غائلةً، وكانت من سعادتنا أنه لم يجمل المُعامَلة مع أحد الفريقَيْن.

فلمّا طال الشكوى به، قلتُ لرسول المُعْتَمِد: «لا أَسْتَطيعُ على عَزْل كَبَّاب إلاّ بالمُجاهَدة فى مُفاسَدته، فإن استوثَقْنا منكم أن يترامى عليكم ولا تقبلوه، فنَحْنُ ضامنون لعَزْلَته!» فارتبط معى على أن لا تُقبل له رجعة ولا تُقال له عثرة، فألْحَحْتُ على كبَّاب فى أن ينزل عن المَعْقِلَيْن، ثِقَةً منِّى بما رَبَطتُه مع المُعْتَمِد، فزاد طغيانُه، وخاطَبَ على المقام إلى ابن عَبَّاد، يرغب فى تصيير الحصون إليه، فأرسل إلىَّ المُعْتَمِدُ بكتابه، وحضَّنى على شدِّ اليد عليه والراحة منه، ففعلتُ ذلك، وهذا ممَّا تقدَّم ذِكْرُه من إنصاف المُعْتَمِد لنا وقلة خلافه علينا منْذُ فارَقَ ابن عَمَّار، كالذى أجْمَلْنا نَحْنُ معه فى أمْر بَيَّاسَة، وقتَ نفاق أهْلها وأرْسَلْتُ كتابهم إليه.

وإنّ كَبَّابًا قبل ذلك، لمَّا رأى صَنيعنا بمالَقة، على ما قدَّمناهُ، نظر - فى زَعْمه - لنفسه وقال: «هذا ما صنع بأخيه! وطاعت له الرعايا! فكيف بمن هو عبدٌ من عبيده؟» وأحسَّ ذلك فى نفسه ابنُ تَاقَنُوت، صاحبُ مدينتنا، وكان امْرَءَ سَوْءٍ، كثير الطغيان، بعيدًا من الخير، مؤثرًا للشرِّ، وكان له أخٌ بحصن جَرِيشة، قد سَوَّغَهُ أيضًا سِمَاجةُ إقليم نِيمَش كلَّه، وطال مكثُه فى الحصن

سبعة أعوام، فسولّت له نفسه مثل ما أضْمَـر كبَّاب من النفاق، فتعاقَدَا جميعًا وتحالفًا أن لا ينعزل أحدُهما إلا بعزلة الآخر.

فَشَمَّرْتُ[١] للأمر، فأول ما ابتدأتُ به النَّظَر فى أمر ابن تاقنوت، إذ كان أهم علينا من أجل مدينتنا التى كانت بيده، وجَرِيشَة بيد أخيه، ورأيت معاقدة المعـتمد عليـه آكد، إذ علمت من حنقه على كـباب أنه لا يقبل له مـعذرة، فعاملنى على ذلك أيضًـا بأحسن مُعاملة، وتسرَّح بعسكره قُـوَّة إن احتيج إليه لحرب جـريشة، وشارك غاية المـشاركة فى التوسـط بيننا وبينه، وأرسل إليه رسوله، يقول له: «إن كنت جزعت من رئيـسك، فاترك حصنه! وأضمن لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان، وإن كنت لا تثق بهذا كله، فانزل إلىَّ بعد أن أعطيك عهـد الله وميثاقه الا أسلمك إليه أبدًا» فـما كان جوابه إلا أن قال: «وما تصنعون بالحصن؟» قال: «أُصيره إلى صاحبه!» فأبى وقال: «إنما أريد أن أجعل المعقل بيد من يذيقه الشر ويتولى فتنته!».

فأتانى ابن الأصبحى رسول المعتمـد، المتوسط لخبره، فقال لى: «اعزَم على منازلة الرجل! فليس فيه إلى الخيـر طريقٌ، وهو متأهب للشر، لا يقنعه إلا الإضرار بك!» وكـان فى هذا كلِّه يقطع السـبل، ويخيف الناس، ويقـتل أهل الرفق، ويطلـع أموالـهم إلى الحـصن، مـا كـان أشـهـر فى الناس من الشمس، حتى لا يتجرأ أحد أن يجتاز بشىء من تلك الجهات.

فاستخرت الله على منازلته، ومكثتُ عليه سـتَّة أشهر، لا نبالى عما ننفق عليه من الأموال، إلى أن رقَّتْ حالُه، وأنا فى هذا كله أقدِّم إليه وأبلى العذر عنده، وأخوه فى ثقافى، وأمرتُ أخاه بأن: «اكـتب إليه أنى متى أخذته على

---

(١) فى المطبوع: «وشـعرت» بالعـين بعد الشين، ولا وجـه له. وشَمَّـر فى الأمر: خَفَّ ونهض، وللأمر تهيأ.

غير عهـد، بَرَّحَتْ بقتله، وإن كان نزل على الأمان قبل أخـذه، ولو بساعة، لم يتوقع مِنى شيئًا!» فوالله! ما تَرِدُ علـيه هذه الكتب إلا ويزداد طغيانًا وشتمًا وحماقة، حتى يسر الله أخـذه، ودُخِلَ الحِصْنُ، وكفى الله شرهم، وطهرهم من البلاد، وأراح منهم العباد.

وشاورت كبار البلدة وفقهـاءها فى خبرهم، فخيرونى فى الذى حض الله عليه من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ (المـائدة: ٣٣) الآية، فرأيتهم مستوجبين للصلب، وأنه أدهى وأمَرُّ من أن ينفوا من الأرض، فإن شرهم لا يؤمن، وكثيرًا مـا كان المسلمون مرتقبين لما حلَّ بهم! ووالله! ما صـرفتُ وجهى لأحد خاصـةً وعامة من أهل بلادى إلا ووصف لى من أفعالهم القـبيحة ما تروا بها جمـيع الناس، ولقد كان يوم قتلهم للناس عيدًا كبيرًا من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرهم.

وإن كباب بن تميت المـذكور، لما رأى ما صنع ببنى تاقنوت، زاده ذلك حماقـة واستيحاشـًا، وخاطب المعتـمد، على ما قدمنا ذكره، فـأرسلنا إليه نعرض عليه التخلى عن المَعْقِلَين، فـأبى ذلك، وأعد، واستعد بآلة الحرب، وضمَّ الحراسة وأخـاف السبل، وقطع الطرق وأتى بما هو مشـهور من شره، فاستخـرت الله على منازلته، وأمرت بضم الأجناد واجتمـاع الأنداب لقتاله، فكان ذلك على أتم ما يمكن، ولما أحس من نفـسه بالضعف، وأنه لا ملجأ له ولا مهرب إلى أحد بقلة إقبال السلاطين عليه، ترامى علينا، وسأل العفو، خوفا أن يحل به ما حل ببنى تاقنوت إذ لم يقبلوا الأمـان قبل الغلبة، فأعطيته من العفـو ما سأل، ليكون ذلـك قدوة لمن سأل منا العـفو بعد الإسـاءة فلا

ييأس من فعلها، إن دفعنا إلى مثلهـا بعدها، وكانت الأولى عظة وشُغْفةً لمن نفر، ولم يقبل الأمان وتمادى على الطغيان.

وكنـا لا نقـدم شيـئًا ولا نؤخـره مـن هـذه الأمـور إلا بعد روية وفكرة فى العاقبـة، ونـــدع مشـورة النـاس، فإنَّا بلونا منهم قلة التحـقيق، والنطقَ علـى الهَـوَى: فـإمـا مفتـون بأمر يزينه ويحـمل عليه، وإمـا كاره لخيـر أو مطالب لأحد، فيجعلنا نَحيدُ(١) عمًّا لا يطابق هواه ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (المؤمنون: ٧١) فلمَّا بَلَوْنا من الناس هذه الشمائل، وأن كلَّ أحد يحب أن تجرى الأحكام على اختياره، رجـعنا إلى إيثار اختيارنا، إذ كان نظرنا لأنفسنا أرشد من نظر غيرنا «وما حَكَّ ظهرك مثل ظفرك!».

وكنا مع هذا نصـغى إلى قـول الناس بالأُذُن، لا بالعقـل، فنقيس عليـه ونختبر مراده، ولا نريه الخلاف، فنوحِشَه، غير أنى أوسع لهم صدرى ويَسَعُ جَهْلَهم حِلْمى، واقـضى بعد ذلك ما أُريد، إذ لم أكُنْ على أمْرٍ مـجبوراً ولا مقهوراً، إلا مـا قَهَرتْنى عليه السياسيـة، وما تحمد له العاقبـة، كمن يتجرع الدواء لُبْرء الدواء، ولم أكن أغتبن لأحـد فى الحق من جهالة ولا غفلة، إلا أن تكون مسامـحة وتغافلاً لأمر يُراد، أو مُـتباعة للقول فى حـينه تلطفًا وقلة خلاف على قائله، ثم أصرفـه تارات، فالجاهلُ عندنا من إذا أشار برأى، ثم رأى أنه صنع ضده، أن يعاود القول فيـه: فإن كان فَطنًا، من العَيِّ التكرار، وإن كان لم يعلم، فالتذكير به غـفلة منه أو استنقاص لمخدومه، اللهم إنه لم يسمع منه الأولى، فتجرى عن الأخـرى، ولعل خلاف الرئيس عليه الأمر قد

(١) فى المطبوع: «نحير» بالراء المهملة، ولا وجه له. وحاد يَحِيدُ حَيْداً: مال عنه وعَدَل.

ظهر له، وخـفر عن القـائل، ولم يرد اطلاعه عليـه، فيكون فى رأيه البـركة والخير للفـريقين، وهو يلوم على ما لا يعلم أصله ويتمـادى جهالة، وينطق هذراً، وتنحرف نيته على غير معنى، فيكون ظالمًا لنفسه.

فـأودعنا كَـبَّـابًا حِلمًـا، وأمناه، وبقى فى جـملة الجند تحت إحـسـان وإحمال، غيـر أنى لم أستعمله بعدها فى معـقل، ولا مكنته من صخرة، إذ «لا يُلدغ مُؤمِنٌ من جُحْر مَرَّتَيْن[١]».

---

(١) الميدانى: مجمع الأمثال ج ٢ ص ٢١٥.

omeikandil.com

obeikandl.com

الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

obeikandl.com

obeikandl.com

٣- قدوم المرابطين إلى الاندلس
وموقعة الزلاقة[١] ومحاصرة حصن لييط:

٤٦- مقدمات تدخل المرابطين فى شئون الأندلس

وبَقِيَت أحـوالُنا على أَفْضَلِ ما يمكـن، وبَلَغْنا من آمالنا غايتـها، إلى أن حَدَثَ أَمْـرُ الْمُرابِطين - أَعَزَّهم الله - وكُنَّا رأينا كَلَبَ النصـرانىِّ على الجزيرة وأَخْذَه لطُلَيْطَلَة، وقلَّةَ رِفـقه، بعد مـا كان يقنع منَّا بالجزْيَة وصـار يروم أَخْذَ القواعِد، وأنَّ أَخْذَه لطُلَيْطُلَة للضعف المتوالى علـيها عامًا بعد عامٍ، وكذلك كان من شـأنه فى أخذ البـلاد، إذ كان مَذْهَـبُه الا يُنازِلَ مَعْـقِلاً، ولا يُفْـسِدَ أجنادُه على مدينةٍ، لبُعدِ مَرَامِها ومَن فيـها من مخَالِفى مِلَّتِه، وإنما كان يأخذ منها الجِزْيَة عامًا بعد عام، ويعنف عليها بما شاء من أصناف التعدِّى، إلى أن تضعف وتلقى بيدها كما فَعَلَتْ.

فوقع مـن ذلك فى الأنْدَلُس رجَّةٌ عظيـمةٌ، وأُشـرب أهلها خوْفًـا وقَطَعَ رجاء من استيطانها، وجرَتْ بين المُعْتَمِدِ وألْفُونْش مُخالَفات كثيرةٌ، وسأله أن يتخلَّى له مَـعاقِبَ كـان الموتُ عنده أَوْلى من إعطائها، فـوجست نفـسُهُ منه بالجملة، ورَامَ كَسْرَه بطوائف المُرابِطين، وضَرْبَ بَعْضِهِم بِبَعض للقَدَر الذى شاء الله:

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفَتَى
فأكـثَرُ ما يَجْنِـى عليه اجتِـهَادُهُ

---

(١) بطحاء الزلاقة من غرب الأندلس.

وقد كان أخونا صاحبُ مالَقــة، للفتنة التى كانت بَيْننا وبْينه، قد داخلَهم قَبْلُ يستـغيثُ بهم، ويرجو الانتقام منَّا بهم، وأن يدرِكُوهُ مـا فاتَهُ من مملكة جدِّه، وظنَّ أنَّه، عند ظهورهم، يقسم الأموال بينى وبينَه، وكان هذا الخلافُ كلُّه من سعادة أميـر المسلمين، ورأى من تَشَتُّتنا أنَّه لا مشـقَّة تكون عليه فى أخذ بَعْضِنا ببعض متى شاء، فلم يُجِبْهُ الأميرُ إلى شىء، ولا كان وَقْتُه، وهو يُلِحُّ عليه بقلة الدربة.

٤٧- إرسال سفارات أندلسية إلى مراكش،

احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء[1]:

وقد كـان رُسُلُ المُـعتَـمِد قـبل هذا قد وردت عليـه، تُعلمه أن يتـأهَّبَ للجهاد، وتَعِدُه بإخلاَء الجزيرة الخضراء، وأنه لا يَصِلُ إلى سَبْتة إلا ويَضَعَها فى يديه، فلمَّا وصل متأهِّـبًا لذلك، بمن احتفل به من جيشه، قدَّم رُسُلَه إلى المُعْتَمِـد، منهم عبدُ الملك القاضى، وابنُ الأحْسَن، فَأَمْسكَهُم بإشـبيلية مُدَّةً طويلة، وأميرُ المـسلمين فى ذلك مُتَقَلِّقٌ لورودهم، فأرسل معـهم من شيوخ إشْبِـيلية من يقول له: «تَرَبَّصْ من سـبتة مُدَّةً من ثـلاثين يومًا، إلى أن نُخلِى لك الجزيرة» فأجـابهم إلى هذا، وسألوه خطَّ يده وبالتربُّص، فأُشْعِـرَ الأميرُ بذلك، وقـيل له: «لم يَجْـعَلْك ابن عـبَّـاد فى هذا الالتـواء إلا لأنَّه يُريد أن يرسل إلى أَلْفُـونْش يُعلمه بقدومك، ولـعلَّه يتأتى له منه مـا يرغب، ويُهدِّده بك، ويسألهُ أن يُعـاقدَه على أن يهبـه الجزية أعوامًـا، فإن فعل، استـجاش

(١) الجزيرة الخـضراء بالأندلس، بينها وبـين مدينة قلشانة ٦٤ مـيلا، وهى على ربوة مشـرفة على البحـر سورها متـصل به، وبشرقيـها خندق، وقصـبة المدينة مـوفية على الخندق وهى منيـعة حصينة سورها حجارة (صفة جزيرة الأندلس).

عسكره على الجزيرة، ومنعك الجواز، فاسْبَقْهُ إليها! وإن كان النصرانىُّ لا يتأتَّى له، أرْسَلَ إليك فى الجواز!».

ولمَّا انفصل الرسلُ عنه بنيَّة التربص فى إخلاء الجزيرة ثلاثين يومًا، جهَّز عسكرًا مُقَدِّمًا من نحو خمسمائة فارس، وأرسلهم فى أثرهم، فلم تَصِل الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلاَّ والعسكر فى أثرهم قد عدَوْا ونزلوا بدار الصِّناعة، فالتفت القومُ إلى خَيْل قد ضربَتْ مَحلَّتها، لم يُدْرَ متى أقبلت، ولم يُصْبَحْ لهم إلا وطائفة أخرى بعدها، يزيدون ويترادفون، حتى انكمل العسكر كله على الجزيرة مع داود بن عائشة، وأحدقوا حواليها يحرسونها، ونادى داود بالراضى، وقال له «وعدتمونا بالجزيرة! ونحن نأت لأخذ بلدة ولا ضَرَرِ بسلطان إنما أتينا للجهاد! فإمَّا أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا، وإلا، فالذى تقدر عليه، فاصْنَع».

وخاطبَ أميرُ المسلمين ابن عبَّاد، يُعلمه بما صنع، ويقول له: «كفَيناك مؤنةَ القطائع وإرسالَ الأقوات لأجنادنا كما وَعدْت!» فأرسل المُعْتَمِدُ لابنه الراضى فى إخلائها لهم، وحصل فيها داود، وأتى الأميرُ إليها، ودخلها ناظرًا إليها، ثمَّ انصرف إلى سَبْتة إلى وقت إقباله، وأمر داودَ بالتقدُّم إلى إشبِيلِيَة، فاستوفت العساكر على إشْبِيلِيَّة.

وقد كان رُسُلُنا مضوا مع رُسُلُ المُعْتَمِد إلى أمير المسلمين، على اتِّفاق ضمِّ بَعْضُنا فيه بَعْضًا إلى حقيقة، وعاقَدْنا أمير المسلمين على أن تتَّصل الأيدى على غَزْوِ الرُّوم بمعونته، وألاَّ يعرض لأحَدنا فى بلده، ولا يقبل عليه رعيَّته بمن يروم الفساد عليه.

٤٨- تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد:

وأرسل [أمير المسلمين] عند حُلُوله بإشبيلية، عن جميع الرؤساء، فأمَّا ابنُ صُمَادِحٍ، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصًا ليَرَى كيفيَّةَ الأمْر ومَخْرجَه مع الرُّوم، واعتذر بكبر السنِّ مع الضعف، وأرسل ابنَه مُعْتَذرًا، وبادَرْنا نَحْنُ إلى الخروج، وسُرِرْنَا بذلك، وأعْدَدْنا ما استَطَعْنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا، وقدَّمنا الهَدِيَّة إلى أمير المسلمين، وأمرنا بضرب الطَّبْل وما يُسْتَعَدُّ به للفرح، عند مُخاطبته لنا بدخول الجزيرة، وظننا أن إقباله إلى الأندلس مِنَّة من الله عظُمَتْ لدينا، لا سِيَّما خاصَّة من أجل القرابة، وللذى شاع من خيرهم، وإقبالهم على طَلَب الآخرة، وحُكمهم بالحق، فنعمل أنفسنا وأموالنا فى الجهاد معه كلَّ عام: فمن عاش مِنَّا كان عزيزًا، تحت ستر وحماية، ومن مات كان شهيدًا، والعجبُ فى تلك السفرة من حُسن النيات، وإخلاص الضمائر، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك.

ولقينا أمير المسلمين فى طريقه إلى بَطَلْيَوْس بجَرِيشَة، ورأينا من إكرامه لنا وتحفِّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة، لو استطعنا أن نمنحه لحومَنا، فَضْلاً على أموالنا، ولقَينا المتوكل ابن الأفطس محتفلاً بعسكره: كلٌّ يرغب فى الجهاد، قد أعمل جَهْدَه، ووطَّن على الموت نفسه.

٤٩- موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس:

وتَلَوَّمْنا ببَطَلْيَوْس أيامًا، حتَّى صحَّ عندنا إقبال ألفونش فى حفلة، يروم المُلاقاة، ويظنُّ أنه يهزم الجيش لقلَّة معرفته به قبل، وساقَهُ القَدَر إلى أن توغل فى بلاد المسلمين، وأبعد عن أنظاره، ونحن بإزاء المدينة، متَرَبِّصون:

إن كانت لنا، فبها ونِعْمَتْ، وإن لم تكُن، كانت وراءنا حرزًا ومعقلاً نأوى إليها، وأمير المسلمين يُدبِّر هذا الأمر بحسن رأيه، ويلتوى، عسى [أن] تقع المُلاقاة بتلك الناحية، دون أن يحوج إلى التوغُّل فى بلادهم، وهم، كما دخلوا الأندلُس، ولا يعرفون مَنْ لَهمْ أو عليهم ورَجَا بأن يكون الرُّومىُّ لا يَخْرُجُ إليه أحدٌ، فيَنْصَرِفَ طريقه، ويكفى الله المؤمنين القتال، إلى أن تُريه الأمور وجوهها، فلا يسمع إلا الأمير متربصًا لالتياث طاف به، ولولا ذلك، لكان فى أرض النصارى مُدَوِّخًا لها، والنصرانىُّ فى هذا كلِّه يقرب متعاطِيًا، لا يعمل حساب مَنْ يُغْلَب، إن كانت عليه أن يكون بعيدًا من أنظاره، فيستأصله السيفُ، ولو لم يكن إلا يأكله الطريق وبُعْدُ المسافة.

ثم أرسل، على يدى ابن الأفطس، إلى أمير المسلمين، يقول له: «ها أنا قد أقبلت أريد ملاقاتك، وأنت تتربص وتختبئ لأصل المدينة!» فلم يكن بُدٌّ أن يُنتقل إليه، ليكون الجيش على مقربة منه، وتواعدا اللقاء فى يوم سمَّياه، ولم يكن بين المَحلَّتين إلا نحو ثلاثة أميال، فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوعد، وحلَّ الناس عن أنفُسهم، وكانت خيرة أن لو ركبت الفئتان، لم تنفصل إلا عن فَقْدِ الأكثر من عسكر المسلمين، حسبما توجبُه الموافقَة للقتال.

ففجاهم عسكر الرومىِّ، وهم على غير إعداد، وكان مختلسًا: إنَّما له ما ألفَى فى تلك الساعة، وألقى سُمَّهُ فى الرَّحْل، ومات منهم خلائق ممَّن لم يكن يقدر على نفسه، فلم تَقَع الصيحة على الجيش [إلاّ] وركبوا فى طَلبهم، وهمُ قد كلُّوا وثَقَّلَهم السِّلاح مع بُعْد المسافة، فاقتفى المسلمون

آثارهم، وركبوهم السَّيف، ومات من جيشهم خلائق، وتَبَدَّدوا فى الطريق، فمن بَيْن قتيل ومَيْتٍ مُثْقَلٍ ضريع، ولو أن تلك الوقيعة تكون على إعداد من وقوف الفِئتَين ومناطحتهما فى اللقاء، لفُقِدَ من العَسْكَرَيْن الأكثر، كالذى توجِبه الرتبة، لكنَّ الله لطيف بعباده، ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل، وانصرف أمير المسلمين راجعًا إلى إشبيلية على حال سلامة ونصر.

٥٠- يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة.

بدء الخلاف بين المتحالفين

ولما انقَضَتْ غَزْوَتهُ تلك، جَمَعنا فى مجلسِهِ، أعنى رؤساء الأندلُس، وأَمَرنا بالاتِّفاق والائتلاف، وأن تكون الكلمة واحدة، وأنَّ النصارى لم تفترِصْنا إلا للذى كان من تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض فأجابه الكلُّ أنَّ وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكلَّ على الطاعة والجَرْيِ إلى الحقيقة.

وانتدب إليه ذلك الوقتَ أخونا صاحِبُ مالَقة، وقال من غير رويَّة: «إن أحوالى قد ضاقت بتعدِّى أخى على بلادى وميراث جَدِّى!» يُشير بذلك أن يأخُذَ له الأمير بحقِّه مِنَّا، فلما قضى كلامه، قال له أمير المسلمين: «هَلْ لَقِيْتَ أخاك فى هذا المعنى، وتراميتَ عليه قبل مُخاطَبتك لى؟» فلمّا قال له: «لا» رد عليه: «ما ينبغى لنا ذلك إلا برضاه!» ولم يمكنًا فى ذلك الحين السكوت لِمَا يلزم من شُكْر الأمير، و [كانت] فرْصَةً لتبيان الحجة وإقامة عذرِنا ألا ينتسِبَ إلينا بَعْدُ نَسَبَهُ، فقلتُ له: «إنَّ أمير المسلمين لم تكن غايتُه إلا ما هو بسَبِيله من الجهاد، وهو لا يرضى أن ينقض ما أحْكَمَه آباؤنا من

قسـمة ما قسـموه من بلادهم بين أبنائهم، وليس منَّا أحـدٌ حَصَلَ على شىء بقُدْرَته، إلا بما تهيأ له عند الله والآباء من بعـده، مع إجماع المسلمين على الرِّضى بمن تخيَّرُوه، وقد كان الـشيخ جدُّنا ـ رحمه الله ـ رتَّب ذلك، ورأى أنَّ مالَقةَ لا غنًى بها من غَرْناطة، فجعل أمْرَها مصروفًا إلينا من بعده، كالذى كانت فى حياته، فانقضتَ من الأمر ما أبرم، وقَطَعْتَنا، وأردتَ الاستبداد على غير حقيقة ولا أصل، ولو رأى جدك فى ذلك صلاحًا، لأعدَّ لك لذلك عُدَّةً تغنيك عنَّا! ولمَّا تعدَّيْتَ المرَّة بعد المـرَّة، سَعَيْنا فى صرف بعض الحال إلى ما رتبها عليه الجدُّ، ولم نـبلغ فى ذلك الغاية التى تجِبُ بانحياشك ونفارك، وهذا ما وقع! فإن شـاء أميرُ المسلمين أن يـبتنى من جديد، وينقض ما رتَّب الشـيخ، فـهو لنا بمنـزلَتِه: أمْـرُهُ نافـذٌ! وإن رأى ما فُـعِلَ من ذلك سـداداً وصلاحًـا، فلأىِّ وجـه نكلفـه ما لا يليق له؟» فلمَّـا تكلَّمتُ بهذا، وَقَـعَتْ مُساكَتَةٌ، وأمر الأميرُ بانصرافنا، ولم يُعِدْ فى ذلك بَعْدَها مَجْلِسًا إلاَّ فى سَفرة لِيِّيط الملعونة.

وأخـذ أميـر المسلـمين فى الانصـراف إلى بلاده، وهو قـد اطَّلع عيـانًا وسـماعًـا من اختـلاف كلِمَتِنا مـا لم يَرَ وَجْـهًا لبَـقَائنا فى الجـزيرة، وأَنَّسَ الجـميعَ، ولم يتـربَّص فى البلاد ألا يُوحِشَ سَـلاطِينَها مـمَّا يتـوقَّعـونه من انحياش رعيَّتهم إليه، فكُلٌّ من شكا إليه ذلك الوقتَ من رعيَّةٍ، يقول له: «لم نأت لهذا! والسلاطينُ أعلَمُ بما يصنعون فى بلادهم!» حتى ازداد بذلك مَحَبَّةً إلى ما كان عليه فى قلوبنا، وإليه استنامة ومَيْلاً، ورجع الكلُّ إلى وَطَنه.

obeikandi.com

٥١- عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس:

حصار حصن لييط

وبقيت الحال على ذلك: قد أُشرب الرُّومُ من تلك الوقيعة خَوْفًا وانكماشًا، ولم تَزَل الحالُ صالحةً إلى سُفْرة لِيِّط.

وإنَّ المُعْتَمِد بن عبَّاد، لِمَا رأى من خِلاف ابن رَشيق عليه، وأنَّه أراد أن يَضَعَ ابنَه الراضِيَ بمُرْسِيَةَ عِوَضًا عن الجزيرة، صار بنفسه إلى أمير المسلمين، وجاز إليه البحر، يريه الطمأنينة، ويحكم معه ما شاء من عَمل في مُرْسِيَة وغيرها، وعَظَّمَ له شأنَ لِيِّط، وأنه في قَلْب البَلَد، وأن لا راحة للمسلمين إلا بفقْده، وعاقَدَهُ على أن يأتي عليه بنفسه ورجاله، لِكَيْ يَتَهيأ سَلاَطِينُ الأنْدَلُس حَرْبه بعُدَدهم وإجماعهم، فيأمنوا مَنْ يُقْلِعُهم عنه.

وأَتَتْنا كُتُبُ الأمير، يأمُرنا عند جوازه، بالاستعداد للقتال وما شاكَلَ ذلك، فَفَعَلْنا، وبادَرْنا، رغبةً في الجهاد، ومَحَبَّةً فيه، وإيثاراً له، وخرَجْنا إليه، ولقيناهُ في حيِّزٍ من بَلَدنا، بما يُطابِقُ مِثْلَه من الهدايا والتُّحَف، وأجْمَعنا على المسير إلى لِيِّط.

فنازَلْناه على أتمِّ ما يمكن من الرجال والعُدَد، كلُّ رئيس يقاتِلُهُ على حسب مجهوده، وما تبلغ استطاعتُه وحيلتُه، وهو قد امتلأ برعيَّة الجِهَة، كلُّها من النصارى، وأعدُّوا فيه ما يحتاج من كلِّ شيء، فِعْلَ من نَظَرَ على سَعَةٍ، وهُمْ في ذلك يهدِّدون بمجيء ألفونش، ويريعون الحيلة بالتنيير كلَّ ليلة، والقتالُ عليهم كلَّ يوم لا يفتر، مع البُنْيان في المواضِع المهمة عليهم،

ونَصْبِ المجانيق والعَـرَّادات، حتَّى لم يَبْقَ عَملٌ يُرامُ به افتِـراصُ المَعَاقِل إلا وصُنِعَ وأتَى ابن صُمَـادِح بفيلٍ أقامَـهُ، وخرق به العادة: أصـابَهُ من الحِصْن قَبَسُ نارٍ، فأحْـرَقَهُ، وفى كلِّ ذلك لا ينجح عَمَلٌ، ولا تظهر فيـه للمسلمين فُرْصَةٌ، لِمَا شاء الله من اختلاف الكلمة.

٥٢- محاصرة لييط تصور فوضى ملوك الطوائف فى ذلك الحين:

وكانت تلك سفرةً أخرج الله فيها أضْغَانَ سَلاَطينِ الأندلس، ورعيتهم فى ذلك يأتون أفـواجًا، شـاكين لِمَـا وَجَدوا لمـن أسندوا إليه: فـالراضى منهم يلتمس الـزيادة، والساخِطُ يرجو الانتـقام، وجـعلوا فى شكاوِيهِم فقـهاءهم وسَائِطَ، يقصـدون نحوهم: منهم الفقيـه ابن القُلَيْعىِّ، قد صار خِـباوُه بتلك المَحلَّة مَغْنطيسًا لكلِّ صادرٍ ووارِدٍ، يَجِدُ بهم السبيلَ إلى الطَّلَب، للقدَر الذى قدرَّه الله.

ورأى سَـلاطينُ الأنْدَلُس عند ذلك من تحـامُق رعاياهـم وامتناعـهم من مَغارِم الإقطاع التى كانت عليهم، مع احتياجهم إلى الإنفاق، ما قلق به وساء الظنُّ من أجله: جيش يكلِّفـونه كل عام، ومُجـامَلاتٌ تلزم المُرابِطين كثـيرة وتُحَفٌ مُتَوالية، لو فرط منها فى شيءٍ، لانخرمَت عليهم الأحوال، ثم رعايا تمتنع من تأديَة ما تقوم به الحالُ الموصوفة، فلا حيلة إلا بين صبر يؤدى إلى ملامةٍ توجب عقوبة، أو امتناع يؤدى إلى استئصال، كالذى جرَى.

ونسمع فى هذا كـلِّه من أهل جهاتِنا تَهـدُّدًا وعصيـانًا أنكرناه، لا تتمُّ به مَملكةٌ، ولا يتـهيَّأُ معـه قضاء حاجـة، ولقد كان القُلَيْعىُّ المـذكور فى تلك المَحَلَّة يخاطِب إخوانَه بحَضْرَتنا ألا يعطونا شيئًا، ويَعِدُهم بما كان، فلمَّا كان

يأتيهم الحفزُ منَّا، يقعُدون بنا، ونَحنُ أحْوَجُ ما كُنَّا إليه للإنفاق، لا سيمًّا فى تلك المحلَّة التى عُدَّتنا فيها الأقواتُ إلا بالشراء كلّ يوم، فدخل علينا من ذلك ضَرَرٌ شنيعٌ.

وطالت تلك المَحَلَّة الملعونة، فكأنَّما مثلَقٌ أبانَ الطيِّبَ من الخبيث، وكشف العورات، فلم يَزْدَد الرؤساء إلا تَوَحُّشًا، ولا الرعيَّة إلا تسَلُّطًا، ولا الداخِلون على مِثْل هذه النصبة إلا طمعًا، وحُقَّ لهم، مع اختلاف كلمة الرؤساء، وهم فى أسباب الغَرَق: فمن اغْتَرَّ منهم طَالَب صاحِبَه، وهو المَطْلوب، وشَغَلَه ذلك ممَّا هو فى سبيله، ومن ميَّز، انفرد، لم يَجِد مُعِينًا حتَّى توغَّل فى اللجَّة وأخذته الحملة، وكانت مقدمات سوء، وزمانًا على السلاطين عسيرًا، وسعدًا للمرابطين مُقتبلاً.

٥٣- النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيق:

وأتى ابن رَشِيق عند ذلك مُفسِدًا بزعمه لِمَا عقده ابن عبَّاد مع الأمير، وبذل الأموال للمُرابطين، وسارَعَ إلى قضاء الحاجات، واصطَنَع إلى الأمير سير ـ أعزَّه الله ـ وعوَّل عليه، فأكْرَمَه الإكرام الشنيع، وألقَى ابن عبَّاد يَدَه فى قَرُور، مُعَوِّلاً عليه فى القضيَّة، ويذل له أموالاً جسيمة، والمُكْثِر على كلِّ حال يغلب المُقِلَّ، وإن شفَّ عليه باليسير، وأُعْطِيَ ابنُ رَشِيق الأمان، وبُولِغَ له فى التأنيس، حتى غرَّه ذلك وانبسط له، وتاهَ على ابن عبَّاد، وأظهر مَعْصِيَتَه والانحياشَ منه، قائمًا فى ذلك بدعوة الأمير ومُسْنِدًا إليه، حتى أفضى ذلك به، إلى أن أمر أن تكون الخُطْبَة بمُرْسِيَه على اسْمِ أمير المسلمين دون ابن عبَّاد.

والمُعْـتَمِـد، فى هذا كلِّه، يَرَى من الأمر مـا يغيظه ويكربه ويتـقطَّع منه حسرات، وحُقَّ له، فلم يَنَمْ عن القضيَّة، وأحْكَمَها مع الفُقَهاء، واحتجَّ عليه بأحكام السُّنَّة، وكان ممَّن اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْـعِيّ، وهو يفخر بالأمر عندنا، ويقول: «سَـيرَى ابن رَشِيق مـا يحلُّ به! فقد شُـووِرْنا فى أمْره، وإن جُعِلَ لنا مَجْلِسٌ لغيره، فَعَلْنا به مِثْل ذلك!» وكانت هذه الكلمة ممَّا أوْحَشَتْنا وغيَّرت أنفُسَنا عليه، مع تهدُّده تلك السفـرةَ، وضَرْبِه الأمثال، وحِدَّةِ مَعانيه، واستطالَتِه بلسـانِه، وأميرُ المسلمين لا يشـعر بشىء من ذلك، ولا نقدر نَحنُ نشكو به بلا بيِّنة ولا إقامة بُرْهان: فتكون له الحُجَّةُ، ونَقَعَ نَحنُ فى الخزى، لا سيمًا بما كان يَنْتَحِلُ من [أهل] العِلْم.

وإنْ أمير المسلمين، لما رأى حـال ابن عبَّاد مع ابن رَشِيق، واختلافَ ما بينهما، أعمل فى ذلك عَقْلَه، ودبَّره برأيه، وقـال: «ما تنبغى لنا مُفاسَدَةُ ابن عبَّاد من أجْل ابـن رَشِيق، لاحتياجِنا إليـه فيما نَحنُ بسـبيله، ونَحَنُ لم نأمن أمْرَ الرُّومىِّ، والأوْكَدُ علينا فى هذا الوقت مُداراةُ ابن عبَّاد، حتَّى تُرِينا الأمور وُجوهَها!» فتعسَّف على ابن رشيق فى الذى أظهر من الخِلاف على صاحبه، وقال له: «ما كان يَجبُ لك أن تُقَدِّمَ بدعوتى للقيام على رئيسك، فُتوقِعَ بَيْنى وبَيْنِه الشحـناءَ!» وقال فى نفسـه: لم يفعل ذلك ابنُ رشـيق إيثاراً ولا مَحَـبَّةً لجِهَتى! اكتثر من اضطرامِ النار على صاحبِه وإشغالِه بى عن نفسه، ولا سيمًا أنَّ مَعُـونته للروم بلِـيِّط لم تَخْفَ على أحـد، يعتَـقِد أنَّ ببـقائها يثبُتُ فى مُرْسِيَة!» فكان أبدًا يميرُهم ويقوِّيهم بمـا يعجزون عنه، إبقاءً لرَمَقهِم، وخَوْفًا من الداخِلة عليه بفَقْدِهم.

وصحَّ ذلك عند الأمير، والمُعْتَمِدُ فى هذا كلّه لا يَنَامُ عنه، ويَسْتَفْتِى فيه الفُقَهاءَ، لنفاقه بعد دخوله فى البَيْعة له أولَ أخْذِهِ لمُرسيَة، فاتَّفقَتْ عليه الأسباب، وصُنِعَ له مَجْلسٌ أفْتَوْا فيه بإزَاحَته عن المسلمين، وإسلامه لسُلْطانه، فاستغاث عند ذلك بالأمير، فأجابَهُ: «إنّه لو كان لك عندى حقٌّ، لوَهَبْتُهُ لك، غيرَ أنها أحكام السُّنَّة، لا أستطيعُ على إزاحتَها عن مَرَاتِبها!» وأمر بتَثقِيفهِ وإسْلامِهِ إلى المُعتَمِد، وقُيِّد فى الحديد، ورأى هوانًا عظيمًا، وأمَرَ المُعْتَمِد الراضى ابنَه أن ينزل فى مَحَلّته على المقام، وكأنَّه لم يكن بالأمس، وأرْسَلَ الأمير إلى أهل مُرْسِيَة يأمرُهم بالرجوع إلى صاحبهم والطاعة له، فخالف كلٌّ من فيها من ابنِه وقَرابته، وثقَّفوا مدينتهم وجَفَوْا كلَّ من مضى إليهم، وامتنعت الحال فى ذلك، بعد وسائط كثيرةٍ تكرَّرت بينهم، فلم يقدر معهم على شىء.

٥٤- رفع الحصار عن لييط:

تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخَت المَحَلَّة، وطالَ مكثُها، وملَّ الناسُ إلى أن ورد الخبرُ بقُدوم ألفونش إليها، فساءَت الظنونُ من أجْلِ ذلك، ورأى أمير المسلمين أنَّ الرجوعَ عنها والانصراف أَوْلَى، لطولِ مُكْثِ الناس وفشلِهم، مع جمام القادمِين من الرُّوم ومع خِلاف مُرْسِيَة، لئلا يسندوا إلى ميرها ومَرافقِها إذ أنهم أرسلوا أنّهم ارسلوا عن الْفُونس وَقْتَ خِلافِهم، فأخَذَ فى الانصراف.

ووقَعَتْ بَيْن الْمُعْتَمِد والمُعْتَصِم، صاحِب المريَّة، مُشاجَرات وتباعات

باردة فى معاقل من نَظَر الجَبل وفى أَمْرِ شُرْبَةَ، ما وقع فيه الشكوَى إلى الأمير، وانفصلا على غير موافَقة: كلٌّ ذلك من المنحسة المَقْضِيَّة عليهما.

ومِثْلُ ذلك جرَى لنا مع أخينا صاحِبِ مالَقة، وجعل يُكَرِّرُ فى ذلك النَّظَر الذى تكلَّمَ فيه سَفْرَةَ بَطَلْيَوْس، وحَفَزَ فى ذلك بزَعمه، وقال لى بقلَّة دُرْبَته: «إنما مَنَع من ذلك السَّفْرَةَ الأولى ذِكْرِى له عند انفصال الأمير، فلم يُدْرِكْ ولا أَدْرَكْنا! والآن، فلا بُدَّ من ذِكْرِه على سَعَةٍ، وإلاَّ، فالحقُّ بَيْنى وبينك!» فلم نُخفَّ لقوله، ولا كابَرْتُه، لعِلْمى أنَّ الأمير لا يحفل بشىء من هذا كلّه، ولمَّا رأى أمير المسلمين كثرةَ طَلَبِه لنا، أرْسَلَ إلينا قُرُوراً، يقول لنا: «لا يَرِبْكَ شكوَى أخيك، فإنَّ السلطان لا يَسَعُهُ أن يقول له: «اسْكُتْ عن طَلَبِك!» ولا يعطيه عليك يداً، غَيْرَ أنَّا نُلَوِّى القِصَّةَ مَرْحَلةً بعد مرْحلة، حتَّى يَقَعَ الانفصال» فشكرتُهُ فى ذلك، وقال: «إنَّ غرناطة عليه آكَدُ من مالَقَة لاحتِياجِهِ إلى الاجتياز عليها فى غَزَوَاته، وما أشبهَ ذلك من المرافِق، فتقدَّم أنت الآن، وأَعِدَّ جَهْدَك ما يجبُ من ضيافة السلطان إذا [كان] خطورُه عليك، وهو مارٌّ بك على غَرْنَاطة فى انصِرافه!» فسرَّنى ذلك، وتقَدَّمتُ إلى وادى آش، وأَعْدَدتُ له ما كان جَديراً به.

obeikandl.com

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلـف هـذا الكتـاب

obeikandi.com

obeikandl.com

٤- سياسة عبد الله بعد عودته من لييط:

إجراءات دفاعية وسياسية

٥٥- تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لييط مسلك قرور:

ولمَّا وصلتُ وادى آش، وقد ظهر إلىَّ قبلُ فى لييِّط من جَفاء قرُور وتخويفه لى، وتهديدى على لسان الأمير، والأمير عند ذلك غافل، غير أنِّى حَسِبْتُ ذلك من قِبَله لمَا رأيتُ من مكانته عنده، فأدركنى من ذلك رُعْبٌ شديدٌ، وعاينتُ مع هذا ما حلَّ بابن رَشيق، وسمِعْتُ وعيدَ القُلَيْعىِّ لى، وجفاءَه علىَّ، وإزالة رقبتى عنه، ما زادنى ذلك جَزَعًا، لا سيَّما أنَّ الجزْعَ والسوداَء مُتَمكِّنة من نفسى، وأجِدُها فى طباعى، كدْتُ أن أموت غمًّا، ولم أرَ قطُّ قبل ذلك ذُلا ولا كدرًا، فأنكرت الأمور كلَّها مع السلطان، على حَسَب ما كان يُكْرمُنى سَفْرَةَ بَطَلْيوْس، ورأيتُ ضدَّ ذلك كلِّه، وقَرُورٌ يناصِبُنى العداوة، ويرسل المشاوِرِين إلى هوانى، ويأمُرُنى فى حال تلك الحال بأوامر باردِة، يُريدُ بها إذلالى، ويُظهر إلىَّ فيها التعنيف والتعسُّف.

فلمَّا دخل نَظَرِى، أَرَاد إصلاحَ ما أفسد معى، فعَلِمْتُ أنَّ ذلك ليس لنيَّةٍ صَلُحَتْ، بل لحاجةٍ عَرَضَتْ ودَفَعَتْ إلها ضَرُورَةٌ من قِبَل الاجتياز علىَّ، ولأجْل ذلك، قال لى على لسان الأمير فى خَبَر أخى ما قال، وتبيَّن لى أنه، لو كان ذلك من عند الأمير، لم يطلُبْ قَرُورٌ منِّى عليها رشوةً، فإنَّه مع ذلك لم يُخلِّنى من مُؤنَتِهَا، وعمل لى حُجَّةً فى دَفعِ ضَرَر أخى عنى، وأخَذَ منِّى عليها ألف دينار مُرابِطيَّةٌ، لم أتَجرّأ قطُّ على ذِكْرها مدَّةَ حياته، لئلا يطلُبَنى

عند الأمير، ثُم لم تَنْفصِل ساعةً أن انصرَف، وطَلَبَ لربِيبه خمسمائة دينار، فأعطيتُها له، وكذلك كلَّ ما يَطْلُبُ بإمْرةٍ وتَهدُّد، مع قلَّة رَحَمته ورِفقه، وخشونة لفظه، ثمَّ أعطيتُه فى غرناطة ألفَ دينار أُخرَى باسْمِ كسوة خيْله، وأمَّا الذى صار إليه فى سَفْرة بَطَلْيَوْس ومُدَّة كَوْنه على لِيِّط مع الرُّسُل، فأكثَرُ من أن يُحصَى، وهو فى ذلك كُلِّه لا يزداد إلاَّ نفاراً واستكباراً، ومثل هذه الواسطة تُفْسِدُ على الرئيس كثيراً، وتُبغض إليه جماعةً.

[أرسل فىَّ] أميرُ المسلمين، وأنا بِمكْناسَة، فسألنى عمَّا صار إلى قرُور من قِبَلى، فرويَتُ الأمرَ بأحْزَم ما يمكن، وقلتُ فى نفسى: «إن أعْلمتُه بذلك، وهو على حال التمكين عنده، فربَّما أخرجهُ كتابى عليه، وتقرَّعه به، ثمَّ استقرَّهُ على مَرْتَبتَه، فيكون حتفى على يدَيه، ولو أنى نأمَن مكْره، لأعْلَمْتُه بالحال، أوْ ربَّما يقَع الكتابُ إلى يد قَرُور من غَير تعمُّد، والْغرَرَ لا يدخله إلا أهْوَج، وكثيرٌ من الحقِّ يجبُ ترْكُه [وفيه فائدةٌ] بصاحبِه، فلم يَسَعنى أن أقولَ فى جوابى للسلطان: إنَّه لم يَصِرْ إلىَّ [بغير رشوة] فيُكَذِّبنى، إذ كان يعلم بلا شكٍّ أنَّا لم نُخلِّه من ذلك... الدفع التى أعلمنى رُسُلى، وصَحَّ عندى أنَّ قُرُوراً... حيث يصدِّقُنى، ولا يقع قَرور عنده فى...[(١)]».

٥٦- بعض المؤامرات وتخاذل ابن القليعى

[أمَّا أخونا تَميمٌ، صاحِبُ مالَقة] فإنه أرْسَلَ إلى القاضى ابن سَهْل خمسين مِثقالاً، يستعطفه على القيام علينا بالحُجَّة مَعَهُ فردَّها إليه ابنُ سَهْل المذكور، وتَنَزَّهَ عن ذلك.

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

وقال لى ابنُ القُلَيْعىِّ: «هذا وقتُ اقتراضك لهذا الرجُل، بأن تكتُبَ إليه، وتَعِدَه بالقضاء عند انصرافك، وهو يسمح فى قصَّة أخيك، على أن تجعلنى معه فى أحكامه، فإذا ألْصَقْتَنى به، رأيتَ عجائبَ مِنْ تأتِّى الأُمور على مرغوبك عند المُرابِطين وفى بلادك، فإنَّك، لو شئتَ أن تأخُذَ من أحَدٍ دِرْهَمًا بغير الناموس، لَسَمُجَ عند الناس، وإذا أخذتَ ألْفًا على وَجْه الحقِّ، حلَّ لك أخْذُهُ، ولم يستَبْشِعْهُ أحَدٌ، ولا أجِدُ أحَدًا [ينفع لك] مثل هذا الرجل!» ولم يُبارِحْنى حتَّى دفعتُ إليه بخطٍّ يدى رُقْعَةً تتضمَّن له القضاءَ، وما يترتَّب له عليه من مُسانَهَةٍ ومُشاهَرةٍ، ورأيتُ إجابته إلى ذلك صلاحًا بى وخطأً بأخى، ولِمَا تُوجِبُه السياسية من مسايَرته ومُداراته على تلك الحال [وكنتُ أظُنُّ أنَّه] قد حرص على الأمر والنَّهْى، ولا أراه يَبْتَدِئُ إلاَّ بى، ما لم... وفى هذا فسادُ مُلْكى« وخَلْعى، ويقدِّر على ذلك...(١).

«... وبك واثقٌ غير أنَّك قد جَعَلْتَ لى بقولك هذا من الحرص على هذا المال ما أريد أن تعلمنى مِمَّن يُقْبَض!» فإنِّى لا أكاد أن أُصَدِّقَه، لاحتياجى إلى ما نَحْنُ بسبيله من النفقات، وإقامةِ هذا الجيش كلَّ عام.

فجعل يُسَمِّى لى أقوامًا لا يعشرهم فى الخير والفضل، وقدَّم ذِكْرَ صاحِبِ الأحْبَاس ابنِ سَلْمُون، وتسبَّب إليه برسم الأحْبَاس، وغَيْرهم ممَّن لم يَبْلَ منهم إلاَّ الطاعة والنصيحة، فقلتُ فى نفسى: «الله أكبر! ما قصد هذا إلاَّ إلى هذه الحاشية لنا ولآبائنا، إلاَّ وهو يُريد إفرادنَا دونهم، ليتمكَّن بما شاءَ، ولا نَجِد صديقًا نستريح إليه، مع ما تبيَّن من إنْفاسِهِ، وحِدَّةِ مقاطِعِهِ، وأغراضِه القاتلة!».

---

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

والعَيْن تُبْصِرُ فى عَيْنَىْ مُحَدِّثِها
إن كانَ مِنْ حِزْبِها أو مِنْ أعَادِيها

وجعل يَطْلُب بنى السُّنَيْدى والكَتَبَة وغَيْرَهم ممَّن قد اصطَنَعناه [ونأمَن] إمانته، ثمَّ قال لى: «كلُّ ما رأيتَ من السلطان فى لِبِّيط... كان متفلّتًا أن يجعل لك مَجْلِسًا ولغَيْرك تست... وأنت على سَعَةٍ، وأفعل شيئًا تبطل به حجّتُهُ [عليك]...(١).

... كُتم عليها من التَّرَقُّب والإنذار بالعيال نفثة حاقد» وكان هذا القُلَيْعى مخمولاً فى أيَّام الشيخ جدِّنا - رحمه الله -، وكان لا يدعَه فى المدينة، ويأمره بسكْنَى ضَيْعَتِه، لما كان يَرَى من شرِّه وقدرته على الدواخل، فلما ظهر أمر المُرابِطين، اصطنع إلى مُؤَمَّل وغَيْرِه، ووُسِمَ لى بسِمَة الخير والقدرة على الكلام، وأنَّه لا أحدٌ يقدر على استمالةِ المُرابطين على ما هو عليه، فوجَّهتُه رسولاً، وهو فى ذلك يعمل لنفسه، ويسعى فى هلاكى فى الباطِن، وينفث بذلك، على ما صحَّ عندى، ويقول: «والله! لأُبْلِغَنَّ حَفِيدَ باديس الطينةَ السوداءَ، ولأُشَوِّقه إلى دِرْهَمٍ ينفقه [وذلك] على صنيع جدِّه بى وبغيرى!».

وأخْبَرَنى أبو بكر بن مُسكَّن أنه [كان كتب] إلى أمير المسلمين فى أوَّل سَفَرِه معه، ولقى فى الطريق خَبَر دخوله [الأندلُس] وقال: «هذا على رَغْم أنوف الفَسَقة سلاطين الأندلس!» فقال أبو بكر بن مُسكَّن: «وتُخَلِّطُ معهم سُلْطَانَك؟» فقال: «نَعَم! وهو المُقَدَّم إن شاء الله!... مات لتَنَفُّذ الأقدار!»

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

فلمـا أذن الله بانصـرافـه. . . تكلَّم ابن سَـهْل إلى الأمـيـر وقـال له: «أنْتَ على. . .»(١).

«. . . نحن بحال لا يرضى عنا فـيه لا رعيَّةٌ ولا جنْدٌ، وفى هذا الـفسادُ والقَطَعُ، فقال لى القُلَيْعىُّ: «إن تُعِنْ عـليك الجُندَ، استَنْجَدْتَ من العِدوة من يغنيك عنهم، ودَعْنى ورأيى بعد إشـراكى مع ابن سَهْل، ولا عليك من حيث يقوم لك المال!».

فرأيتُ أمرًا مُـعَمّى ومستأثرًا به دونى، مع مـا كان ينطق به لسانُه أبدًا من الوعيد، والتَّهْـديد عند أصْدِقائه ومَنْ ينـقل ذلـك إلىَّ عنـه أنَّه يقـول: «والله لا أُبلِغَنَّ من حَفيـد باديس ما كان يبلغ جدُّه مِنِّى ومن غـيرى!» يسرح بذلك لقلَّة تحفُّظه وإرسـاله لسانه، ولاحْتِقـارِه لنا واحتياجِنا إليـه، فزاد ذلك الجُنْدَ قَلقًا، وهمُّوا بالانتقال مُجتَمعين على ذلك.

فلمّا بصرتُ هذه الحالة، قلتُ فى نفسى: «أنا بسبيل، إن استَفْسَدتُ إلى الجُنْد، وهـم جَناحَاىَ، أن بقيتُ وحدى مع [من] يَرُومُ خَلْعى، فالأوْلَى على كلِّ حال اطِّباؤُهم، واستِصْلاحُ ما فسـد من أنفُسهم، وإسْخاطُ القُلَيْعى وحْدَهُ واجِبٌ فى رَضى عامَّة عبيدى وأجنادى» فجمَـعتُهم بمحضره، وأعْلَمْتُهم أنِّى راجعٌ عن ذلك المذهب، ورادٌّ عليـهم إنْزالاتهم، فقام الـكلُّ على القُلَيْعىِّ، وهمُّوا باخـتطافِهِ من بَيْن يدىَّ لولا إمـساكى لهم، وخشـيتُ مع هذا عليه أن يقتلوه، فتكون شهرة وعقوقًا وينجر الأمر إلى غير المحمود، فَقُلْتُ لهم: «أنا أكفيكم أمرَه!» وأمَرتُ بثقافـه على أجمل الوجوه فى بَيْتٍ بقرب من القصر،

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

وكان تحت بِرٍّ وإكرام، وأنا فى ذلك أعْتَذِرُ إليه من قيام العامَّة، وأعِدُهُ بالانطلاق عند إطفاء النائرة، كالذى صَنَعْتُ.

فلمّا توطّدت الأحوال وقرَّت قرارَها، أمَرْتُ بإخْراجه، وأنْهَيْتُ إليه أن يكفَّ لسانَه، ويَدَعَ فُضولَ القَوْل والعَمَل إلاَّ فيما يَعْنِيه ويُشاكِل طريقته، فقال لى: «نَعَم! أنا ألتَزِمِ الرَّوابِطَ، وأسْلُكُ سبيلَ العافية إن شاء الله!» فلم يكُن إلاَّ أن انطلق، وطار إلى أمير المسلمين بالشكوى، وزادَ فى الطين بَلَّةً، فقال لى الجُنْد: «لو أنك أمْسكتَه، لم يُهَيِّجْ عليك النار! وسَتَنْدَمُ عاقِبَةَ انْطِلاقِهِ!».

٥٧- سيرة الجند مع الأمير فى ذلك الحين تشييد الحصون:

وأرانى جميعُ الجُنْد من التأتّى والانقياد والمُناصَحة ما حسبتُ أنَّهم يُقاتلون عنّى الدَّجَّال، فسررتُ بهذه الحالة، واطمأنَنْت إليها، وقلتُ: «هؤلاء أُمَّةٌ لا يَرَوْن بى بديلاً لإنْصافى لهم ورَغْدِ عَيْشهم معى، وهُمْ قد رأوا جُنْدَ العِدْوة، وأنَّ أقلَّ عَبْدٍ لهم أغْنَى من غيرهم، وأصْلَحُ حالةً، فلا يمكن استبدال الأدْنَى بالأفْضَل!» ثُمَّ عَلِمْتُ قياسَ المَغارِبة أهلِ الحصون، وعَلِمتُ ما هم فيه من الخير، ولم نَظُنَّ قطُّ أنَّ أحَدَهم يبيع أيَّامى، وإنَّما وَجَسَتْ نفسى من الرعيَّة لطمعهم فى حطِّ المَغَارِم، وللذى شاع من الزكاة والعُشُر عند المُرابطين، فقلتُ: «إنَّ بهذه العقْبان التى على رءوسها، لا تجترئ على شيء! وإذا تثقَّفَت المَعاقِل، كان أمْرُ الرعيَّة يسيراً، وكَمْ عَسَى يستطيع الجَيْشُ القادِمُ على أن يَعُمَّ جميعَ البلاد؟ ومُحاولةُ مَعْقَلٍ واحِدٍ منها تطول، وتَحْدث فى خلافه أحْوالٌ».

فصرفتُ وَجْهِ اهْتِبالى إلى تشييد الحصون وبُنْيانِها، وإعداد ما يُصْلِحها

لإحْصـارٍ إن كان، فلم أَدَعْ وَجْـهًا من وجـوهِ الحزم إلا وفـعلتُهُ: من إقـامة الأجبـاب، وإعداد المَطاحِن، وأنواعِ العُـدَد من التِّراس والنَّبْـل والرَّعادات، وجميع الأقـوات، وقَلَعْتُها من القُرَى، وأَعْـدَدتُ لكلِّ حِصْن قُوتَهُ لأَزْيَدَ من العام، وفـعلتُ أكثرَ من ذلك في المدينة حَـضْرَتي، ما أَسْتَـغْنِى عن تحديده لاشتهارِه.

وقلتُ: «ليس من المُمْكنِ أن يتعرَّض أميـرُ المسلمين أحَدًا من سلاطين الأندلُس إلاَّ بعـد إبرامـه لأمْرِ الـرُّومىِّ! ولا بُدَّ عند مُناظَرتِهم من فَـرَجٍ: إن غلب المُرابِطُ، لم يَفُتْنا الدخولُ في طاعته، ولا أسْدَيْنا إليه ما تُذَمُّ عاقِبَتُه أكثر من الاحـتيـاط على بلادنا والمُداراة عـليهـا «فَلاَ الحـمارُ سَـقَط، ولا الزِّقُّ انْخَرَق!» نَحْنُ مُدْرِكُون: لا يَنْبَغِى تقديم يَدٍ سيِّئَةٍ إليهم، وإن غلب الرومىُّ، كنَّا منه على حَـذَر، وقد نفعنا مـا أبْرَمْناهُ من هذا البُنيان والتـشيـيـد، واتّخاذ العُدَد، فَـسَيَكون بذلك لـلمسلمـين حِمايةٌ وانـجرارٌ إلى غَدٍ، إذ البُنـيان من المُرابِط لا ينفع!».

ولذلك أعْدَدْنا المُنـكَّبَ: إن تَغَلَّبَ الرُّومىُّ، فأكون على البـحر متَّـصِلاً بالمسلمـين، نُدافِع منها جُهْـدَنا، إلى أن نُضْطَرَّ إلى الجواز وطَلَب السـلامة بحُشاشة أنفُسِنا ونُتَفٍ من أموالِنا، فشيَّدتُها لذلك، كالذى شهر عنَّا.

والجاهِلُ لا يدرى ما أوَّلُ هـذا ولا آخره، إلاَّ ويخبط [خَـبْط] عَشْـواء: فكلٌّ يتكلَّم على شـهوته، ولم نَعْـتَقِـدْ في أمر المُـرابِطين ـ يعلم الله ذلك ـ صَدَّهم عن جهادٍ، ولا تَظافُرًا مع أحَدٍ عليهم، ولا أرَدتُ بهم شيئًا من مساءَة نُسِبَتْ إلينـا، أكثَر من أنى جَـزِعْتُ الجزع الشديد مـمّا تقـدم ذِكْرُهُ من تلك

المعانى التى أبْصَرْتُهـا، وما جرى على ابن رَشِيق، مع هَلَعِى لذلك، وتمكُّن السوداءِ مِنِّى، وسوء الظنِّ مع معايَنة اليقـين، فقلت: «ما دام تَتَلَقَّى الفِتَّان، نخشى حـملة السيل على هذه المـدينة: فتَحْـصِينُهـا أوْلَى، ولن يُضِرَّ ذلك» فمتى دعانى أمـير المسلمين إلى إعْطاءِ عسكرٍ أو مال، أو ما أشـبه ذلك مما يَجِبُ من مُـشاركَتِـهِ وإنجادِهِ، لم نتـأخَّرْ عنه، فـتقيـمَ على نفسى الحُـجَّةَ، وتجلب إلىَّ المَضرَّةَ إن فعلتُ غَيْره، غَـيْر أنِّى، متى دعانى إلى الخروج إليه بنفسى، نَعتذِر ونَدافع ذلك جهدى فعسى [أن] يتركنى ويقبل عذرى، ومتى لم يقبل لى عذراً، نعلم أنه يُريد إخراجَ أمرى إلى حدود الفعل، فهو إذاً علىَّ متـعَسِّفٌ لكلام الأعـداء والكذب، فلا بُدَّ لى عنـد ذلك من الاحتيـاط على مُهْجَتى والـتحصين على نفسى، ونجعله إذ ذاك كـسائر مَنْ يُريدُ إخراجى من السلاطين، ولِى مَعَهُ الله، إذ[١] لم أنوِ به سوءاً، ولا واسَيْتُ عليه أحَداً، ولا صَدَدْتُه عن جِـهاده، فبأىِّ شىء يتَـسَبَّب إلىَّ إلاَّ إن شاء التـذنيب مع القدرة؟ فلا طاقـة لى بذلك، كالذى صَنَعَ إنسانٌ دَخَلَ على بعض الملوك، وقـد أعَدَّ لكلامه جوابًا، فلمَّـا خُرِجَ إلى الثقاف، سُئِلَ عن إعداده الجـواب وزَعْمِه أنَّ ذلك نافعٌ له، فقال: «لكل كلمةٍ وجـدتُ جوابًا إلا لقَوْلِهِ: «خُذُوهُ!» فلم أدْرِ ما أقول فيها، فوكَّلْتُ الأمر إلى الأقدار!».

وكُنْتُ، أيَّامى تلك، بَيْن الرجـاء والخَوْف، إلاَّ أنِّى واثِقٌ بكلٍّ مـن معى من رجالى وخَدَمَتى أنهم لا يغدرونى، فـقَوِيَتْ نفسى لذلك بَعْضَ القوَّة، مع ما كُنْتُ أعددتُه.

---

(١) فى المطبوع: «إذا».

٥٨- معاقدة عبدالله مع ألبرهانش وكيل ألفونش السادس:

ولما حان انصرافُنا من لِيِّيط، كلَّمْنا أمير المسلمين فى عَسْكَرٍ يَتْرُكه عندنا بالأَنْدَلُس، خَوفًا من الرُّومىّ أن يكْلبَ عليها، ويَطْلُبَنا بثأر تلك السفرة وغيرها، فلا يكون عندنا بمن نُدافِعُ، فقال: أَصْلِحُوا نيَّاتكم، تُكْفَوا عَدُوَّكم!» ولم يعطِنا عسكرًا، فأَيْقَنَّا أن الرُّومىَّ لا يَدَعُنا على هذه الفُرصة دون طَلَبٍ، كالذى كان، فلم يلبث أن احتفل وأتى طالبًا للمال، مُتَجَنِّيًا على من خالفَهَ أن يُفسد بلادَه، وعاقَدَ صاحِبَ سَرَقُسْطة ومن يَلِيهِ من الشَّرْق، فدافَعوا شرَّه ودفعوا إليه ما سلف له عندهم.

ويلغنى الخَبر، وزاد ذلك فى غمِّى، وعَلِمتُ أنِّى فيه كَرَاكِبِ الأَسَد: إن أَسلَمتُ البَلَد، ولا عَسْكَرَ عندى، هُتِكَ، ولم ينجبر لى فيه دِرْهَمٌ، ولم أُغْدَرْ(١) مع هذا، ولا يقرُّ المُطالبُ بأن يقول عنِّى: إنِّى ضيَّعتُه أو سُقْتُ إليه العدوَّ، كالذى رأيتُ وسمعتُ قَبْلُ عن ابن رَشِيق ـ وخسارةُ بَلَدِى زائدةٌ ـ ولا نقيم أَوَدًا بذلك لكلِّ ما نُحاوِلُه من الغزو كلَّ عام وضيافات المُرابِطين، فتجتمع علىَّ الخسارة من وَجْهَيْن، وإن واسيتُ القَوْمَ وأَصْلَحْتُ على نفسى، قِيلَ: «قد عاقَدَ الرُّومىَّ!» ويُشَنَّعُ علىَّ ما لم أَفْعَلْ، كالذى كان، فلم أَنْجُ ممَّا توَقَّعتُ للقَدَرِ المُفْضِى.

وكان أَلْبَرْهَانِش زَعِيمَ جهَات غَرْنَاطَة والمَرِيَّة، وكان الفُونْش قد وكَّلَه أَمْرَ الجهتين، من إنفاذِ أمره فيها لفسادٍ على مَنْ تعذر له عندَه شىءٌ، ولقبض مال وتَوَسُّط ما ينفعه فيها، فأرسل إلىَّ أولاً عن نفسه، ينذر بدخول وادى آش، وأنه لا يرده عن ذلك إلا الفداءُ لها، فقلت فى نفسى: «ومع من أتق رأيه؟

---

(١) فى المطبوع: «أغدَر».

أى مقدرة بنا على مـدافعته؟ لا عَـسْكرٌ ترك لنا نداقع به! فكمْ يأخذ فى هذه النَّصْبَة من أُسْرَى المسلمين! وكَمْ يفسد فيها من الأموال! ما لا يعشر قيمة ما يُعْطَى كالـذى عَهَدْناهُ منهم! اللهـم لو كان، ونفَّذ ذلك، ويبلـغنا عن أُسْرَى المسلمين عندهم! أليس من الصلاح إفداؤهم بما عزَّ، فنحنُ جُدَراء أن نفعل ذلك قبل رِحْلَتهم دون فساد فى البلـد! ونحتسب ذلك لله تعالى، وهو العالمُ بالضمـائر! فإنَّا لو فَعَلْنا ذلـك أشراً وبطراً، وعندنا مَنْ[١] نداقع، لكان فـيـه الحُجَّة علينا!».

فاجـتمع رأيُنا على إرضائه باليـسير، مع مُـعاقدته ألا يقـرب لنا بلداً بعد أخذ هذه الدفعة، فارتبط إلى ذلك، فلما حصلت عنده، قال: «هأنا قد صَلُحَ جـانبى! والأوكَدُ عليكم أمـرُ ألفونش، الـذى هو على الحَرَكـة عليكم وإلى غيركم، فمن أنْصَفَهُ نجـا، ومن حاد عنه، فسَلَّطَنى عليه! فإنما[٢] أنا عَـبْدُه، لا بُدَّ من إتيـان مــرغـوبه، والوقـوف عند أمـره، ولا ينفــعكم هذا الذى أعطيتمونى إن خالَفتموهُ، وليس بنافعٍ إلا فيما يخُصُّنى دون رَئيسى إن حدَّ لى ضِدَّه!» فعَلمنا أنَّ قوله حقٌّ يقبله العـقل، فقُلْنا: «لا يمكن أن نوَجِّهَ نَحْنُ إليه ونبدأه، فنوَقِظه لأكْلِنا! ولكِنْ، متى أرسلَ يأذن بذلك، سنَعْـتَذِرُ إليه، فعسى [أن] يقبل رَغْبَتَنا، ولم نفتح له بابًـا فى إعطاء شىء إلا يزيد طمعُه! أكثرُ من تَلَوِّى القول، عسى من هنا إلى ذلك الوقت [أن] يأتى عَسكَرٌ يُكسَرُ به، فلا يعبأ بقَوْلِه، وإن لم يأتِ أحَدٌ لم نكُنْ نُقَدِّم إليه قبيحًا، فنشقى عند ذلك».

ودافَعَنا الأمْرُ عند البرْهَانش، وأنه لا سبيل إلى أن نعطـيه شيئًا، واعتذَرنا بالمُرابِطين وغـير ذلك ممَّا لـزمنا من النفقات عليهـم، فسكتَ عنا الخِنْزِيرُ،

---

(١) فى المطبوع: «بمن». (٢) فى المطبوع: «إنما».

وأرسل إلى صاحِبِه، كالذى يلزمه مـن التخدُّم له، وسأله أن يوجِّه لى رسولاً يُطَّلب جزيَته، فإن انصرف دون شيء، كان هو المُنْتَقِمَ من جهاتها.

٥٩- التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه

وتأهَّبَ ألْفونش إلى الحَرَكة، وقدَّم رسولَه بين يدى حَرَكته، فلما صحَّت عندنا، أتانا منها المُقيمُ المقعِدُ، ولم نَدْرِ أين الخيرة: إن كان فى رَفْضِ البلد وتَرْكِهِ ليَعْبَثَ فيه، أو مُداراَتِهِ بما تيسَّر، ووقعت من ذلك هَيْبةٌ فى الناس ورجةٌ، حتَّى بلغ مـن الجزع أننا لم نُصَدِّق أن يقبل مِنّا المـالَ دون المُلازَمة لنا، طالبًا لإحْنَة لِبِيِّط ومُعاقدة المُرابِطين.

وطَمِعْنا أن يقنعَ رسولُه باليسير، فقال لى: «لم آتِ عن ذلك كلِّه، إلا أن تعطيه ما فـاتَهُ عنك من جزِية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفـًا! لا يُنقص منها شيءٌ، وإلا، فها هو مُـقْبِلٌ! والذى تقدر عليه، فاصْنَعْ!» فـرَوَّيتُ الأمرَ فى نفسى، ورأيتُ أن التعـاطِىَ حمـاقة لا تفيـد، وقُلتُ: «إن أخذتُ هذه من الرعـيَّة، ضجَّت وشكَتْ، ويكون مُقدِّمَتُها بمرُّوكُش[1] شاكِينَ، يقولون: «أخذَ أموالَنا وأعطاها للنصارى!» ولكِنْ لهذا الوقت يحتاج الإنسانُ ما ادَّخَرَ ليَصُونَ به بَلَدَه وعِـرْضَه، وأنـا جَديرٌ أن أُعطـى ذلك من بيت مـالى، بَحَيْـثُ يسلم البَلَدُ، وبحَيثُ تشكر الرعيَّة بمـدافعَةِ عدوِّها دون تكليفها شـيئًا، ولا تَقَع الشُّنْعة!» ففعلتُ ذلك، وأرسلتُ إليه الثلاثين ألفًا، لم أرْزأ أحدًا فيها درهمًا.

ورأيتُ مع ذلك أن أجَدِّدَ مـعه عقـدًا ألا يعترض لـى بلدًا، ولا يغدرنى

(١) فى هامش المطبوع: كذا فى الأصل، عـوض «مراكش» وليس بتصحيف، إذ عـبارة «مروكش» كانت تستـعمل دون غيرها أيام المـرابطين مؤسسى هذه المدينة، وهى التى انتـقلت إلى اللغة الإسبانية دون عبارة «مراكش» واسمها بالاسبانية إلى اليوم Marruecos.

بعدها، خوفًا أَن يَقـتَلِب عليَّ، فأجـاب إلى العَـقد، وقُـلْتُ فى نفـسى: «إذ لا بُدَّ من دَفْعِها، فـبالعَقْد أَوْلَى، فإن حُوِّجْنا إليـه، وجدناهُ، ولم يضرَّ، وإن استُغْنِيَ عنه، كـان مكانَه سُمْرُ القنَى والبيض الرقـاق، إن تَدارَكَنا الله بعسكرٍ يدفعه، والحَرْبُ خُدْعَةٌ! «وإذا لم تغلِبْ، فاخلِبْ!».

فأجاب إلى تلك المُـعاقَدة، حِرْصًا على أخـذ المال، ونحنُ لا نشكُّ أَنَّه يغدر، كالخاطِر لنفسه للضَّرُورة التى لا سبيل إلى سِوَاها، وقال لى عند ذلك رسولُه: «يقول لك ألفونش: «إن كُنْتَ تُريد تُخَلِّط مع هذه المُـعاقَدة استعانةً به على شيء من بلادك التى عند ابن عَـبَّاد، فهـو يجدُ لك فيـها فى وجهـته هذه» فـأجَبْـتُهُ: «إنّى لا أُعـينُ على مُـسْلِمٍ أحَدًا! وإن الذى دعـانى إلى هذه المعاقدة المُدافعة على بَلدى وأهل مِلتى، فإن وَفيتُم بذلك، فهو المُرادُ الذى إليه قصدنا» وكـان من نيته أن يخلط الفتنة بيننا وبين ابن عبـاد، ليجدَ بذلك السبيلَ إلى بلاده، ويقوى عليها بأموالنا، ويتسبب إلى طَلَبِ كثيرٍ من أموالنا، إذ كـانتْ تلك الثلاثون ألفًـا على وَجْـه الدَّين للمُـسالمـة فقط، وإنَّمـا أراد استئنافَ عَمَل.

وكان مع هـذا لا يَثِقُ بِقَوْلِنا، ويحـسب ذلك منَّا خُدعـة، وقُلْنا له: «إنا مُغـرَّرُونَ فى هذه الفعلة مَعَكَ، وسـتـدركُنا تباعاتُهـا عند المُرابطين، ونُطالَب بذلك!» فقال، تسهيـلاً لأخذ ماله: «متى أدرككم فى ذلك منه طَلَبٌ، فعَلَيَّ الذبُّ عن مـدينتكم» فأجَـبْناه: «بل، هو يرى عذرنا، وقـبولُه وعطفُـهُ أرجَى عندنا من معونتكم».

فانفَصَلَت الـحال على ذلك، وقال [لى رَسُـولُه]: «لا بُدَّ له مـن تدويخ

سائر البلاد من نَظَر ابن عَبَّاد وغيره، إن لم يعْطه!» فَقُلتُ: «هذا أمرٌ لا يسألنا الله عنه يوم القيامة! كلٌّ أحَد مسئولٌ عن رعيَّته! نَحْنُ قد احتَلْنا على من قلَّدَنا الله أمْرَه، وفَدَيْنا أرواحَهم وأموالَهم! ومَن له حاجة من سائر السلاطين يُقابِل أمْرَكم حَسَبَ مقدرته، إن شاء بفداء أو قِتال، لا نتكلَّم نَحْنُ فى شىء من هذا، ولا ينبغى لنا، ولا أنتُم واقِعون تحت أوامرنا، فننهاكُم[١] عن ذلك، ونَحْنُ لم نتخلَّص من التحصين على ما يخصنُّا إلا بعد كَدٍّ، وما كَدَّنا، فشأنكُم! وأنا بَرىءٌ، لا أغمِسُ فى ذلك يداً ولا لسانًا».

ولم أجِد وَجْهًا نرجو به بعضَ الدفاع عن إخواننا المسلمين أكْثَر من مُخَاطَبَة المُعْتَمِد، نُعلمه بجليَّة حالنا معهم، وما ذكروه من إيطاء بلاده، ونُنْذِره بذلك، لِكَىْ يقلع، ويدَّرِع الحزم، ويُقَدِّم للأمر أُهبَتَه.

٦٠- تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله:

عبدالله يبرر مسلكه

ثمَّ خاطَبْنا أميرَ المسلمين، نَقُصُّ[٢] عليه جميع ما وقَعَ وما دَفَعَت الضَّرورة إليه، وأنَّ الحاضرَ أبصَر من الغائب، ولو الحال يقتضى بمَطْلِها، ولو بمقدار وصول الخطاب بمشورته سلامة للمسلمين، لم أقَدِّم شيئًا فى ذلك ولا أخَّرْتُه إلاَّ عن رأيه، كالذى يلزم، غَيْرَ أنَّ الحفر كان أشدَّ، لم أرَ التغريرَ بالمسلمين، وإنَّ الانتقامَ منهم مُدْرَكٌ بحول الله على يديه، ولم نشكَّ فى أنَّ الجواب يَرِدُنا بالشكر على ما نَظَرْناهُ وسَدَّدْناهُ، لا سيما إذ كان الفداء من عندى ولا أُكَلِّف فيها مُسْلِمًا دِرهمًا، فوردنى جَوابُه مع ما أُمْلِيَتْ نفسه من الطَّلب لى، وصُوِّرتْ عنده الأمور على غير حقائقها، بما زاد فى جزعى،

(١) فى المطبوع: «فنهاكم».

(٢) فى المطبوع: «ننصُّ».

يقول: «أمَّا مُدَاهَنَتُك وقَوْلُك الباطِل، فقد[1] عَلِمْناهُ! وسنعلم عن قريب كيف ترضَى الرعيَّةُ، وما تَصنَعُ إذ زَعَمْتَ أنك نظرتَ لها، ولا تُسَوِّف: فإنَّ هذا قريبٌ غَيْرُ بعيد!».

فلم أَقْنَطْ مع هذا، وقُلتُ، عند الحقائق وتِبْيَانِ ما وقع، على لسانِ رَسول: «يزيلُ عن باله كلام الأعادى! وهذا من بَغْى القليعى وأبى بكر بن مُسكَّن! فإنهم لا ينقلون إلا على شهواتهم!» وكان أبو بكر بن مُسكَّن قد بلغ من طغيانه علىَّ، وسبِّهِ لى، ورَجائِه فى أن يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قرنى أو أكثَرَ، فإنَّه انتمَى إلى بنى زيرِى، وجعل يهذى بذلك ويفتَخر به، لا يَرَى لأحَدٍ عليه فضلاً، ويسعى فى نقضِ ما انبرم من أحوال الدولة ما لا يتم معه مُلك ولا أمر، فجعلت الذنب فيه سَوَاءً كما فى القُلَيْعىِّ، إذ مقالتُه لا تطفى ما أشعَلَ القُلَيْعىُّ لو أراد الخيْرَ، كما أنَّ تَرْكَه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك، فجَعَلْتُ الهمَّ فيهِما هَمّا واحِداً.

ولمَّا تشدَّدتُ عليه، وأمرتُه بالكفِّ، أحرق، وهرب دون نَفْيٍ، ومضى قاصِداً إلى المُرابط، يغرى فىَّ، ويَسْعَى علىَّ، ويكذب، ويصوِّر الأُمور على غير وجوها، فتكرَّرَتْ مُخاطَبَتى على أمير المسلمين، نبيِّن له جميع ما وقع، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفَسَقَة، وهو، فى ذلك كلِّه، لا يراجعنى إلاَّ بالشِّدَّة، وقبول قولهم علىَّ، فبقيت تلك الأيامَ على أسوأ حال، لا ندرى أين الخيرة، ولا كيف التخلُّص.

وساءَ ظنُّ المُعتَمِد بى فى دخول النصرانىِّ إلى بلاده، وكفِّه عن بلادنا، واعتقد أنَّ ذلك عن اتِّفاق، ولو كان عن اتِّفاقٍ، لأدَّيتُ عليه مالاً فوق

(١) فى المطبوع: «قد».

الجِزْية! فليس لهم إلا بنى الكِرَى غير منطاعين لقَوْل أحَدٍ، ولم يأتِ عسكر المُرابطين إلى إشبيلية إلاّ والبلد قد أفسد.

والله تعالى يعلم أنِّى ما واسيت فى تلك النَّصْبة، ولا يسألنى الله عن كلمة طعنتُ فيها على مُسْلِم، فاتَّفقت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب، ولو أنى أريد ذلك، والانحياشَ إلى النصارى، كالذى قِيلَ، لم يَصِل المُرابِطون إلى سَبْتة(١) إلاّ ومدينة غرناطة مَملوَّةٌ منهم، وكنتُ أستطيع على ذلك، وكانت لى فى المدَّة برهة وفسحةٌ طويلةٌ، إلاّ أنَّ الأعمال بالنيَّات، وتلك القالة إنَّما كانت سَبَبًا للذى قُدِّرَ، ولو أن قضيَّتى تُسْتَوْضَح، لَوُجِدَ فيها ما لا مطعنَ فيه، ولا مَقالُ بيِّنة، ولا إسرار فى مَيْل على مُسْلِم، ولا إدخال داخِلةٍ، وكيْفَ يصحُّ هذا قِبَلَنا، وأوَّلُ سَيْفٍ سُلَّ على الروم إنَّما كان من قِبَلِنا، وهى الوقيعة المشهورة بالنِّيبَل، من طاعَتنا، فى حين تطرُّق النصارى إليها على حين غَفلةٍ، ووافَقَ ذلك أوَّلَ ظهور المُرابطين ووُصولَهم سَبْتَةَ، ووَرَدَنا إذ ذاك رسول الفونش مُعتَذِرًا من الأمر، فصرفناه عن الطريق، قطعًا له، وإيثارًا لأمير المسلمين، وعند الله تجتمع الخصوم!.

(١) سبتة: مدينة عظيمة على الخليج الرومى المعروف بالزقاق، وهى تقابل الجزيرة الخضراء، والبحر يحيط بسبتة، وليس لها إلى البر غير طريق واحدة من ناحية الغرب (الروض المعطار).

الفصل التاسع

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

obeikandi.com

obeikandl.com

٥- الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة

٦١- ثورة يهود مدينة اليسانة[١]:

ولمَّا كُنْتُ فى تلك الفترة، بدَتَ أُمورٌ وأَسبابٌ دَلَّت على ما كان من الانتقال ومُقدماتٌ آذنَتْ بالزوال، فأوَّل ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لعلَّة نذكُرُها، وأَرَقٌ سببٍ لم يُوبَهُ له، وذلك أنِّى، لمَّا أمرتَ ببُنيان السُّور المتَّصل بالحمراء، ودبَّرتُه على تلك النصبة التى أضربَتُ عن شرحِها لاشتهارها هيأت السعادة أن وَجَدَ البناءُون فى الأساس قُمْقُومًا مملوءًا ذهبًا أعلمونى به، فلما وقفت عليه، لقيتُ فيه ثلاثة آلاف مِثْقال جعفرية، فاستبشرتُ بها وتفاءَلْتُ بنجاح الطلبة، والدنيا تسخرُ بنا كما سخرت بمن كان قبلنا، فقلتُ: «من أساسِه يكون بُنيانُه!».

وكانت دارُ أبى الربيع اليهودىِّ الخازن للأموال فى دولة جدِّى - رحمه الله - مبنيَّة على ذلك الأساس، فعلمنا أنه من ماله المدفون، فأتَى ابن المرَّة متنصِّحًا بالأمر، ويقول: «أرسلوا عن ابنه، يكشف لكم سائر دفائنِه» فخاطَبْنا عنه لِيَرِدَ علينا فى بعض الأمر، وكان صِهْرُه ابن ميمون، كنَّا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة، وأسْدَينا إليه جميلاً من التنويه به، فاستمال بها أقوامًا من الغرباء، يصول بهم على أهل مِلَّته، وكان خبيثًا، فأحَسَّ بالقِصَّة، ووجست نفسه منها، واعتذر عن صهره، وساءَ لذلك ظنُّه، وخشى أن يُعذَّب على مال أبيه.

---

(١) اليُسانة: بلدة حصينة من أعمال مقاطعة غرناطة، تقع شمالى غربى مدينة لوشة على مقربة من نهر شنيل (الإحاطة ٣/ ٢٩٩ حاشية ٢).

obeikandi.com

ووافقَ قَبْلَ ذلك، عند انصرافنا من لِيِّيط، أن فَرَضْنا على أهل اليُسَّانة ذهبًا كثيرًا باسْم التَّقْوِيَة لم تَجْرِ عادتُهم به، وحَمَلْناهم فى ذلك على الصحَّة والانطباع، فنَفَرَت لذلك أنْفُسُهم، ووجد ابنُ مَيْمون المذكور السبيلَ إلى إغرائهم وحملهم على النفاق، فأجابوه، ودخلوا فى السلاح، ونادى فيهم أن: «جِدُّوا، مَعْشَرَ بنى إسرائيل، فى حماية أموالكم!» وافتضح بذلك ابن مَيمون، وسَبَقَتْ له جنايةٌ فى قتل عاملِنا ابن أبى لَوْلا على المُسْتَخْلَص رياسة وعدوانًا، وامتَنَعَت اليُسَّانة بالجملة.

فلمّا رأيتُ ذلك، لم أجد بدًا من مُداراةِ الأمر، واشترطَ مُؤملٌ بإصلاحه، ونهض، ثُمَّ إنّى عملت رأيى بعْده، وعَلِمتُ أنّه لا يلقَى إلا أحَد وجْهَيْن: إما طاعة على غِش، أو عصيانًا، وأيهما كان، فإرسالُ العسكر إليه واجبٌ، وشدَّةٌ وتَرْهِيبٌ، ليعلموا قَدْرَ ما جنَوه، وخَرَجْتُ بنفسى فى أثره، وقد اجتمع إلىَّ الأنداب، فإذا بمؤمل قد أقبل منصرفًا، ردنا عن ذلك المذهب، وقال لى: «قد أصلحتُ الأمر مع ابن مَيْمون، ونُهوضُك إليه لا يزيد القوم إلا نفارًا، وربَّما استعانوا بعسكر ابن عبَّاد، لا سيما أنه الآن بقُرْطُبَة، وليست تُؤخَذ بإحصار ولا قتال!» على أنّى قد علِمتُ أن ابن عبَّاد لا يجيبهم فى ذلك الوقت كلِّه، ولا اشتهر بذلك إلا ما كان الناسُ يذكرونه، وابن ميمون يفتخر به ويُطمِع به أهل اليُسَّانة.

فقبلتُ قولَ ابن مؤمل، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة، وقلتُ: «خروجى إلى هُنا أو وصُولى إليهم سَوَاء! إذا أردنا التَّهييب، فقد وَصَلْناهُ!» ثم قلتُ لمُؤَمَّل: «صِف علىَّ ما انفصلت!» فقال: «إنَّ ابن ميمون زَعيمها

عَدَّدَ أشيـاء أنْكَرَها من الإرسالِ فى صهـره، وهذه الفرضة العظيمـة، وسائر ذلك من الألقـاب اللازمة، فـضمنتُ لهم الـصكوك برفع ذلك عنهم، ولابن ميمون فى خاصَّتِه» وأمرتُ بَعقدها والإرسال بها، وقرت الجبالُ قرارها.

ووجَـستْ نفسـى من ابن مَيْـمـون لإظهاره الـخلاف والإعـلان بذلك، وعَلِمْتُ أنَّ هذه هُدْنَةٌ على دَخَنٍ، وأن لا طاعة تصحُّ لى معه، وسيؤثر أمثال هذه، فَـدبَّتْ إلىَّ المُداخلة مـن اليهـود المخـمـولين فى زمانه، ووعـدتُهم بالإحسان، وتكرر فـى الوساطة ابن سِيقى، حتى أبرمتُ مـن ذلك ما أمَّلتُه، وكان أخذ ابن ميـمون يسيراً، لا عصبةَ له، وهو غـافل، وكان الواسطة أيضًا ابن المرة مع أبى العباس الحكيم، وكان ذلك ممَّـا نقمه مؤمَّلٌ لانحياشه عن ذلك، إلى أن وردوا الحضرة على عادتِهم، وأمـرتُ بثقافه مع ابنه برضاء من الشيوخ، وأمـرتُ أن لا زعيم فيهم بعـد اليوم إلا الكلُّ منهم أمناء منَّوْه بهم، فشكروا ورضوا، وخـاطبتُ عامتَهم تُعلمهم بـما لهم فى ذلك من الصلاح، وتهدَّنت الأحوال وقرَّت، إلى أن تلف الكلُّ.

٦٢- قضية زناتة:

وقَضِيّة أخـرى بَعْد هذه فى أمْر زناتة: إنه، لما أعملتُ الفكرة فـى عاقبة الأمر فى هذه الفتن العـارضة، رأيت أنَّ الاهتبال بالمعـاقل من آكَدِ ما يجبُ النظرُ فيه، كالذى تقدَّم ذِكْرُه من المنظر فى عُدَدِها وما يُصْلِحُها، وأنَّ الأوْلَى استصلاحُ ما فسد من نفوسِ قوَّادِها، وذلك أنه لم يكن يَلى لنا مَعْقلاً قَطُّ غيرُ صِنْهاجَة والوصفان والعَبيد، ما خَلاَ زَنَاتَة: فإنَّهم كانوا أجناد الحضرة.

وكان الصِّنْفُ المـذكور قد ضَـعُـفَ، واستولى علـيه النقصـانُ لمُطالباتِ

جَرَتْ عليـهم من قِبَل وزراء الدولة كاليـهودىّ وغيره، فـإنهم كانوا يرون ألا ولاية تتهيأ لهم مع صنهاجـة لاحتقـارهم إياهم وأنفسهم من توليـة مثلهم، فكانوا يميلون إلـى الصنف البرّانىّ كله، ولما جـرى على اليهودىّ مـا جرى منهم، اعـتقَـدَها النايةُ فى نفسـه، وخشى مـثل ذلك، فـجـعل نفسـه فى مطالبـتهم، وتبـديدهم، وإنزالهم على الإنزالات الضـعيفـة، ومن كان بـيده شىءٌ، تُسُبِّب إليه وأزيل عن يده، فأدْركهم النقصانُ والقلّةُ، وزاد فى زنَاتَة، وقـويت أحوالُهـم وإنزالاتُهم، على أنهم كـانوا على الحـقيـقـة خِيـرة جُند الأندلس، والموثوق بهم فى الشجاعة والنجدة، وكان الصنْفُ كثيراً، لا يعدم ضمَّهم مَنْ له مال.

فقلتُ فى نفسى: «هؤلاء القوّاد الذين على الحصون، وإذا كانت أنفُسُهم فاسِـدةً، ولا يتذكّرون معنا على نعـمة طائلة، فكيف يُمسِكون المـعاقل، أو بأىِّ قلبٍ يجـدُّون معى؟ وإنه لا عِـوَضَ منهم فى الثِّقـةِ للحصـون وإن زنَاتة هؤلاء المُتَأصِّلين لا ثِقَة فيهم للمدينةِ الفُـوَقى ولا للحصون، أكثر من خدمة الجُندية، لا يَعدَمُ مـنهم أحدٌ، فأنا جـديرٌ أن أُشركَ مَن ضَعَفُ من صِنهـاجَة بهؤلاء الأقوياء الذين أدْرَكَتْهم العناية ويُمسك واحدٌ منهم إنزال خمسة فُرْسانٍ وسِـتَّـة، ثمَّ من قنع بمـا بيـده بَقىَ، ومن لم يُرِدْ، لم نعـدَم منه العِـوَض!»

ففعلتُ ذلك، وأشركْتُهم، وكان فى هذا كلِّه تَحْرِيكٌ لِلشرِّ والقال:

إذا لم يكنْ عَوْنٌ من الله للفتى
فأكْـثَر ما يجنَـى عليه اجتـهادُهُ

فلمَّا رأى كبارُ زنَاتة ذلك، قلقوا، وساءَت ظُنونُهم، فكُنتُ، متى دعوتُهم

إلى خِدْمةِ نَجِـدُهم عنها عاجزين: من أشرك ومن لم يُشْرِك، فـامتحنتُ على ذلك، فقيل لى: «إن كِبارَهم يفسدون صغارَهم! ولو أنك تخرج وغوغائهم[1] من البلدة، لصَلُح لك سائرُهم!».

فأمَرْتُ بإخـراج ثلاثة أنفس ممَّن يتهم منهم، وكان المـأمورَ بذلك لَبيبٌ الخصىُّ، صاحبُ المدينة ذلك الوقتَ، وثقناه لتربيتنا له، وكان فى المجلس أقوام يحسدُهم ويتهمُهم على نفسه أن ينقلوا طريـقتَه السيئة، فأصاب الفُرْصة للخراب، وأرسل من قِبَلِه إلى أولئك المُخرجـين، وإلى من سِواهم من بنى عمِّهم، يـقول لهم: «إن الطلَّبَ قد وقَع فيكم من مَـجْلِس السلطان، وأُمِرْتُ بإخراجِكم، فلا توهنوا، واجـتهدوا فى التعصُّب عليـه وتَرْويعِهِ! وأنَا مَعكم! فإنه، إذا رأى جماعتَكم، رجع إلى قَـوْلِكم!» فلم يكن إلا بعد الأمر بساعةٍ، وإذا بجماعـة الجند قد أقبلوا إلى باب المدينة يقولون: «إمَّـا أن يَرُد شِرْكَتَنا، وإمَّا فالكلُّ راحلون عنه، مُـنْتَقلون إلى غيره!» وأتى الفاسقُ لَبـيبٌ وأصحابُه المُتَّفقون معه، يقيم حُجَّتَهم، ويُعضد قولَهم، ويخوِّف منهم، فمَيزت الأمْرَ، وعَلمتُ أن هذه جَعجَةٌ لا يُرجَع فيـها إلاَّ إلى رأى، فأظهرتُ الشِّدَّة، وقلتُ: «لستُ براجع عمّا أبرمْتُ، فـتكون نفوسُ الذين أشركتُ معـهم مُنْصرِفة إلى مثل نفوسهم! فمن شاء، فليمُرَّ، ومن شاء فليبق!» فلمَّا سمعوا بذلك، خرج الكلُّ.

ومـؤمل، فى هذا كله، على اتفـاق مع لبـيب، يدخل فى رءُوس الجند ويقولون لهم: «إنَّ هذا من قِـبَل غيرنا، ونَحن أبرياء!» ويرونهم الشـفقة من الأمر والطَّعن علىّ، وَصحَّ ذلك عندى مع طائفـةٍ من شيوخ العبيـد أصحاب

(١) فى المطبوع: «غَوْغَتهم».

مُؤَمَّل، وعملت حساب زناتة أنهم لا يزولون بالكل، وأن ذلك ترهيب، وأن الرجوع عمَّا أمرتُ به يضربهم إلى غير ذلك مما يُخلُّ بالرأى ويكوِّن لهم الصولة والحماقة فى المعصية، وأن انقيادَهم للأمر واستعذارهم بعده أشبَهُ، وللحُجَّة عليهم أعزُّ وأبهى.

فلمَّا كان يومٌ آخرُ، خرجتُ بنفسى إلى عَرْضِهم كَىْ لا يُبَطِّن علىَّ من تقدَّم ذكْرهُ، فأمرت بالبريح عليهم وإحضار الزمام، لنعلم من صحَّ مُضيه وقعوده فوجدتُ الكلَّ مجتمعين، قد انصرفوا متقطعين ليلاً، لم يغبْ منهم أحد فوق الثلاثة الذين أمرت بإخراجهم، وجعلوا يعتذرون ويتنصلون، فقلتُ: «الله أكبر! هذا أشبَهُ والِيقُ بالمملكة!» ورأيت مؤملاً ولَبيبًا وغيرَهما قد عزَّت عليهم طاعتهم مُؤملين أن لو كانت طامَّة لا ترفع:

والعَين تبصر فى عينى مُحَدِّثها
إن كان من حِزبِها أو مِن أعاديهَا

٦٣- انقلاب مؤمل وثورته فى لوشة(١):

ولمَّا قرَّ أمرُهم قرارَه، جاء مؤمل فى إثر ذلك يقول: «إن هذا الانطباعَ منهم ليس لرَغبةٍ فى البقاء معك! غير أنهمُ يُدَارونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم، ويتزوَّدُوا به! فلا فائد تُنْزِل عليه غيرَهم، ولا رجالٌ بقوا معك؟» وكنتُ إذ ذاك ناظراً منه بعيْن الثقة؟ فعمل قوله فى نفسى، وقلتُ: «لا يَخلو هذا القولُ عن وجْهَين: «إما قد اطَّلَع على ذلك منهم، فهى نصيحة، أو لم يطلعْ، فهو بغائلَته لا يَدَعهم، ويدخل هذا فى رءُوسهم، وتكون علىَّ فى

(١) لوشة: بالأندلس من أقاليم البيرة، وبها جبل فيه غار يصعد إليه (الروض المعطار).

ذلك الخسارة، وإن احتجتُ إلى العِوَض، لم يكن لى على ما نُنْزِلُه ولا فى بيت المال الكفاية لِمَا نحن بسبيله من النفقات على سائر الأمم!» فلم يأتنى من هذه الكلمَة نعاس، وأمرتُ بإخراج كلِّ من فى رأسه حماقةٌ فبلغ عِدتُهم نحو المائة فارس، فخرجوا عن المدينة، وتصفّتْ، ولم يَبْقَ فيها إلا مَنْ ينطاع لكلِّ أمر.

وعَملَ فى نفسى فِعْلُ لَبِيب وشيوخِ العَبِيد، وصحَّ عندى منهم وفيهم أنَّهم عَوَّجُوا زَنَاتَةَ، وكانوا أشدَّ علىَّ من كلِّ أحَد، وجعل زَنَاتَةُ يَذْكُرون ذلك، ويقولون وقتَ اعتذارهم: لا ذنب لنا! إنَّمَا نَحْنُ جُنْدٌ، ولولا ثِقاتُه وعَبِيدُه الذين حملونا على ذلك، لم نجترم عليه!» وجَعلُوهم فى وقت قيامهم يمشون على الأسواق، ويأمرون الناس بالقيام، ويقولون لهم: «لم نَدْفَعْ نَحْنُ، إلا وهو يُريد إدخالَ النصارى!» فلم يلتَفِت الناسُ إلى قولهم، إذ لم يروا ذلك من ثِقات الدولة وصِنهاجة.

ولمَّا أُخْرِجَ زَنَاتَةُ، أمرتُ بعد ذلك بإخراج اثنَيْن من شيوخ العَبِيد الذين صحَّ عندى إشعالُهم لهذه القضيَّة، وثَقِفْتُ لَبِيبًا، فوافَقَ إخراجُهُمْ ومؤمَّلٌ خارجَ المدينة، فلحقوا به، وقالوا له: «قد أخْرَجَنا! وغدا بِكَ هكَذَا! فانظُرْ لنفسك!» فخَرَجَ معهم من فوْره ذلك، قاصِداً إلى لَوْشة، مع مَن اتفق معه مِثل ابن البَرَّاء الكاتب وغَيْره.

وكانت هذه تِفقَةً قَدِيمةً بَيْنهم مع بنى مالك عُمَّالِ لَوْشة، أنه، متى دهمهم أمرٌ، لَجَئُوا إليها، فنهضوا من فَوْرِهم ذلك قاصدين إلى لَوْشة، ولحقوا بها ليلاً، ودخل المدينةَ، ولم يمنعه أحَدٌ لمكانته مِنَّا، وحسب القائدُ

ومن فيها أنَّه رَسولٌ، فصار فى قَصَبَتِهَا، وجمع الجُنْدُ والرعيَّةَ، وصرخَ فيهم بالبُكاء، وافتعل الكذب، وقال لهم: «لم أخرُجْ من غرناطة إلا كما تَرَوْنَ: «بطَوْقى على عُنُقِى!» وتركتُ فيها النصارى قد استحوَذوا عليها، وكُشِفَ عنّى! فاثبتوا معى ونُوَجّهُ إلى كلِّ سلطان: فمن أجابنا، اعتَضَدْنا به!» وخاطَبَ بذلك حُصُونَ الغَرْب، يأمُرُهم بالخلاف، وأرسل إلى زنَاتَةَ المُخْرَجين، ليكونوا معه مُضيِّقِين على غرناطة.

وإنَّ أهْلَ الجِهَة مع أهل الحصون، لمَّا سمعوا ذلك دبَّرُوا رأيَهم وأرسل كلُّ حِصْنٍ من كبارهم إلى الحَضْرة مَنْ يَطَّلِعُ صُورةَ الأمر، فإن وَجَد خِلافَ قوله، لم يُخربوا وجوهَهم معنا، وإن ألفَوْه حقًا، نظروا لأنفسهم، فأتونى أفواجًا مُعَزِّين ومُهنِّئِينَ على السلامة من النصارى، ومُستَفْهِمِينَ جليَّةَ الحال، فأخبرتُهم بالأمر على وَجْهه، ولم يروا شيئًا مِمَّا ذكر مؤمَّلٌ، فطَابت أنفسُهم، وعلِموا أنَّه مُخالفٌ مُنافِقٌ، فبادَرَ الكلُّ إلى مُنازَلَتِه، وسألونى عَسْكَرَ الحضرة.

وكُنتُ، لما صَحَّ نفاقُهم بلَوْشة، قد أبْلَيْتُ لهم عُذرًا، وأرسلتُ إليهم كُتُبًا ورُسُلاً تؤمِّنُهم ممَّا خافوا، وتُحَذِّرُهم قبيحَ العاقِبة فى إيثار الفتنة، وأنِّى مُطلِقُ إليهم أهاليهم، ويخرُجُون عن الحصون حيث شَاءُوا بأمانٍ ووثائقَ، وهم فى هذا كلِّه، لا يزيدون إلاَّ طغيانًا وتهَدُّدًا، بانِين على الشرِّ، طالبين للثأر بلا ثأر، فلما يئستُ منهم، مع اتِّفاق الحصون عليهم، أرسلتُ بالعسكر، وقوَّدتُ عليهم يُوسُفَ بن حَجَّاج، سنذكُر وَجْهَ مُصاهَرته لنا بعد هذا، فنهض، فلم يكن إلا ساعة وصولِه، وجَزِعَ مَنْ معه فى القَصبة،

وخلَتْ عليهم، ودخلها العسكرُ، وأُسِرَ فيها هو وكلٌّ من معه، وأتانا من ذلك فَتحٌ عظِيمٌ.

وأمَرْنا بثقافها وسوقان الأسرَى، وثقفناهم مُسْتَفْتين فى أمرهم، فأفتت السُّنَّة أنَّ قَتْلَهم غير جائز إذ كان نفارُهم جزْعًا، على أنَّهُمْ كانت لهم سَعَةٌ فى الأرض غَيْر لَوْشَة، وإنَّما أرادوا الفسادَ فى الأرض، وآخرونَ يقولون بقتلهِم، فآثرت الأليق والأبعد من الآثام، وأنَّ ذلك لا يفوت، ومن أخلاق الكِرام التأنى والعَفْوُ عند المقدرة، فأوْجَبَت السياسة تثقيفَهم والشدَّة عليهم، لئلاً تكون طرقةً لغيرهم، وهو بابٌ فَتْحُهُ على الدولة من أضَرِّ الأشياء، فلا غَفْلَةَ لملكٍ يَقْظَانَ فيه.

وخاطَبوا، مُدَّةَ كَوْنهم بلوشة، كلَّ رئيس بالأندلس، حتَّى صاحب مالَقة، فلم يُجِبْهم أحَدٌ، فلما يَئِسَ مُؤَمِّلٌ منهم، أرسَلَ إلى أمير المسلمين، يُزَوِّرُ[1] عنده الأمر كله، ويكذب، ويقول له: «لم نؤتَ إلاَّ من إنكارى أمرَ النصارى، والقيام بدعوتك» حُجَّةً لا تقوم على ساق، وكان العَسْكَرُ إليها مُقْبِلاً مع نُعْمان، فانصرف لمَّا عُلِمَ بأخْذِها.

٦٤- وصف الثائر نعمان وسيرته ضد عبد الله:

وكان نُعْمانُ المذكور ممن فَعَلْنا معه جميلاً، وأحسنَّا إليه لحرمة القرابة والانقطاع إلينا من المُرابطين، وزال عنَّا بعد إعماله الدواخل علينا فى حصوننا الغربية، وعَقْدِه مع أهلها أن يصيروا فى طاعة المُرابطين متى دُعُوا، وكان له بتلك الجهة إنزالٌ، فتمكَّن من القُرْب والعَمَل بذلك، وخرج عنَّا بَسراحٍ ادَّعَى من أجلِه أنَّ بالعِدْوَة ميراثًا ومالاً يُريد اقتضاءه، فأبَحْنا له

(١) فى المطبوع: «بزَوِّرُ» بالباء فى أوله، ولا وجه له.

النهـوضَ، وإذا به يَسْـعَى علينا، وقـال للأمـيـر: «نُفِيـتُ من البَلَد من أجْل نصيحتى لك ومَحَبَّتى فى دولتك!» أمرٌ لم يكن منه حَرْفٌ، حتَّى إنَّ أطواقى، إن تكلمَتْ، لسعَتْ علىَّ، لـلقَدَر الذى شاءَهُ الله، عسى لعـاقبةٍ محـمودةٍ إن شاء الله.

فعَملتْ هذه المعانى كلُّها فى نفس أمـير المسلمين، مع ما صُوِّرَتُ عنده بكثرة الأمـوال المكذوب عليها والمُتَّـفَقَةِ فى طاعتـه والجهاد معـه لو بَقِيَت الحال.

٦٥- مسألة زواج الأميرتين أختى عبد الله:

وإنَّا فى تلك الـفـتـرة، رأينا من الصــلاح النظرَ لمن مَـعَنَـا من البَنَات وتَزْوِيجَهُنَّ قَبْل أن يفجأ أمْرٌ، فيكُنَّ على غير عِصْمةٍ ولا كفيل، فتخيَّرنا لهُمَا من بنى عـمِّهمـا شاكِلةً، منهم مَـعَدُّ بن يَعْلَى، للذى كـان عليه من النـجابة والعقل والمَحَبَّـة، فصَدَّنا عن ذلك أهْلُ دولتنا، وقالوا نصيـحة وحَسَدًا: «إن أنت تصاهَرْتَ إلى بنى عمِّك، حَمَلَتْهم دالَّةُ القرابة مع المُصاهرَة على الظهور عليك وفساد حالك بصلاحهم، فإيَّاك! وعليك بمَنْ هو دون قِيمَتك، فيُراعى إحسانَك، ويَرَى هذا منك كثيرًا، ويَرَى عياله بعَيْن مَوْلاة، وإن هو تحرَّك إلى شيء قعدَتْ به دقَّة شأنه، فلا أتبـاعٌ يهاودونه» فقبلنا ذلك حذرًا على الدولة، وقُلْنا: «من صَلُحَ من قرابتنا، نُدْرِك فعل الخير فيه دون مُصاهَرةٍ تُطْغيه!».

وكـان من بعض خَـدَمتنا مَـنْ حَضَّنا على يـوسف بن حَجَّـاج، لعِلْمـه بأخلاقه مدَّة صـحبته له، ووَصَفَه بصِفَات ظاهِرُها يشـبه المشاكلة، وذلك أنَّه قال: «فى الرجل انقـباضٌ واستِيـحاشٌ من الناس، وبذلك تأمَن من إجمـاعه

obeikandi.com

عليك، وفيه شُحٌّ كثيرٌ، لا يُخرِج خَيْرَهُ من منزله، وفيه غيرةٌ شديدةٌ تُوَافِقُ مُعاشَرَةَ العيال، وبه حَرَج ونَزَقٌ، لا تَصِحُّ به ولاية، وهو من نقصان البيان وعيٌّ اللسان ما لا يطّبى بذلك الناس لتألُّب، إن شاءه عليك، ولا نقض لفعلك أو مَقالك والرجلُ من أوساط الناس ومِمَّن لا ينتمى إلى مَلِكٍ، ولا تُحدِّثه نفسُه بما لا أَصْلَ له فيه، فهو بين يديك كالكمأة التى إن شِئتَ قَلَعْتَها، لم تتعذَّر عليك من أصلِها، أو كالصَّمْغة، إن شئتَ فرَّغْتَها، ظَهَرت، وكانت لك المنَّة والخيار! والآخَرُ هو تَرْبِيَتُك ونشأتُك، وابنُ وزير جدِّك، وله من بُعْد الهِمَّة وكَرَمِ النفس وحُسْنِ السمت والوقار على حال الحداثة ما تُرْجَى بَرَكَتُهُ، وليس بمُنْقِذٍ قدرُه، وإن أنهضتَه إلى أمرٍ، جدَّ فيه، وأنت آمنٌ من سوء العاقبة، وإنما هو بمنزلة من أنهض ابنَه إلى دَرَجة تُقِرُّ عَيْنَه، والأَوْلَى أن يدعُوك صِهرُك «مَولاى» من أن يكون لك مِثلاً، فتشقى أنت ونَحْنُ، إذ الغمدُ لا يحتمل سَيْفَيْن، ولا ندرى مَن السلطانُ فيكم، إلاَّ مَنْ ارتَضَيْتَهُ وقدمتَه».

فعقدتُ لهما النكاحَ على أتَمِّ ما يمكن، واستعددتُ فى سائر أمْرى بالأحزَم، ووَكّلْتُ ذلك إلى الأقدار، وقلتُ: «هذا جُهْدُ الاستطاعة، ودون جُهْدِك لا تُلام، ولله أن يقضى بما شاء!».

ولَمَّا صار وَلَدُ حَجَّاج بتلك المنزلة، شَرِهَتْ نفسُه إلى وزارة الدولة، مَقْطَع من لم يميِّز المذهب، ولم نكن بعد وزارة سِمَاجَة نستعمل لذلك أحدًا، فكأنه وقع فى نفسه التقصيرُ به، جهالةٌ من الإنسان بقدره له مُهْلِكَة، وتَركِهِ صيانَةَ قدره له فاضِحةٍ.

٦٦- حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله:

وكان أهلُ دولتنا على مَـذْهب جهالة فى هذه الأمـور: إنَّ كلَّ أحَدٍ منهم يُريد أن يعـمل برأيه، وأن تجرى الأمـورُ على هواه، فإن لم يتَّـفِقْ ذلك له، صار فى حـيِّز الأعداء، ولو كان علـى مرغوبـهم، ما اتفـق لرئيس عَمـلٌ، ولا تَمَّ له شىءٌ، وكانوا قَـبْلَ أيَّامنا قد شغلهم الخَوْفُ من صـولة رؤَسائـهم: ما كانوا يَرَوْنَ السلامةَ غَـنِيمـةً، ولـما تَـمَّ لهـم فى أيَّامنا الأمنُ، وأنسيتهُـم ما مضى، أدركَهم الأشَر والبَطَر، إلى أن تطمح أنفُسُهم لغير ذلك، وكُنَّا نَحْنُ نَظُنُّ أن بالأمن نسلم من اللائمة والعـداوة، وخانَنَا القياس، وكـذلك العاقِلُ المُتـمَرِّن لا يَجِب له أن يظُنَّ بالناس ظَنَّه بنفسـه، ولا يعمل حسـابَه وَحده، فليس كلُّ الـنَّاس على مَـذْهَبك، ولا هواه مُطابِـقٌ لهـواك! ولا مـحـالة أن باختلاف الأهواء تَقَع العداوات، وباتِّفاقنا تكون المُصاحَبة وحُسْن المُعاشرة، وأصـدق الناس لك مَنْ يكابدُ مـعك، ودهاه مثْل الذى دهاك، وإن كـان من الأباعِد، فلا تستريح إلا إليه، ولا تشْكُ هَمكَ مع من لم يعْنِه ما عَنَاكَ: فإمَّا سَاهٍ عن حَدِيثك، وقد أكْـثَرت عليه، وإمَّا مُخَالِفٌ لمَذهبك، قـد استهْدفتَ إلى عَدواته، وأحْدَثْتَ فى نفسه ما كنت غنيًا عنه.

هذا طبع البَشَرِيَّة: فلا تسمع ممَّن يُريكَ التحقيق بكلامه، فإنَّ الحقَّ ثقيلٌ على النفوس، والباطلَ إليـها أسرع، وعليها أخَفُّ، ولَمَّـا علم الشيطان حِيَلَ الإنسان، لمَـجْراه منه بمنزلة الدَّم[١]، أتاه من قِبَلِ هواه، ولا سـبيلَ أن تَلقى أحدًا عَديمَ العَقْل: كلٌّ قد أخَذَ من التجرِبة حصتَّه، وحاز اختياره، وعَرْضُك عليه ما يَبْدو إليْكَ عـجزٌ وكلفةٌ: فإن كان ريِّضًا، فهـو بشأنه أبصر، ولعلَّ له

(١) فى المطبوع: «الذم» بالذال، ولا وجه له.

عذراً، وأنت تلوم، فتُولِد عليه انقباضًا منك وتَحَفُّظًا لئَلا يُريك الخِلاف حتى يأتى بما اعتـزم عليه، وإن ألفيْتَهُ جاهلاً، فـمن العناء رياضةُ الهَرِم، لم تَزِدْه أكثَرَ من نَقْله عن ودِّه، ولا يَنْتَقِل عن طَبْعه.

كَيْفَمَا رَوَّيْتُ فى الأمر، أجِدُه جَهْلاً من فاعِله وكُلْفةً، إذ لا تأديبَ يجمل بالمُعَلِّم ولا المُـتَعَلِّم، اللَّهُمَّ إلاَّ من شُوورَ فى أمْرٍ، فعليـه أن يعطى ما عنده من غير إلحاح، ولا يتمـرَّن فى انتظار طاعة، فيكون الناصح، إن سُمِعَ منه، تمادَى على صداقته وخُولِفَ فى غِشٍّ، فما قام خَيْرُكَ، يا زَمان، بِشَرِّكَ!.

لو أنّى أعلَم أنَّ بخـلاف يَسيرِ عـلى القائل يُنْتَـقَل إلى حيِّز الـعداوة، لم أُشاوِرْهُ فى أمـر أبدًا: وأكونُ قبْل مُشـاوَرَته مخاطِرًا حَـذرًا الذى نَخشى منه، أشَدَّ علىَّ من عاقِبـة الأمر المعروض عليه، فالعاقِلُ يـقيسُ على هذه المعانى ويحرز بها صديقَه، فرُبَّ عداوة تتولد بأرَقِّ سَبَب، أو عداوةٍ تعود إلى مُودَّة، عند الحـاجة إلى التـعاوُن أو الانخـراط فى سلكٍ واحدٍ من عـارض يعمٌّ أو مَرْغوبٍ يُرَامُ؟ تكون الحاجة فيه سَوَاءً.

ولا خَيْرَ فى عَـقْل لا يتصرف تارات، والمَذْهَبُ السَّـرْمَدىُّ راكِبٌ طريقةَ الجَهْل، واقِعٌ فى الورطات، ومن الحقِّ ما يسمج، فـلا تقوم حلاوتُه وفرضُه بما يعقب من المَشَقَّـة، والعاقِلُ يتخيَّر الأمور، فيتَـجنَّب معسورَها، ويتَوَخّى مَيْسُورَها.

٦٧- رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختى المؤلف:

وللقائِل، إنْ يحْـتجَّ على هذا النِّكاح: ما الذى أُرِيدَ به؟ إن كُنَّا غـالبين، فقد استغنينا عنه، وإن كُنَّا مغلوبين، لم يَفِـدْ ذلك! يعترض هذا بعد تِبْيان ما وقع!.

وإنَّما أردنا اكتساب الحَسَنَة مع السِّتر، وإنَّه، متى عرض عارضٌ، كان البعلُ مُكْتَفِيًا بامرأته، يُقَلِّعها إذا أحْوَجَ ما تكون فيه عند ذلك، وتكون لنا منهم عُدَّة، ويُقِلُّ طمعُ كلٍّ من يَشْرَهُ إلى خِطْبَتهما، فقد كان كثيرٌ من سلاطين الأندلُس رَامَ ذلك، وتوقّعنا العاقبة إن فَعَلنا: تنشّبنا فيما لا مَرَدَّ فيه، ولا يُنفَكُّ عنه إلاَّ بالأموال الجسيمة التى هى أوْلى بالبَذْل فى إقامة أود المملكة وما كُنَّا بسبيله من الجهاد، وإن أبَيْنا، وقع الخِلافُ والحِقْدُ من الطالب، بحيث لا يوافق، على أنه لم نحسب حسابَ ما جَرَى، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ (الأعراف: ١٨٨) وكان زمانًا لم نحسب فيه حسابَ خَيْر خرجَ منه مثقالُ ذرَّةٍ، ولا قِسْنا على شيء من الشرِّ إلا ولم نبلغ مِعْشَارَ ما يكون منه، بل يدهى منه أمَرُّهُ وأفظَعُهُ.

ولقد قال المُطالِبون: إنَّ أمير المسلمين كان أَحَقَّ بها، وإنما فَعَلْنا ذلك فراراً منه، وهذا من المُحَال أن يكون أحَدٌ يتبعَّد الشَّرَفَ، ويُدْعَى إلى ما فيه حَيَاتُهُ، فيأباهُ! ولو أنَّنى أشعر بشيء من ذلك، ونَرَى أنَّ المَذْهَبَ فى هذا، لكنْتُ أشدَّ الناس اغتباطًا بالأمر، وإليه مُسارَعةً، وعليه حرصًا.

ولم يكن مَنْ أَلَحَّ فى ذلك أكثر من المُعْتَصِم - رحمه الله - فبادَرْتُ إلى ما تقدَّم ذِكْرُه، خَوفًا من كلِّ ما ذكَرْناهُ، وإنه، لـمَّا تواتَرَت على أمير المسلمين هذه الأنباءُ، وصُوِّرَتْ عنده على غير ما هى، عَمِلَتْ فى نفسه.

وانقطع رَجاءُ مؤمِّل بِلَوْشة من أن يجيبَه سلطانٌ من الأندلس، وعند ذلك، خاطَبَ أميرَ المسلمين، فلم يَصِل الخطاب، وهَيَّأ العسكر إليها مع نعمان، حتَّى انقضى خبَرُها، على ما وَصَفْناه.

٦٨- تدخل عبد الله فى مسألة مرسية وغضب المعتمد:

واعتَقَدَ المُعْتَمِدُ دُخولَ النصارى بَلَده ومُحاشاتَهم لِجهَاتى، مع ما كان فى نفسه من أمر مُرْسِيَة، فإنَّ ابن رَشيق قال لى مشافَهةً، ونحنُ على لِيِّط: «أُريدُ أن أكون صَنيعك وأدخُلَ فى جُملتك» وقال لى رَسُولُه بعد ثقافه: «لو أنك تقبل مَنْ تخلف فيها، لأقامَ الخُطْبَةَ باسمِك، وكانت فى طَاعَتك! تَجِدُهُ ويجِدُك! فأَبَيْتُ هذا القول جُمْلةً، وقلتُ فى نفسى: «هذه نَصْبَةٌ لم يكَدْ أصحابُنا يتخلصون منها إلاَّ بَعْد المرام الشديد والكدِّ العظيم! رُدَّ منهم هذه المشقَّات! فلا يعترِضها هذا الوَقت إلا جاهِلٌ بالزَّمان! وليت لو سَلِمْنا من هذا كلِّه! وإنه مَنْ أَمَّلَ أن يُبقى بَلَده، فقد شرِهَ إلى كثير، فكيف لفُضُول العَمَل الذى كنتُ أرَى وأُميِّزُ؟.

ولمّا قامت علينا اليُسَّانَة، على ما قدَّمنا ذِكْرَه، كان ابن الأحْمَر يُداخلُها، ويَعِدُهُم ويامُرُهم بالتثبُّت، حتَّى تبدو إليهم الأحوال، وَيبلُغُنى من ذلك ما يُقْلِقُ، فأردتُّ بعض المكافأة على ذلك، وأن نُوَجِّهَ إلى مُرْسِيَة مَن يعقد ما ابتدأنى به رَسولُهم ابنُ يكُّون، المُتصَرِّف فى خِدْمَتِهِم، ويقول لهم أن يُبيِّنُوا كيف يريدون مُحاولة هذا الأمر: إن أرادوا القيام بدعوتنا لمُلِمَّة متى كانت، نغيثهم فيها بأموالنا ورجالنا، وما فائدةُ ذلك وثمرته فيما نَشْتَرِط نحن به؟.

ولمّا توجَّه مِن ثقاتنا لذلك مَنْ أنفَذْناهُ، اعتقَدَها المُعْتَمِدُ فى نفسه، على أنّنا لم نكنْ نغرم على ذلك أبداً أكثر من طلب التَّعلاَّت عليه آخرَ ذلك بأن نسمع منه ما لا يوافق، فينتقض العمَل بسبَبه، أو تُوقَف الحالُ إلى أمد مّا، كالذى يَقَعُ بين الملوك من المُداخلات والأعمال: فمنْها ما لا يتمُّ، أو يتمادَى إلى حين.

٦٩- إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبتة من قِبَلِ عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها:

وإنَّ أمير المسلمين، لما أتى سَبتَةَ، وهو قد أحشد وأعدَّ، قاصداً إلى جهتَنا، لا يريدُ غَيْرها، أرسَلْنا إليه رُسُلاً مقدَّمةً، بعد عِتاب كبير جرى بيننا وبَيْن المُعْتمِد على خبر مرسِيَة، لم يَرِدْ به مفاسدة أكثر مما وصفناه.

وحانَ وصول أمير المسلمين إلى سبتة، وقدم رُسُلُنا عليه، وهم: ابنُ سَهْل القاضى، المتقدِّمُ ذِكره، المُستَعْمَلُ للعملة الموصوفة، وباديسُ بن وَاروِى من تَلكاتَة، يهنُّونه على سلامته ويتلَقَّوْن بالرَّحب قدومَه ومُسارَعَتَنا إلى ما يذهب إليه فى جهادِه، وما أشبه ذلك.

فانصرف الرسولان المذكوران، يعلمانى أن أمير المسلمين قابِلٌ لكلِّ ما ذَكرْناه، قد أعْرَضَ عليهما من الجميل ولطيف القول ما لا شك فى مَحَبته، فسرَّنا ذلك، وكان فيما قال لهم: «يصنع ما شاء! لستُ ممن يكلِّف أحدًا إلا طاقَتَه!» فكان ذلك منه دهاءً وحِذْقًا، مع ما نُبِّه عليه قَبْلُ، من قِبَل ابن سَهْل بالمُخاطبة وغَيْرِه، أن نفارَنا عنه إنما كان من خشونة الكُتْبة الواردة من عنده، وأن المُدارةَ بالقول أَوْلَى، حتى يُظْهِر ما شاءَ ويمهِّد لعَمَله بذلك.

وإنَّ ابن سَهْل، لما رأى من خِلاف الجُنْد، واطلع عليه من أنفُس أهل البَلَد ما اطلع، قدَّم لنفسه، ورأى الا يُخلِّى من عَمَل يقَرِّبه فيمن تقرَّب، وأعلَمه أنَّ البلدة ليس عليه فيها مُختلِف، ونفث ذلك باديسَ المذكورَ، وصحَّ عندى وقتَ انصرافها أنَّ ابنَ وَاروِى قال: «أرسَلْنا للخِدْمة له فى زعمه، ولم نَصْنَعْ غير أنِّى كَتَّفتُه، والقاضى ضرب عُنُقَه!» إلى أن وصل أمير المسلمين قُرْطُبَة.

Obeikandi.com

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

obeikandl.com

٦- استسلامه للسلطان المرابطى، سجنه ـ إخراجه من الاندلس ونفيه

٧٠-عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته إياه:

[وعند وصوله قُرْطُبَة] اجتمع [أمير المسلمين] بالمُعتَمِد، وسأله عمَّا لَهِجَ الناسُ به من مُداخلة الرومى، فشهد بذلك، للذى كان فى نفسه من كلِّ ما وصفناه، وأرسل أمير المسلمين إلينا كتابًا يقول فيه: «اقبَلْ إلينا، ولا تتأخَّر ساعةً واحِدةً!».

فرابَنى ذلك، وهو موضعُ الانقِباض، لِمَا تقدَّم من الطلَّب، وأنَّ بمَحْضَره جميعُ أعدائنا، وإلْحاحُهُ علينا فى الوصول، واعتذرْتُ إليه بتَوْجِيه رُسُل: أحَدُهما ولَدُ حَجَّاج، والآخر ابنُ ما شاءَ الله، فساعةَ وصولِهما، قَرَّعَهُما بكلِّ ما نُقِل إليه، وأمر بثقافهما فى الحديد على المقام، وقال لهما: «بالله! إنِّى غَزَوْتُه كما نَغْزو الفُونْشَ! والذى يقدر عليه، فَلْيَصْنَع!» وأتانى بعضُ الفُرْسان الناهِضين مع الرُّسل على أسوإ حالةٍ، مضروبين ملهوفين، أَطْلَقَهم قَرُورٌ لِيُعْلِمونى بالقِصَّة، ويقول: «بالله! انْ أطْلَقَهما الأميرُ حتَّى ينطلق مؤمَّلٌ وأصحابُه!» فدهمنى من هذا الأمر ما لا مَرْفع فيه ولا حيلة، ولا ظَنَنْتُه أن يجرى على هذه الرتبة.

وأرْسَلَ على المقام كُتُبًا إلى اليُسَّانة ـ فأوّل ما طاعَتْ له ـ وإلى جميع حصون الغَرْب، على يدى نُعْمان المذكور، الساعى فى مُداخَلَتِها قديمًا، وكان من كُتُبه إليهم: «أمّا بَعْدُ، فقد ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ

زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١) إن لم تُطَوِّعونا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة: ٢٧٩) وإنَّ خِطابَه لم يردْ على معقل منها إلاَّ وألقَى بيدِهِ، وقام أهلُه على إخراج قائدهم، حتَّى تناثَرَت المَعَاقِلُ كلُّها كانْتِثار العِقْد، إلى أن وصل الأمير إلى بَلِيلُّش، ومن امتنَعَ منها، قاتَلَتْهُ الرعيَّةُ معهم، حتَّى يلقى بيده.

فلم نَدْرِ ما نصنع «واتَّسع الخَرْقُ على الراقِع» وقلتُ: «لا طاقة لى بجميع أهل البلاد، إذ غدروا وخرجوا عن الطاعة! فَبِمَنْ نُمَسِّك الحَضْرة؟ ليس فيها خلقٌ من غير جِنسٍ ممَّن كان فى المَعَاقِل «ولا يتمكن للخِباء أن يَقفَ دونَ أوتاد!» ولا فى الأمر من مُداراةٍ ولا حيلةٍ مع الرَّجُلِ أكثَر من رَغْبته فى خَلْعنا! ولا ثَمَّ غَيْرُهُ يُسْنَد إليه، فَنَسْتَرِيحَ فيه من هذه الداهية العُظْمَى والطامَّة الكبرَى! ولا فى المُمْكِن أن نَوَجِّهَ إلى الرومىِّ، فيكون ذلك فساداً فى الدين، واستعجالا للمكْرُوه؟ وإن شعر بذلك أهْلُ حَضْرَتِنا، كانوا أوَّلَ من يقاتِلُنا قبل المُرابطين! ما دام السترُ بَيْنَنا وبَيْنَهم، فيكشفون لنا القِناع على بصيرة!» فما عَهِدْنا أيَّامًا وليالى كانت أفْجَعَ لقلوبنا، وأدْهَى لنفوسنا من تلك الأيام.

٧١- وصول الجيش المرابطى قبالة غرناطة:

وقدَّم أمير المسلمين عسكَرًا إلى غرناطة، ما دامَ مُحاوَلَتُهُ للحصون، يحرسونها من دخول عَسْكَر برَّانى، إلى أن يَرِدَ عليها بنفسه، وأرسل القوَّادُ إلينا أن نُبيحَ لهم القُوت والعلف بالمدينة، فأجَبْناهم، لئَلا يَقَع مِنَّا شىءٌ من الخِلاف، يتسبَّبُ به إلى ما هو أكثَرُ.

وأرسلتُ آخَرين من الفُقَهاء إلى أمير المسلمين بمال، ويُعْلِمونه أنِّى ابْنُهُ،

وغيرُ مُخالِفٍ عليه، والطاعةُ منّا له على مرغوبه، دون أن يحوج إلى هذا التعب كلّه، فأرسل إلينا الفقيهَ ابنَ سَعْدُون، يقولُ لنا: «لا طاعة ولا صُلْحَ إلا بالخروج إليه! وهذا أمانه: كِتابٌ بخطّ يَدِه، يتضمَّن الأمان فى النفس والأهل دون المال» فأيْقَنْتُ بالغَرَض، وكان فى آخر كتابه لنا: «إن كنتَ استوحشتَ من النزول إلينا، فتَخَيَّرْ من بلادك مَوْضِعًا تصيرُ فيه، ولْتكُنْ غير غَرْنَاطة، لنَرى فيها رأيَنا! عُدَّةٌ فاترةٌ لا تَتِمُّ!».

فرويّتُ هذا الأمر، وعَلِمْتُ أنّى بحال ومكان لا اختيارَ لى فيه، وأن المَذْهب فىَّ إلاَّ إلىَ مَعْقلاً، وأنه لا مَهرَبَ من بين يديه، فقُلتُ: «من السَّخْف يكون أن أقولَ: «قد اخترْتُ مَوضِعَ كذا!» فإن كان لها كارِهًا، لم ألبَث أن أُردَّ منه بتعلُّل وحُجَّة للقوىّ على الضعيف! وإن كان فى نفسه العِوَضُ، فَبِخُروجى إليه يُرْبى ما يَعْتَقِدُه من إحسان، ولا حيلة غير الخروج والتَّرامى عليه، فإن كان قد أجمل وقبل، فَلَهُ الفَضْلُ، وعلىَّ الشكرُ آخرَ الدَّهر، وإن كان قد غدر، كُنَّا واثِقين بالقَدَر، وأبْلَيْنا عند الله وعند الناس العذْرَا!».

٧٢- الحالة داخل حضرة غرناطة:

ولما التَفَتْنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحركاتِهم، اطلَعْنا على أُمورٍ دليلةٍ على الانتقال، مؤذنة بالزوال، وقسَّمناهم أصنافًا على القياس والرتبة، مع المُعايَنة لما عَمِىَ قَبْلُ، وإظهارِ ما خَفِىَ، إذ لا حَرَج ولا هيبة ولا صَوْلة تتقَى، أمَّا الجُنْدُ من البَرْبر، فكانوا مُغْتبِطين بهم، طامعين فى الزِّيادة على أيديهم للجِنْسية، واتفق رأيُهم على ألا يلقوه بحَجَرٍ، وقدَّموا كُتُبَهم بالطاعة، وراجَعَهم عليها، يَعِدُهم بأن يُبْقيهم فى أماكِنِهم على أفضل ما كانوا عليه، فمن كان منهم بالمدينة الفوقىَ، تقلَّعَ إلى السُّفْلَى بأهله وماله، وبقى هو

بنسْمَتِـه مُنْفردًا متأهبًا للشـرّ، إمّا بالخروج إليه من الطاعـة، أو بإسلامنا إليه والتبرُّؤ منا.

ومن كان من التجار وأهل البلد، فكانوا على نيَّة أنهم مع مَنْ سَبَقَ، ولا طاقـةَ لهم بالحرب، ولا هُمْ أهلُـهُ، وأكثـرُهم خرج من البلدة يقـول: «لأىِّ وَجْه تحتمل الحِصار؟ تاجِرٌ هُنا وصانعٌ كما فى غَيْرِها!» وأمّا الرعيَّة، فبَخٍ بَخٍ ذلك ما كـانت تبغى، طمـعًا منها فى الحُـرِّية، وأنها لا يُلْزِمـها غيـر الزكاة والعُشْر.

وأمّا الرَّقَّاصة من المَغَارِبة، الذين كـانوا عِماد الحضرة، وبهم كُنَّا نُمْسِك الحصون، فَـهمْ أول من طاع، وأعين مَنْ بالحضرة إليـهم يقولون: «ما الذى خـالفَ بنا عن صِنيع بـنى عمِّـنا؟» فلم نَجِـدْ فى صِنْفٍ منهـا راحـةً يُرْجَى معونتُها!.

وأمّا العَبـيد والصقَالبـة، فالعبيـدُ الأعْلاجُ، أوَّلُ من عصا، كـما ذَكرنا، بلَوْشـة، رَجَوْا أن يكونوا عـنده فى أعْلَى مرتبـة، ولم يفكروا فى عـاقِبـةِ أن يخطئـوا عنده، فيقـول: «ما نصـحوا مـولاهم رَبَّ الإحسان إليـهم! فكيف غيرُه؟» إلا أنَّ كل واحـد بشَهْوَته بين عينَيْـه، للذى شاءَه الله ـ لا راد لأمـرِه ولا مُعَقِّب لحكمِه!.

حتَّى الـخَدَم من النسـاءِ والخِصْيـان: كلٌّ طامعٌ فى إقـبال الدُّنيا عـليه، والخروجِ عن ثقاف القصر إلى راحة التسريح، والاستهتَارِ بالرجال، وما أشبه ذلك، فجَـعْفـرٌ الخصىُّ منهم ولَبـيبٌ كانا زَعِـيمَى المُداخَلَـة ورأسَ الفتك، يقولان: «نحن لا وَلَد لنا ولا تَلْـد! فعـلى أىِّ شـىء نـصبـر عـلى القتـال؟ وما عَسَى نطْمَع أن نَصِيرَ إليه: هل يجمل بنا سلطنة أو قيادةٌ أو قضاءٌ أو فِقهٌ؟

إنّما نحن بمنزلة العيال: من سَبَقَ استَمْتَعَ بنا، وكُنَّا عنده من جملة الفَيء، نَرْزُق كسائر الكَسْب، فلا نضيعَ! تعالوا بنا! نُقَدِّم لأنْفُسنا!» فوردت عليهم كُتُبُ أمير المسلمين بالإنزالات القويَّة، والمثاقيل، والمَراتب العالية، يَعِدهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامِهم لنا، حتى اتفقت من كلِّ جهة.

٧٣- لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم:

ولما اتَّسَقَ له ما أَمَّلَ، وعَلِمَ بما معه فى البلدة، بعد تَقْدِمة عَسكَرِه، كما ذَكَرنا، إلى فَحْص غَرْناطة، وكان أَهلُ البلد يتقلَّعون من المدينة إلى البادية، ويخرجون منها أفواجًا، رأينا إمارة الشرِّ وعلامة السوءِ، فإذا بأمير المسلمين فى أَثَر ذلك العسكر مُقْبِلاً إلى الحضرة، فهاج الناسُ وجزعوا، واتَّفَقَ رأيى، مع مَنْ نصحنى، أَنّ الخروجَ إليه أَوْلَى، والتزامى عليه أنجأُ من هذه النار الموقَدة، فلعَلَّهُ، إذا رأى براءتنا مما نقله العدوُّ، ولم يَجِدْ فى المدينة نصارى كما قيل، فلا بُدَّ له من وَجْهَين: إمَّا صَرْفُنا إلى أوْطانِنا، وإمَّا إخراجُنا، فَلَنْ نعدم جميلاً، إذ لم نُهِجْ عليه حَرْبًا، ولا أَتْعَبْناهُ فى أمرٍ.

وكَمْ عَسَا العَيْشُ فى هذه الدُّنْيا والنجاة بالنفس فى دار الدُّنْيا وتخليصُها من الأوزار فى الآخرة، لا يُبالِغ ذلك شىءٌ ولا يعدله! فاستَعْمَلْنا العَقْل الذى جعله الله أميرًا على كلِّ شىء، وكلُّ قُوَّةٍ لا يتأَنَّيها العَقْلُ ضُعْفٌ وسُكْرٌ، مع سوءِ العاقبة، ولا سيَّما أنّنا بحال لا بُدّ من إسخاط الرُّوم بإرْضاء المسلمين، أو إسخاط المسلمين بإرضاءِ الرُّوم! فالآن يَرِثُها المسلمون أوْلَى وأجْمَل للعاقبة، إذ هى نُشْبَةٌ لا مَلْجأ منها إلاَّ بما ذكرنا.

اللَّهُمَّ إنه لو امتَسكْنا فيها بنفقة الأموال، ولا يمكن استِبْدادٌ دون انتظار قوَّةٍ من النصارى، ثُمَّ أتَى الرومىُّ، فينحاش عَسْكَرُ المسلمين إلى الجزيرة أو

إلى قُرطبة، مـرتقبًا لما يكون منه، فيـقول لى الرُّومىُّ: «قد أقلَعْتُ عنك من أرادكَ هاتِ من الأموال ما نستَـحِقُّ من المكافأة!» فلو قلتُ له: «اترُك عَسْكراً معى، وابقَ أنتَ لئلاّ يُعاوِدَنا!» ما كان يفعل، ويخشى على عسكره البوارَ بين أهل البلدة والعسكر الخارج، ولو انصرف دون أن يترك قـوة، فساعة انصرافه وإقبال المُـرابطين، لم تَرْتَـفِدْ لهم ساعةٌ، وينقطع الرجاء عن مـعونة أخرى: فهناك النكال الأكبر، وصَحَّ لهم قتلنا بالكتاب والسنة.

ولو أن عند إقـبال الرُّومىِّ، يقـول لنا: «إن كنت تـتقى من المـرابطـين، ولا يمكننا السكنى معك من أجلهم، فتخل لنا عنها، وتصير إلى كل ما تحبُّه مع النجاة بنفسك وحَشَمك وذخـائرك، كالذى صنعت بحفيد ابن ذى النون، إذ عاوَضتُه بلـنسيةَ، وإلا، فلا استيطان لك عندنا، إذ لا تفـيدنا بالبلدة، وما يغنى خروجك إلينا وتركك لمـدينتك مطيةً للمُرابِطين، فـيدخل علينا الحزم منها» فلو أطعـنا، لارتكَبْنا من الأوزار والخروج عن الدين ما بـلغنا الله عليه والناس أجمعون، وكنَّا نـترك غرناطة حَبْسًا للرُّوم، يُضرُّون منهـا المسلمين، فلا دماء تسفَك منها، ولا داخلة تُدخَل إلا وكانت فى صَحَائِفنا، ولا خيْر فى أثرة الدُّنيا على الآخرة!.

ولو أن يتـربَّص المُرابِط عـند إقبـال الرُّومىِّ، ولا ينـحاش له، كـمـا وَصفْنا، ويبنى على لقـائه، فلو التَقَت الفِئَتان، فـلا بُدّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأُخـرَى، فلو أنها على الرُّومىِّ، ففـى إثر ذلك، لم يقدِّم على قَتْلنا شـيئًا بالحُـجة أننا أجلَبْناه، ولو أن الرُّومىَّ يغلب، فنبـقى بعد ذلك فى المُلك ما شـاءَ الله، لم يطِبْ لنا مُلك، ولاستحـينا من الله والناس أن يكون ذلك ببَوَارِ المسلمين وهلاكهم! ثمَّ إنه لا يصحُّ لنا ثبوتٌ معه، وأىُّ شىء كان

يحجره عنَّا، ولا شيء نرتجى به نزع أنفُسَنا منه، ولا بمن ننتصر لو هَمَّ بأخْذِ الكلّ.

كَيْفَما رَوَّيتُ فى هذه الوجوه، لا خيْرَ فيها لمن تَعَقَّبَ الأمر وتَدَبَّرَهُ، إلا ما صَنَعْناه مع حكمه الأقدار التى لا تجرى على إهمال! فخَرَجْنا إلى الرَّجُل، كأنَّما نُساق إلى الموت، لا نَدْرى ما نَلْقى، إلا كالخاطِرِ بنفسه، متوَكّلين على القَدَر.

٧٤- تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله:

ولمَّا لقيناهُ، سُرَّ بذلك، وأقسم لنا على الأمان فى أنفُسنا وأهْلنا، ولَنَا منه المُراعاة والكرامة ما بَقِيَ، ثُمَّ أشار على قرُور بالترقيب علينا، إلى أن يُثَبِّتَ خبرَنا، ويَقِفَ على أموالنا.

فانتدب [قَبْل ذلك] أهلُ دولتنا، يطلب كلٌّ واحِدٍ منهم أن نُودِعَ عنده شيئًا، فلم نَفعَلْ، وقلتُ فى نفسى: «هؤلاء يَطْلُبون ما يتزوَّدُونَ به، وليس ذلك شفقةً منهم علىّ! وليس نُخْلِي من دفع ذلك إليهم من وَجْهَيْن: إمَّا فاسِقٌ يستأثر به دونى، فتكون حسرتُها فى نفسى، ولا نَقَيْتُ بها عن وجهى، وإمَّا مُتَبَشِّل ببُعضِهِ، يحمله إلى الأمير ليتَهَنَّى به ما يبقى له، وعند ذلك نَفْتَضِح عنده، ولا يقبل لى صَرْفًا ولا عَدْلًا، وربَّما يحنق علىَّ، فيؤذِّينى بعد الأمان، مع حبِّهم فى المال، وإنه لا شىءَ نرجو به بعد الله التَقَرُّبَ إليهم إلا بالأموال، ولو أمكننى أن أزيدَ فيها، فتملأ أعْيُنُهم! وأنا لا أبتغى إلا العيش لخاصَّة نفسى وأهْلى، وقد خَفَّفَ الله عنِّى بقِلةِ العيال، ولا خير فى الغَرَر بمال لا أدرى إن بَقِيَ معى، مع اختلاطِه وكثرةِ شُبُهاتِه، وكثرة المال إنَّما

يحتــاج للمَمْلكة والأجناد، فالآن قــد أزاح الله ذلك عنى، ولم يَبْقَ إلا طَلبُ السلامة بحُشاشة النفس، وهى غنيمةٌ فى مِثْل هذا الوقت الحادّ!.

فخَرَجْتُ إلى الرَّجُل بعد ثقاف الـقَصْر، ولا خَوْفَ عليه ذلك الوَقْتَ، إذ كان الناسُ بَيْن يأس وطمع فى الرجوع، فلا جرأة من أحد فى اعتراض شىء من ساقَتِنا، ولمَّا أُنْزِلتُ بتولِّى قَرُور للأمر، جعل الحرَص على الخِباء، وأمر بطَرْد الداخل والخارج، وحِـيلَ بَيْننا وبين عبـيدنا وصنائعنا: كلٌّ يفـتِّش عليه ويُبْحَث على ما لَدَيْه من مال كسبه فى ولايَتِنا.

ثُمَّ أتانا الفـقيهُ ابنُ سَـعْدُون من عند أمـير المسلمـين، يقول: «أحـضِر الأموال والأزِمَّـة بها! فـإن مُؤملاً قـد أخبره أنه ليس عنـدهم درهم إلا بزمام وذِكْر» فقلتُ له: «نَعَم! كان ذلك، قد تَرَكْـتُه فى دارى، فإن أباح لى المسِيرَ بنفســى لاستخـراج الكُلِّ، وإلا، فهـذه أُمِّى، تتولَّى ذلك مع ثِقـاته حتى لا يغادِركم منه خيط!».

وكان، عند خـروجى، قد وقع فى نفسى من خـوف الثقاف ما خـشيتُ الفرقةَ منها إن تَرَكْتُها فى القَصْر، فـخرجتُ معها، ولم ألتفت إلى ما سِوَاها، وأنا مع ذلك فى حيرة لا أدرى لما يصيـر أمرى، قد أُشرب قلبى من الخوف والجزع مـا لم أعْهَـدْهُ قطُّ، ولا كان فيـه عزاء، فـإن الأمور التى ينبـغى لها الاستثباتُ والصبرُ ما كان من أمر دون أمر، وإن جلَّ خَطْبٌ، يُرْجى فى غيره الراحة، وبعض الشـرِّ أهوَنُ من بعض، وإنَّما هذه النصبـة لم يكن لها عزاء ولا استراحـة إلى أمَل ورجاء ليُسْر، إلا بحيث يُحـتَسَب، فأذهَلَنى ذلك عن كلٍّ ما لى فيه صلاحٌ من تَقْدِمَة النَّظَر فى مال أو غيره، بل، كانت نفسى آكَدَ

عليَّ، لم تعمل حساب مَنْ يعيش، لا سيَّما من لم تَجر عليه قبل ذلك محنة، ولا أكربه الدهر برزيّة، فجاءت جُملةً، أبهتتْ وخانت القياس، وحادَتْ عن سبيل المعهود.

وقد كان أرسل إليَّ قَرُور يطلُب خطَّ يدى بإسلام المدينة وإخراج من لى فيها من الحَشَم، فبادرتُ على المقام، إذ الالتواءُ عن ذلك ممَّا لا ينفع، ولو فعلتُ، لكان ذلك زيادة فى الهوان، ولم يَفِد شيئًا، وأنا قد حَصَلْتُ فى القبضة.

وكنتُ أخرَجْتُ مع نفسى أسبابًا منها سَفَطُ ذَهَبٍ فيه عشرة عُقود من أنفس الجَوْهَر، وذَهَبًا مَبْلَغهُ ستَّة عشر ألف دينار مُرابِطيّة، وخوَاتِمَ، وتأوَّلْتُ فى إخراجها معنى أن قُلْتُ: «إن كان الأمر يبدو من الأمير بثقاف، فهذه حاصِلةٌ لا تنفع، تُجعَلْ كَسِوَاهـا، وإن لم يكن، وربَّما تأخَّرَ فى الأمر بعد قضاء غزوته، داريْتُ منها وأعْدَدتُها لِمَا ينوب على العَسْكَر ومُتاحفة المُرابِطين».

ولم يُترك لنا خادمٌ إلا حِيلَ بيننا وبَينها، وفُتِّش عليهم ألا تكُنْ فى أوْسَاطِهم خبيئةٌ، وجعل قَرُور يقول لى ولأُمّى: «اكشفا لى عن ثيابكما، فقد أُخبِرَ السلطانُ أن خيرةَ الجَوْهَر على أوْسَاطِكُما» فَتَبرأنا له عن ذلك، ونزعتُ له عن الثياب، ثم جعل ينفض المخدات عن الصوف، ويفتش بينها، ويُقَلِّب التوابيت على وجوهها، ويحلُّ طى الثياب فَتْشًا لم يُعْهَد مِثْلُه قطُّ، ثم أمر بحفر الأرض التى عليها الخِباء، خَوفًا من أن ندفن فيه شيئًا، وهو فى ذلك كلّه يقول لى: «إن سلمتَ بروحك، فما فى الأرض أوْجَه منك».

وصار الكلُّ فيئًا من خادِمٍ وغُلامٍ، ما خَلاَنى وأُمِّى، وكنت وقت خروجى قد أخرَجْتُ مع أُمِّى صَبِيَّةً طمـعتُ أن أنجو بها، فلا يُوبَه لها، ألاَّ أنفرِدَ دون أحد من أهلى، لتكونَ لى عُـدَّةً لما بَعْد ذلك، فأتى قَرُور، وألقى يَدَه فـيها، وأخرَجَها، وفَتش ثيابَها على المـقام، وتحمَّلها، ثمَّ أتى إلى أثاث الخِباء كلِّه وفتَّشَه ظاهرًا وباطِنًا، فكلُّ ثوب أو حاجةٍ استَحْسَنَها، أخَذها لنفسه، وكاد أن يُعَـرِّينى من الكـلِّ، وأصـاب الدنانيـر المـذكـورة، فـقـال لى: «مـا أردتَ بإخراجها؟» قلتُ: «لأُتاحِفَ بها الأميـر!» فهدَّدنى وأدخلنى تحت وَعِيد، ثم أمر بانتقالها عن المقام، وأخـذ السَّفَطَ بما فيه من الجَوْهَر والخواتِم: هو من جِهـةٍ، ورَبِيبُـهُ من أُخْرَى، وأنا فى هذا كلِّه لا أرجـو شيـئًا إلاَّ السـلامة فى الروح، ولم نَشُكّ إلا أنه لا يكون بعد هذا إلا القتل.

ثمَّ إنه أمـر والِدَتى بالطلوع إلى القَـصْر لاسـتخـراج الأموال، فـتكدَّرْتُ لذلك أيَّامًا، ما منها يَوْم إلاَّ ونظُنُّ أنها لا ترجع إلىَّ، حتى دَفَعَتْ إليهم الكُلَّ بالأزِمَّة، لم يُغادِرْهم من ذلك قليلٌ ولا كـثيرٌ، حتى أن الحاجة اليـسيرة ربُّما كانت عندى فى الخِباء، فيُشَدِّدُ فيها على الوالدة، فتأتى عنها وتحملها إليهم.

ولـم يَتَـبَـيّنْ لى خِلاَفُ أهل بَلَـدى، إلاَّ والأمْرُ قـد فـات، من النظَر فى الزمامِ أو غَيْرِهِ، ولـم يتقدَّمْنى أحَـدٌ إلى مِثْل هذا، فنأخُذَ حِذْرى ونتأهبَ له، ولـم يكن إلا ما شـاء اللهُ، إذا أعطى، فلا مـانِع، كما أنه لا يتـهيَّـأُ، مع ما سُلِبَ وضاعَ، ثُبُوتٌ ولا بَقاءٌ، ولو رُفِعَ إلى أعنان السماء.

فلمَّا تَقَصَّوْا الجميعَ، وتبين الحقُّ، جاءَنى قَرُور بوصية السلطان، مع أبى بكر بن مُـسكَّن، وهو فى ذلك على مُنْتَـقِمٌ شانئٌ، وهو يقـول لى: «الأميـرُ

يُنْهِى إليك أن لا يَبْقى لك عند أحد وَديعةٌ، وإنَّ مـا فى قَصْرِك قد تنزَّلْتَ عنه بالأزِمّــةِ، وما فى خِـبائك قــد صار إلينا وفـتشْنَاهُ، وبَقِىَ لنا أن ندرى مــالَكَ مودُوعًــا، وإذًا، لا عَـهْـد بَيْننا وبيْـنك، إن خُـرِّج قِـبَلك دِرْهَمٌ عنـد أحـد، ولا تكون عقـبَاك فى ذلك إلا أن يجعلك فى الصَّحْـراء بحيث لا تربح ذلك المــال، ويبقى عند من أَوْدَعـته» فـرجعت إلى نفـسى أن نعلم لها عنـد أحد درهمًا وديعة، فلم أجِد، وأقسمت له على حق.

ورجعتُ إلى الوالِدة، أعِظُها، وأقول لهـا: «أسألُك بالله! الأَّ ما أشفَقْتِ علىّ؟ فرُبما قد أخـرجْتُنَّ شيئًا لا أعْلَمهُ، فيظهـر بعدى، ويكون فيه هلاكى، وهلاككِ والدُّنيـا أقلُّ من هذا كلِّه! والقومُ، كـما تَرَيْنَ، متـعلَّقون بشـعرةٍ، يطلقـون معنا أرَق سَـبَبٍ! فإياك أن تشـمتى بى! وإذا تبـرأنا له، لا يمكن له تَضْيِـيعُنا، وليس يُـدَّخرُ المال إلاَّ لثـلاث: سلطان يجور، أو فِـتْنةٌ تدوم، أو عُمْرٌ يطول، ونحن فى نفرٍ يسير!».

فلما سَمِعَتْ ذلك، بكَتْ وقالت: «نخشى أن نبقى فُقَراءَ! والموتُ أهْوَنُ من الفَـقْر!» فـسَهَّلْتُ عليـها الأمـر، وقَالت: «إن الله لا يُضـيع مَنْ خلَقَ!» فكتبت تسـميةً بمـا أَوْدَعَتْ من مَتَاعِـها، تلك الليلةَ التى حـان خروجى فى غَدِها: ذَكَـرَتْ أن لها عند لَذَّة خادمِ ابـن أبى خَيْثَـمَةَ كاتبنا سُـبَيْبـات لبعض جواريها، ولها عند ابن الزَّيتُونىِّ القَرَوىِّ أربعة آلاف مِثْقال، وحَلْيًا أرسَلَتْ فيه على المقام: نحو خمسة عشر عِقْدًا، فأما الحلى، فأتاها وأعطته لقرور، ولم تؤخِّر به ساعة، وأما الذهب، فإنها، لما جلبَتْه من ابن الزيتونىّ، بادرَ به إلى السلطان وتحمله لنفسه وكذلك فَعَلَتْ خـادمُ ابن أبى خَيْثَمَة، وأتت إلى قَرُور

obeikandi.com

بتلك الأسباب، فوقع إلينا الخبرُ، وزادنا ذلك همّا أن بدروا به للشرط الذى اشترط علينا، فأخذتُ على المقام تلك التَّسْمِيَةَ، وأرسلتُها إلى قَرُور، قبل أن يبدأ بنا، فقال: «قد أخرجوه لنا، فإياكم أن يبقى لكم شىء عند غيرهم!» فاستَفهمتُ والدَتى ثانيةً، وبَكيتُ لها، فقالت: «ما لى شىء عند أحد أكثر!» فأخذنا المَصاحِفَ، وحلَفْنا فيها لقَرُور أنه ما لنا شىء أكْثَرُ، لا مُودَعٌ ولا مَرْفُوعٌ» فأعلم السلطانَ بما أقسَمْنا به، وجعل مع هذا يبحث ويَستَقصى، فما وَجَد لنا أكثَرَ كما قالت الوالِدة.

ولمّا لم يجد شيئًا، أتانا قَرُور ثانية، وقال: «إنه قد ظهر أنه لا وديعة لكم أكثرَ، ولكن إياك أن يكون لكم مالٌ مدفونٌ!» فقُلْتُ: «ما علِمْتنا قطُّ بدَفْنٍ، ولا حسبنا هذا الحساب، ولا كان الدَّفْنُ شأننا! وغَيرُ مُتَعذّرٍ على الأمير أن يحفر القصر كله، حتَّى يرَى!» فقال لى: «إياك بالمُنكَّب!» فقلت: «ما لى بالمُنكب إلا شىء من الأثاث عَدّدْتُه لنزولى فيها: جميع ذلك بزمام بخطِّ يدى، يُرْسِل فيه الأمير ويأخذُ به!» فقال لى: «هات خطَّ يَدَك بإخلاء المُنكَّب!» فبادرتُ على المقام، وأصاب الزِّمام بالمُنكب على الصِّفة التى وَصَفْتُ وكان الجُنْدُ بها قد تَرَبَّصُوا، وقامت الرعيَّة، فطلب خطَّ يدى بالإخلاء.

ولمّا صحَّ عنده براءتُنا من جميع الأشياء أتانا قَرُور لتحصيل ما بقى، والعَجَبُ منه فى تلك المُدة أنه أتانى بسفر كبير، وقال لى: «اقرأه! فإن فيه جميع الأعلام التى رأى الناسُ لنا بِمُلْك الأندلُس، وفيه عباراتُها!» ولا أدرى ما أقرأ [ولا أسمع] أكثر من قوله لى بهذا اللفظ: «ليس كذا هو؟ فجبيتَ

الأموال، لا [بقى لك] منها شىء!» ولما وقف على جميع ما فى الخباء من وطاء وثياب، رفع بذلك كتابًا إلى الأمير، وأعاد الفَتْشَ، يَجِدْ غَيْر ما رآه أولا.

٧٥- نفى الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلمَّا خُبِر بما فى التسمية أنه لا غِنًى للإنسان عنه، سَوَّغَهُ لنا مع ثلاثمائة دينارٍ وثلاث خَدَم، أمرَ لنا بها، وأعَارَنا دَوَابَّ خمسةً لنقلان الأثاث كلِّه، وأمَرَنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء، وقال: «تَنْتَظِروا بها السلطانَ حتى يَرِدَ عليكم» وأعطانا من المُرابِطين مُشَيِّعين مَنْ يُؤنِّسُنا ويتكَفَّل أُمورَنا، فشكرنا له ذلك، وتحرَّكْنا على المقام، إذ كان الحفزُ منه فى ذلك شديداً.

وكُنَّا طولَ طريقِنا جازعين، لا ندرى ما يذهب إليه بنا، ولا ما الإشارة فينا، وقد كنتُ أرى المُرابِطين ينزلون بمَنْزِلٍ، أو يَحتَلُّون فى موضعٍ، فأقول: «إن ذلك لشىء أُمِرُوا به!» فكنتُ طريقى ذلك تحت جزعٍ وهلعٍ، أَسأَلُ الله أن يُكفِّرَ بها السيئَات، ويجعلَها آخِرَ مصايبنا بعزَّته، إلى أن وَصَلْنا الجزيرة.

فأُرْسِلْنا إلى سَبْتة، ودَخَلْنا البَحْرَ فى يومٍ عاصِفٍ، أَدْرَكَتْنا فيه أهوالٌ لم نَكَدْ نسلم منها إلاَّ بالأجَل الذى لم يحضر، حتى خَرَجْنا إلى سَبْتة، بعد أن قيل لنا: «فيها تنتظروا الأمير!» كما قيل عن الجزيرة، فزادَنا ذلك قَلَقًا.

ثُمَّ نُقِلْنا إلى مِكْناسة الزَّيْتون(١)، وتَلَقَّانا الأميرُ سِيرُ، وأنَّسَنا، وأخْبَرَنا أن مُقامَنا عنده إلى أن يَرِدَ السلطانُ من الأندلُس، وأرْسَلَ إلينا مائةَ دينار، وعند

---

(١) مكناسة الزيتون: مدينة فى المغرب من نظر فارس إلى جهة المغرب، وهى أربع مدن وقرى كثيرة متصلة بالمدن والحصون، الممدَّن منها يسمى تاجرارات، وتفسيره المحلة، وعلى هذه المدينة سور كبير وأبراج عظيمة، وهى مدينة جليلة فيها الأسواق الحفيلة (الروض المعطار).

حُلولنا بهـا، أيقَنَّا بالمُقام فـيها، وبقـينا على تلك الحال، قـد فُقِد مـا كان بأيدينا، وأحوَجْنا إلى بيع ثيابنا التى تُرِكتْ بنا بعد أن استَـحْوذ قرورٌ وحاشيَتُه على أكثرها (فكلٌّ يَد وما انهَبت!) لم يتركوا لنا إلاَّ ما لا نَظَرَ له على نزارة ما أبْقىَ، والسلطانُ ـ أيَّدَهُ الله! ـ غافِلٌ عن ذلك، لم يكن الشكوى إليه، إذ كان قَرورٌ واسِطةً، وما كنت أتشقَّى من ذلك أكْثَرَ.

ومن أعْجَب الأشيـاء أنَّه، عند حلولى بمكناسة [كـتب إلىَّ] يقـول لى: «أخبِرنى عن الخـاتم الذى خرَجْتَ به!» [وقـد كنتُ] أخرَجْتُـه مِن إصبعى وبعْتُهُ بعشـرة دنانير، فراجَعْتُه نعلمه بحاجـتى إلى ثَمَنه، وإنَّما أراد أخْذَه لئلا يُبقى لنا شيئًا، ويتقصَّى الجميع، وعَلِمَ أنَّه لم يَبْقَ لى غَيْرُه.

ثمَّ إنَّه وافـانى من عند السلطان ثلاثمـائة دينار أُخـرَى، وأنا بِمكْنَاسَـة، وخاطَـبَنى بكتاب يَعِـدُنى بكلٍّ جمـيل، ويقول لى: «لا أنْسَـاكَ ما بقـيتُ!» فسرَّنى ذلك ـ أحْسَنَ الله جَزاءَهُ! ـ فلقد كان أرفَقَ بى بَعْدَ الله! من كلِّ أحَدٍ، وأعْلَمَنى أنَّه، إذا وَرَدَ مَرُّوكُش، أكونُ معه حـيثُ ما كان، إكرامًا لنا وإيثارًا، فعلِمْتُ أنِّى منتقلٌ عن مِكْناسة، إلاَّ أن الروعَ كـان أفْتَرَ، إذ لم يكن أن تُؤَخَّرَ العقوبة إلى ذلك الأمـد، وقَرُورٌ، مع هذا، لا يَدَعُ طَلَبى عند السلطان، على إحسانى إليه، جِبِلَّةً قد جبله الله على بُغـضى، مع قلَّةِ رحمتِه، وقساوةِ قلبِه، ودنأته ولَؤْمِه.

٧٦- عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله نفيه:

وبَلَغَنا فى طريقنا ذلك ما كان من ثقاف أخينا تميم بعدنا، وأنَّه، لمَّا كان فى مدَّة كوننا بغـرناطة لإخراج الأموال، ونحن على تلك الحال مُـرَقَّبين فى

openkanoz.com

الخباء، كان تميم المـذكور يزورنا، ويتكدر علينا للذى يلزم من حُبٍّ القرابة وصلة الرَّحِمِ، وكان قَـرُورٌ، فى هذا كلِّه، يرمقـه ببَصَره، ويعـتقد فى نفـسه لذلك شرًا، وصـوَّر عند السلطان أن مـالا أخرجناهُ مِنَ المـالِ مَوْدُوعٌ عنده، ليسلم لـنا بسَلامَتِـهِ، مع ما زِيدَ فيـه من الطَّلب، أن قيلَ للسلـطان: «ثقفتَ صاحِبَ غـرناطة، وأخوهُ منه! وإن تركْـتَه ينصرف إلى بلده، طـلَبَك بالثار، وأفْـسَدَ عليك مـا ترجو صـلاحه، مـع شرَّته وحـدَّته! فهـو بذلك مَرْسُـومٌ مَعروف! فعاجل بثقافه، يصفى لك ما تؤمِّل!».

وكان قـبل ذلك، على مـا أعلمنى أخى المذكـور، قد أنَّسَـهُ السلطان، ووَعَـدَهُ بصَـرْف بلاده إليـه التى صـارت إلىَّ، وقـال له: «لَسْتَ من أخـيك [بالمسئول، وأنتَ أظهرَتُ لى] الطاعة، وأجملتَ المُعاشَرة، وإنَّك أوَّلُ مَنْ ضـرَبَ الدَّرَاهم [المُرابِـطيَّة] والآن تستحمد عـاقِبةَ رأيك، ونجعل لك بتلك المَـزِيّة على أقرانك!» فطمع الـصبىُّ بذلك، وشـرِهَ إليه: كلُّ ذلك خِـذلانٌ [اغتـرَّ به] ملوك الأندلُس، وأسعد من أجْله المُرابِطون، فـعمِيَت البصائر، وقويَت الشهوات، وامتدَّت الآمال بَحَيثُ يَنَبغى لها أن تقصر.

فلمَّا هَمَّ به، أُخِذَ فُـجاةً لئلا يشعر، فيغـيب المال الذى اتُّهِمَ به، ويَفِرَّ، ونال من قَرُور هوانًا كـثيـرًا، ولم يترُك له سَقْطًا، وبيـعت أسبـابُه فى موضع مَحلَّته، قِيمَ لها ثَمَّ سُوقٌ، وأُلْقى فى الحَديد، وأُمِرَ به إلى السُّوس[1]، ولما كان طَريقُـه على مِكْناسة، لَقِيْناهُ، فأخـبَرَ بهَوْل ما قـاسى، وبَصُرْنا به، وهو على تلك الحـال قد شقى بـالكَبْل لعِظَمِه، لا يقـدر أن يتحـرَّك به، فأوجب

(١) فى أقصى بلاد المغرب، وهى مـدينة جليلة حاضرة جامعة لكل خيـر وفضل، وأهلها أخلاط، وهذا السوس الغربى قرى وعمارات كثيرة متصلة بعضها ببعض (الروض المعطار).

ذلك ما وُسِمَ به من الشرّ، وأنَّ أهْلَ مـالَقة رفعوا إليه حـينئذ أفعالاً قبـيحةً، وأبَاذِى سيِّئَـةً أسداها إليهم، على ما ذُكِرَ، فاتَّفَقَت الأسبابُ، فلم يُرد الأميرُ أخذَه إلا ببيِّنةٍ، إلى أن وصل السُّوسَ، ووصَّى به أمـيرُ المسلمين إلى بَزْلَف، وبالَغَ فى إكرامـه، وكان معه فى عافـيةٍ ورَغدٍ من العيـش، وفوَّض أمْرَه إلى وُلاةِ السوس بعد بَزْلَف.

obeikandl.com

الفصل الحادي عشر

عزل بقية ملوك الطوائف
ومصيرهم بعد ذلك

obeikandi.com

obeikandl.com

٧٧- موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة:

وحَانَ انصرافُ أمـير المسلمين إلى بلاده بالعِدْوة، بعد أن أكْـمَل ما شاءَه من أمر بنى عَبَّاد وصاحِب الْمَرِيَّة:

ونَحنُ ذاكِرون منها مـا بَلَغنا منها، مِمّا يقبله الـعقلُ، لا بتخليط الناس، ونختصـر من الوصف ما يغنى عنه الإكثـار: فإنها أمورٌ لم نُشاهدهـا، فنُخبَرَ عن يقين وإطناب، ولا غـابت عنَّا كل الغياب، فنجهَل مَـصْدَرَها ومواردها، أن الذى كنتُ فيه أشغلُ وأكرَبُ من التفـات ما حدث بعدنا لقلة المبالاة بما لا يغنينا منها، ولشـغلِ خواطرنا بما دَهينا به، على أنَّ ذكرَ مـا سمعَ، ونحن قد أمنا من الموت، أيسر من ذكر ما عايناه، ونحن جازعون منه، فحقٌ لنا أن نذهل عن علم جليته بالمعاينة، وعن وصفه بعد الأمان، فإنه من ذكرَ الهولَ، فكأنه فيه.

وقد كان أمير المسلمين، قَبْلَ مجيـئهِ إلى غرناطة، قد وعد المعتمدَ بها، وقال له: «أنا رجلٌ مَـغرِبى، وليس قدَّمَنى أخذُ مـالٍ ولا بلاد! وقد ترى، ما رُفع على صاحب غرناطة، ونتوقع عليها من الرومىِّ، وليس غرضى أكثَرَ من تخليصها، فإذا صارت فى يدى، ولا يُمكنُـنى إمساكُها لبينِ بلاد الأندلُس من العِدْوة، وضَعْتُـها عند ذلك فى يَدِك: فتكونُ أعْلَمَ بما تَصْنَعُ بهـا، وأقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ المسلمين».

فلَمْ يشُكَّ المُـعتـمد أن ذلك منه كـائنٌ، وَعَمِلَ حـسابًا آخـرَ أن قال فى نفسه: «إن لم يتهيَّـأ له أخذُها بقعود صاحِبها عن الخـروج إليه، فليْسَت مِمَّا

تؤخذُ من وفقة واحـدة! ستنجرُّ الحالُ من أجلها، وتشيخُ عليـها المَحلات، كمـا صُنِعَ بلِيِّيط، وتدخل الشتـوة، فيـحتـاجُ إلى الانصراف، وتبـقى هذه المَعاقِل التى طاعت للأمير أكُونُ زعيـمها، وفى خلال ما يتلوَّى أمْرُ غرناطة، احْتِيجَ إلىَّ، وكان لى بذلك الصولةُ على الفريقَيْن، ولا نُخْلَى من بَرَكَتِها!».

وكان الحـبيبُ إليـه أن تَبْقى على مـا ذَكَرناه، إذ لا يعلم، عند حـصوله عليهـا، ما تكون قَرْعَتُـه معه، كالذى كـان، وسكت عنِّى فى الأمْر، ولـم يُرَ الانكشاف بسـرِّه إلى رئيس يفشى عليه، غَيْـر رُموزات، إذ ذاك لا تنفع، ولو قال لى: «انْتَسِكْ!» فأنا أحْوَطُ على حـالى، أو: «اخرُجْ!» لم أُطِعْهُ ما تهمه، ولا يمكن أن يعطينى تَقْوِيَة، فيفتـضحَ عند المُرابِط، إنما كان صَنْعُ الأمير أن يَطَّلِع ويَرَى، عسى يتهيأ له فى النصبة شىء، أو يَسْلَم من معرَّتِه، قد تنشَّبَ، ولـم يَجِدْ مَحِيصًا غير ما كان بسبيله.

وكذلك ابنُ الأفْطَس مـعه على تلك الحال، وصاحِب المـريَّة فى المرية لم يتحرَّك: كلٌّ أحَدٍ منهم إلى ما ينقض من أمْـرِ غرناطة، قد أبهتهم أمرُها، وأقلَقهم.

ولمَّا بصرتُ تألبَهم علىَّ مع الأمير، خاطَبْتُ كلَّ واحد منهم بكتاب أقولُ لهم: «هذا الأمْـرُ مُنْجـرٌّ إليكم! واليـومَ بى وغـدًا بكم!» فلم يمكنهم قـراءة الكتب دونَه، وعـرضوها عليـه، فَحَنِق(١) علىَّ، وكُـتِبَت الأجوبة بـإملائه، يقولون: «إنَّما تُريد أن تلطخنا بأفعالك، ونحن قـد برَّأنا الله منها!» وما أشبه ذلك من الوعيد والتذنيب: فِعْلُ من قـد وَحِلَ، ولـم يقدر على أكثر ما قدمنا ذِكرَه، مع الطمع وعَمَىِ البصائر، كما وَصفْنا قَبْل:

(١) تحرف فى المطبـوع إلى: «فخنق» بالخاء المـعجمة، ثانى الـحروف، وحَنِقَ عليه حَنَقًا: اشـتد غيظه.

وكان رُسُلهُم إليَّ قبلَ ذلك يحضُّونى على الامـتساك والتَجلُّد، وقال ابن الأفطَس: «أنا أعتـذِرُ عنه!» ولم يَرَوا كَتْب كتـابٍ خَوْفًا من أن يكون ظهـيرًا عليـهم، غَيْرَ إهـذاء ذلك على الألْسِنَة، فعلمتُ أنهم قَـوْمٌ قد أسْلَمـونى إلى طاقَتى، فإن كانت لى، لم تَدْخُل عليهم داخلةٌ، وإن كانت علىَّ، لم يُفْسِدوا وجُوهَهم مع المُرابط، وحسْبُه اجتهادُهم معه بأنفُسهم ورجالهم.

فرأيـتُ حالى فى هذا كلِّه تالفـةً، وعَلِمْتُ أنه، طُولَ مدة امـتسـاكى لو امْتَسكْتُ، لكان سـلاطينُ الأندلُس أجمع متالبِّين على فِتنتى مـع رَعِيَّتى، لِمَا يلزمهم من الطاعة للمُرابِط والطمعِ، عسى يحْصُل لأحَدٍ مزيد فى بلاده، ولا تمكن لأحَد منهم مَـعُونتى ولا الاستـفسَاد من أجْلى، فنحْـنُ لم يُعِنْ بَعضُنا بعـضًا على الـرُّومىِّ! فكيفَ على المُـسْلِم، مع حَرْب الـكانون وقيـام أهل البيت! هذا مـا لا طاقة به لمن عقل! ولم نظنَّ نحن أن الأمْـرَ ينفتق إلى هذا كله، ولا نُعاجل هذه المُعاجَلة، ولو عَلِـمْنا ذلك، لم يكن أحدٌ يتقدمنى إلى الخروج إليـه، إذ ما سِوَى ذلك على هذه الرتبة لا ينفـع، وإنَّما طَمَعْنـا بما قَصَصْناهُ قَبْلُ، وحَسْبُك!.

وإنه، لمَّا آلت الحالُ إلى ما لم يُجْرَ على قـياس، خَرَجْنا إليه، ولم نَلْتَوِ ساعة.

٧٨- حركات المرابطين على المرية:

ولم يُقدِّم أميرُ المـسلمين شيئًا، وقت خروجى إليـه، على إرسال جيش إلى صاحب المـرية، قبل ابن عبَّاد، إذ كان بـتخلُّفِه مَوسومًـا بالنفاق، ولأنَّه مُعاقِدِى على ذلك، وأنَّ تَخَلُّفَه لا يكون إلا عن اتفاق.

فلم يُحَرِّك منها موضعًا إلا وأجابَ، وتناثَرَت مَعاقلهُ أجمع، حتى بلغ العسكرُ إلى باب المرية، وكان الرَّجُلُ ـ رحمه الله ـ ساعةَ ورود الخبرَ عليه بخرُوجنا، انطبق له، واعتلَّ لما رأى من هَوْله وسوء عاقبته، وقضى عليه وصول العسكر إلى الباب، وهو على تلك الحال، فأقرعَ لها وماتَ وولِيَ بعده ابنُهُ مُعِزُّ الدولة، الناهِضُ إلى قلعة حمَّاد(١) على ما نَصِفُه بعد هذا.

وقد كان، لِمَا رأى من طَلَب [المُرابط لبلاده] قد وجَّه إليه ابنه الآخر، يَعِظُه ويُعلمه بوَجه الحقِّ فيه، إذ كان ينْتَحِلُ فِقهًا، وذلك مما ذَكَرْنا من قلَّة المَيْز بالأحوال، إذ يَرَى هذه الأمورَ مشتعلةً، ويطمع إطفاءها بالوعظ! فساعةَ وصوله، أمر الأمير بثقافه على المقام فى الحديد، وتحيَّل أبوه فى انطلاقه، حتى انصرف إليه فارًا من المرابِط: اختلسَهُ من مَوْضِعه رَجُلٌ له شبَّاك، قذف به فى البحر حتى سَلِمَ إلى والده.

وفتر الطلَبُ على المرية للشغل بما حدث بأمر ابن عبَّاد، وأنَّه أوكد الأشياء، وإنَّ ابن صُمَادِح، لما حضرته الوفاة، وصَّى ابنه هذا المستَخْلَف، وقال له: «أمتَسكْ فى هذه القصبَة طولَ مقام ابن عبّاد فى مُلْكه بإشبيلِيَة ما استَطعْتَ! فإن رأيتَ ابن عبَّاد قد خرج، فلا تتربَّص ساعةً واحِدةً، وَانجُ بنفسك إلى القلعَة، وادخل البَحْرَ بما قدرته عليه من ذخائرك، إذ لا مَطْمَعَ لك فى البقاء بَعْدَه!».

فحِفظ وصِيَّة أبيه، وساعةَ ما انقضى فى إشبيلِيَة ما انقضى، تَخَيَّرَ قِطعةً أشْحَنَ فيها جميع ما قدر عليه من ذخائره، وكتم أمْرَه، وخرج باسم أنَّه

(١) قلعة حماد ـ قلعة بنى حماد ـ من أكبر البلاد قطرًا، وهى فى سند جبل سام صعب المرتقى، وقد استدار سورها بجميع الجبل (الروض المعطار).

ناهضٌ إلى أميـر المسلمين بهـديَّة ليُهَدِّنَ بـذلك أهل المرية، فسُـرُّوا بفعله، وقالوا: «هذا هو الـصواب، قبل أن يحلَّ بك مـا حلَّ بغيـرك!» حتى توسَّط البَحْـرَ، وأعْطى للنَّواتِيَّة مالاً جـسيمًا، وأخـبرهم غرَضَه، وخـرجَ بالجزائر، وأكْرَمَـه صاحب، القلعة، وأمَّنَهُ في ذخـائرِه، وأكرَمَ ضِيـافَته، وخيَّـرَه حيث يحبُّ السُّكْنَى، فاختارَ تَدلّس، لأنَّها على البَحر، ولِيغيبَ عن عين السلطان، خَوْفًا من الطلَب، وانْخَملَ في ذاتِه، وأخَذَ لنفسه بالأرْجَح في أكثر أحْوالِه.

٧٩- توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتمد:

وإن المُعْتَمِد بن عبَّاد، لما بصـر بدخول الأمير غَرْناطة، واستنجز وَعْدَه، فَلم يُلْتَفتْ، ورأى ثقـافَها بالمُرابِـطين وإخراجَ من فيهـا من الحَشَم وكلٌ من طمع بالبـقاء على حـالِه، جـزع جزعًـا شديدًا، وخـاف أن يثنَّى به، إذ رأى الأميرُ مَذْهَبَه في البلاد واستصـراخَه، ولم يمكن للأمير أن يأخذَه بغير ذنب، فيقبح ذكـره، وأشار إليه المُرابطون بثقافه، فـأبَى حتى يلوحَ قِبلَهُ ذَنْب يؤخَذ به، ثُمّ إنه، بعد أن نهضَ واتبَعَـه قَرُور يقول له: «الأميرُ يحـتاجُ إلى تذكارِك بعض الأمْر!» فَأبى، ومـضى لوجْهتَه، فاراّ بنفسـه، وأطوَى المَراحِل، حتَّى وصل قُرْطُبَةَ، وقـال في طريقه إلى ابن الأفطَس: «انْجُ بنفسك! فـقد تَرَى ما حلَّ بصاحِبِ غَرْناطة، وغَدًا بنا!».

ثمَّ إنه، بعد أن ظهَر للأمير نُفُورُه، وَجَّـهَ إليه يأمُرُه بالقدوم عليه، ويقول له: «نُرِيدُ الاجتماعَ بك فيـما نحنُ بسبيله» ليقولَ: «لا!» فَيجـدَ السبيلَ، كما فَعَل، فـراجَعَـهُ ابنُ عبَّـاد: «إنَّ ذلك كان وَقْتَ كُنْتَ ضَـيفًا، وتُريـدُ الغَزْوَ، فلزمتْني معونتُك بنفسي وجـميع أموالي! والآن إنَّما أنت لي جارٌ مِثل باديس

وحفِيدِهِ، وأنتَ أقدَرُ مِنّى على الشرِّ بجنُودِك! فلا يُمْكِنُنى التغريرُ بنفسى، عسى أنك تُريد أخْذَ بَلَدِى، إذ لا تصحُّ لك غَرْناطةُ إلاَّ بما يضاف إليها من الأنْدَلُس!» فشرط عليه أميرُ المسلمين أن يلتزم الرِّباط، ويقطع القَبَالات، وتَحامُلاً كثيراً عَلِمَ أنه لا يفعله، وفى تركِهِ أو فعله قطعهُ، فامْتَنَعَ ابنُ عبَّاد جَهْدَه، وبَنَى على الشرِّ.

وبدأ [المُرابطُ] بِمُداخَلة مَعَاقِله، فانْتَشَرَتْ، كما جرى لغيرها، وقامت عليه الرعايا بكلِّ قطرٍ، فأرسل إذ ذاك إلى الرومىِّ، يستغيث به، فقعد عنه، خَيْفَةً من التغرير، وهى حُجَّةُ أمير المسلمين على ابن عبَّاد، أن قال له: «ظَفَرْتُ بكُتُبِك إلى الرُّومىِّ وإرسالك عنه!» فقال المُعْتمد: «لو فَعَلْتُهُ قَبْلَ أنْ تُؤخَذَ بلادى بَطَرَاً وأشَرَاً، كُنتُ أُلام! وأمَّا بعدَ أن رأيتُ طَلَبِى فى الروح، اضطَرَّتْنى الضَّرُورةُ إلى ذلك للمُدافَعة، ولو يومًا واحِداً!».

وهى كانت عِلَّةُ الجميع، وبذلك هلك ابنُ الأفْطَس، ومِنهُ أُتِىَ.

٨٠- الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عباد:

فلمّا تبين للأمير خِلافُه وقُعودُهُ عنه، شاورَ الفُقهاء فى أمْرِهِ، فأشارُوا عليه بغَزْوِهِ، فكان غَزْوُهُ بعد إبلاء عُذْرٍ، ولهذا ما أخَّر به لِيُهْلِكَ من هلك عن بيِّنة ولتكونَ له الحُجَّة على من يُرِيدُ إخراجَه، فأمَرَ الأميرَ سِير بالخروج إليه، ونَهَضَ، ونَحْنُ بِمِكْناسة، ونازلهُ مُدةً طوِيلةً، ومَعاقِلُه قد ذهب أكثَرُها بالطاعة.

وافتتح الأميرُ بخلال هذا مدينةَ قُرْطُبَة، واستُشهِدَ فيها ابنُه المأمون ووزيراهُ ابنُ زَيْدُون وابنُ بكر ـ رحمهم الله ـ بمُداخَلةٍ من أهْلِ البلَد، مع

انخراق المدينة، وأنَّه لم يمكن ضَبْطُها إلاَّ بأَهْلِهـا، وكان المُعتَمد حَذِراً على قُرْطُبة، يرجو بَقاء حاله بثُبوتها، ويُوصى ابنَه بالصبر، ويقول له: «لا تجزع! فالموتُ أَهْوَنُ من الذّلِّ! ولَيْسَ السُّلطانُ إلاَّ من القَصْرِ إلى القَبْرِ!».

فلمَّا أُخِذَتْ قُرْطُبـة، انقطع الرجاء، وضاقَتْ إشْبِيلِيَة، ونفـد ما كان بيده من أَجْلِ النفقات، إلى أن دخلها الأميـرُ سِير عَنْوةً بمُداخَلَة من بَعْض أهلها، وهلك فيهـا عالَمٌ، وانكشف الحُرَمُ، إذْ للجَيْش مَعَرَّةٌ لا تُمْلَك بَـعْدَ صَبْرِهم على مَلِكِهم، وظهر لِسير من اجتهادهم فى القتال ما أعجبه ذلك، وقال: «لو أنِّى أقصد مدينةَ الشِّرْك، لم تَمْتَنِعْ هذا الامتِناع!».

وكان دخولُها من ناحية الوادى، وهو أسْـهَلُ الأماكِن، ولولا صبْر أَهْلها وكَثْرة أقاربِ ابنِ عبَّاد، لم يستطِع [المُعْتَمِدُ] على شىء، فكأنَّهُ غُلِبَ بالثِّقاتِ الذين كـانت الأبوابُ بـأيديهم، ووكَّلَهم بمَنْ سِـواَهم، إلـى أن لم يكُنْ مع القضاء مَدْفَعٌ، وكان دُخولها يوم الأحد فى [٢٢] رَجَـب [سنة ٤٨٤] فى التأريخ الذى دُخِلَتْ فيه غَرْناطة بَعْدها بعامٍ كامِلٍ.

ودُخِلَت قَبْلَها قَرْمُونَة،(١) ومات فيها عالَمٌ كثير، ثُمَّ الْتَوَى أمرُ رُنْدَة(٢)، ونَازَلَهَـا قَرُور، إلى أن ظفـر بالراضِى، وخَدَعَـهُ، وحصل على أمـواله، ثمَّ قَتَلَه، خَـوفًا من أن تفتضِحَ تلك الأمـوالُ، وقيلَ: إن ذلك لم يكن عن رأى السلطان، وأمَـرَ بـقَتْلِ كلٍّ مـن ظفـر بـه فى رُنْدة المـذكـورة من الأحـرار

---

(١) قرمـونة: مدينة بالأندلس فى الشرق من إشبيلية، وهى مدينة كـبيرة قديمة، وهى فى سفح جبل عليها سور حجارة من بنيان الأول، وبها جامع من البناء وسوقها جامعة (الروض المعطار).

(٢) رنـدة: بالأندلس من مدن تاكرنًا، وهى مدينة قديمة بهـا آثار كثيرة، وهى على نهر ينسب إليها (الروض المعطار).

والجُند المُقاتِلين، وقُتِل فيها رَجُلٌ من العَرَب يُعرف بأبى الصَّمْصَام، جرأةً على الله، ليأخُذَ بِنتَهُ، ونكحها من بعده، وحصل على مالِه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ (هود: ١٢٣) وامتَسَكَ بالعَبِيد، وصيَّرَهم إلى السلطان.

ولمَّا ظفر بابن عبَّاد، فيَّأ الأميرُ سيرُ خدَمَهُ وعَبِيدَهُ، حاشى أُمَّهات الأولاد، وأمَرَهُ أميرُ المسلمين بإرساله إليه، فقدم إلينا بمكناسة مع دَخْلَتِهِ، وبَقِىَ فيها إلى أن سِيقَ معنا إلى أغْمات[1].

٨١- قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكش:

وإنَّ أمير المسلمين، لمَّا فتح الله له فى هذا كلِّه، أخَذَ فى الانصراف إلى مَرُّوكُش، وقد بلغ من آماله غايتَها، وامتَلأتْ يَداهُ بالأموال، وقسم على أجناده بعضًا من الفَىء، وأهدَى إلى الصَّحْراوِىّ عَمِّه من تلك الذخائر.

وأمرنا أن نَسْتَوْطِنَ أغْمَات، فأتَيناها، ولقينا من أمير المسلمين كلَّ جميل، وأنزلَنا بداره الصُّغرى فى الحريم، ولم يَزَلْ يَعتَقِدُنا من إنعامه، كَيْفما هيَّأ الله على يديه، ووَجَدْناهُ بعد الله أرفَقَ بنا، وأحْسَنَ مَذهَبٍ فينا من الناس أجمعين، ومن كلِّ من سبق إليه مِنَّا إحسانٌ.

٨٢- عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ومهلكه:

وبَقِىَ ابنُ الأَفْطَس يتخدَّم أمْرَه، وكان يُدَارِى ابن الأحْسَن، وينفَعِلُ له فى كلِّ ما أراد، طمعًا منه فى البقاء لحَيْنِه، وهو، فى ذلك كلِّه، يُنْهِشُ، ويرى آيات تَدُلُّ على الشرِّ، وأنَّ المذهب فى أخْذِهِ، ودَاخَلَ عليه ابن الأحْسَن فى بلده، فشعر بذلك، وتيقَّظ له، واستوحش من المُرابطين، وداخل الرُّومِىَّ، فحقَّتْ عليه المُطالَبة، وسُعِىَ عليه جَهْرًا، بعد السَّعْى سرًّا، وهو، فى ذلك كلِّه، مِثل السَّمكة العاجزة المَوْصُوفة فى «كتاب دِمْنَة» لم تَزلْ فى تَقَلُّب

(١) أغمات: بأرض المغرب بقرب وادى درعة. (الروض المعطار).

وتَرَدُّدٍ، حتَّى أخذَها الصيَّادُ، وهو كذلك يُريدُ أن يُخلِّطَ: يُخَاطِبُ الأميرَ بإظهار الطاعة والمُشاركة فى أمر الرُّومىِّ، ويُخاطِب ألْفُونش ليستعينَ به على مُلمَّةٍ، إن دَهَتْهُ من المُرابِطين، وكان ابنُه المنصورُ داهِيَةً بالأمور، قد أُشْرِبَ قَلْبُه الحِذْرَ والخَوْفَ، وقد رأى طريقةَ ابنِ الأحْسَن، وسعْيَه على أبيه، وهو رَجُلٌ سِجِلْمَاسِىٌّ فَقيهٌ، مُتَصَرِّفٌ فى أُمور الأمير، استَوْطَنَ بَطَلْيَوْسَ، واكتسب فيها مالاً، يَرَى أنَّ كَوْنَه فى الثَّغرِ لِمَا ينفع المسلمين، وهو يعمل فى خَلْعِ صاحِبِها.

وكان ابنُ الأفطَس الشيخُ مُتَّبِعًا لهَوَاهُ، لو سألَهُ روحَهُ ما لا يَحِلُّ عليه [عمل] به، مُتَوَقِّعًا لشرِّه، وكلُّ شىء يحذرُه الإنسانُ ويكرهُه بقلبه، ولا يكون عليه بالخيار، فهو مُتَوَرِّطٌ لا مَحالة، فيه، فإن المُدارة فيه ممَّا لا تنفع، والاستِعْمالُ مُنْقَطِع، ولا خَيْرَ فى مُجاورَة عدوِّك عند الحاجة إليه، إلاَّ أن تَدْرَى عند ذمِّ العاقِبةِ معه أنَّك مُسْتَغْنٍ عنه بغَيْرِه، وإلاَّ، فأنتَ له طُعْمةٌ.

فقال له ابنُه المنصورُ: «هذا التردُّدُ لا يجزِئُك، ولا يغنى عنك ما تُرى من إظهار الطاعة للمُرابط! ولا طاعةَ أهْلِ بَلَدِكَ لَكَ ومَحَبَّتهم التى كانوا يعرضون عليك! فلو أنَّهم يَرَوْنَ بعضَ حقيقةٍ فى عزيمة، لَمَا أبقَوْا عليك، كالذى رايتَ صُنِعَ بغَيْرِكَ! فإمَّا أن تُصْفِىَ للمُرابِطِ، فلَنْ تَبْلَغ مرْضاته إلا بالانخلاع له ووَضْعِ البَلَد فى يديه، وتَقْنَعْ بأن تكون مُتحرِّيًا، مُتَخَلِّيًا عن الرياسة، فعَاجِلْ ذلك، تَجِدُ عنده الأمانَ! وإن نفرَتْ نفسُك عنه، فلا تتأخَّرْ عن الفِرار منه بنَفْسك وأهْلك وجميعِ أموالِكَ! يجعلك الرُّومىُّ فى أىِّ بلدة شئْتَ، وربَّما سوَّغَها لك، كما فَعَلَ بابن ذى النُّون فى بَلَنْسِيَة، وتَتركُ مدينة بَطَلْيَوْس، لا تدخل على المسلمين داخلةٌ، فيحصل لك النجاةُ بمُهْجَتِك،

وسلامـةُ البَلَد للمسلمـين!» فقال له أبوه، وسَـفَّهَ رأيَه: «لا أترُكُ مَـوْضِعِى! وعسى أن تُهَيِّئَ الأقـدارُ ضِدَّ ما تَظُنُّ!» فخرج عنهـا ابنُه، ونَجَا بمالِه وأهلِه، وأخذَ لنفسه بالرأى الذى أشار به على أبيه، وبَقِىَ الشيخ لحَيْنِه، حتى نفذ أمرُ الله فيه.

وإنَّ الأمير سِيرَ، لِمَا أراد من التخدُّم لأمرِ بَطَلْيَوْس والحيلةِ فيها، لم يَثِقْ بنفسـه فى ذلك، لحـدوثِ ولايتـهِ الأندلُس، ورأى أنَّ الداءَ لا يُعـانى إلاَّ بدَاوَائِه، ولا يُلقَى أحَدٌ إلاَّ بحَـجَرِه، فتخيَّـر لذلك ابن رشيق، لأنه أندَلُسىٌّ، عالِمٌ بالمكايد فى الفتون، مع ما كـان له عليه من الأيادى قَبْلُ فى لِيِّط، وأنَّ ثقافَه ذلك الوقتَ لم يكن إلاَّ على رغمٍ منه بمُضَادَّةِ قَـرُور له، فانتهز الفُرْصةَ فى إطلاقه، والمُكافأةَ له على صَنِيعه بما يأمرهُ من أمْرِ بَطَلْيَوْس.

وخاطَبَ السلطانَ فى أمـره، بعد أن أطْنَبَ من صفَةَ حـاجته إليه، فـقبل قَوْلَه، وأمَرَ بإرسال، وألْطَفَ له القوْل، واعتذر إليه مِمَّا جرَى، وأمر له بمال جسـيمٍ، ونَهَضَ، بعد أن حَدّ له الوقـوف عندَ أوامرِ سِير، وأنَّه مُـسْتَحْيِـيه، فمضَى، وفـجىء الناس من انطلاقه ما تعَجَّبـوا منه وخلَّطوا القول فى ذلك، كلَّ أحَدٍ على مِقْدار عقْلِه أو شَهْوَتِه.

فلمَّا وصل، تَخَدَّمَ أمْرِ بَطَلْيَـوس بكلِّ وَجْه من المُداخَلة لأهْل البلد ومن معه فى القَصَبَة من الحَرس وغيرِهم، حتى وقع الاتِّفاق على أن يطرقَها لَيْلاً، ويفتحوا له [الباب] فكان من ذلك ما حاوَلُوهُ، وتعلَّقوا بالسُّور عند الإمارة التى كـانت مع من دَاخِلَه، وتُقُـبِّضَ على الشَّيخ وابْنَـيْهِ الفَـضْلِ والعَبَّـاسِ، واحتُوِى له أموال جسـيمة، وأمَرَ سِيرُ بإخراجه للقَـتْل، بعد أن رأى فى نفسه

هوانًا عظيمًـا، وشدَّةٌ على المال، ونقم عليـه ما كان من عَـمَلِه مع النصارى والمَعَاقِل التى أعطاهم، فأمرَ بقَتْلِه مع ابنَيْه الفَضْل والعباس ـ رحمهم الله.

وطَاعَ جميعُ ذلك الثَّغرِ للمُـرابِطين، كأنَّه لم يكن قطُّ لغيرِهم، وفِئَ أهلُه وبناتهُ، وجمـيعُ ما تَرَكَه، ثمّ صـار ابنُه المنصورُ فى جُملة الرُّوم، حَنَقًـا لما جرَى على أبيه، يطلب الثأر، ويتطرَّق معهم بلاد المسلمين.

٨٣- نشاط المرابطين ضد النصارى

استيلاء «السيد» لذريق على بلنسية

وصرف المُـرابطون وجُوهَهم إلى فِتـنة الرُّوم ومُقاصَـاتِها، بعد إكـمالِهم لأخذ سلاطين الأندلُس، يقولون: «إنَّه لا ينبغى لنا قتالُ الروم، ونَتْرك وراءنا الأعْداءَ، مِمَّـن يُوَاسى عَلَيْنَا مَعَهم!» فكُلُّها تَـهيَّأتْ بلا مَشَقَّـةٍ غير إشبِـيلِيَة، فوقع فيها بعض التعَذُّر، كما قدَّمْنا ذِكْرَه، فسُبْحان المقدر الذى إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كُنْ» فـيكون، هذا نَصٌّ ما كـان ولا نعلم ما يكون، كمـا قال بعض الشُّعَراءِ:

وأَعْلَمُ عِلْمَ الـيَـوْمِ والأمْسِ قَـبْلَه
وَلكنَّنى عَنْ عِلْمِ مـا فى غَـدٍ عَمِ

ثم نشأ بعد ذلك من أمْرِ بَلَنْسِيَة ما لم يَنْبلجْ بها ما يوصَف، فإنَّ الحديث لا يَحْسُن ذِكْرُه إلاَّ بَعْدَ تَقَضِّى آخرِه، والقَوْسُ لا تُكبَّد إلاَّ بقَبْضِ طَرَفَيْها، فإذا استكمل الخَبَر، طابَ إيرادُه وحسُنَ مَوْقِعُه، ونُمِّق بَعْضُه ببَعْض، ولو أنَّنا نَدَعُ هذا التألـيف إلى مُدّةٍ يتمُّ فيـها خَـبَر بَلَنْسيـة، لأتيْنا به بَعْدَ أن يكـون الظهرُ للمسلمين، وتُرِكَ هذا الدِّيوان مَخْرُومًا، انتظارًا لمَا يكون فيه أمَلٌ بعيدٌ.

openkamal.com

واستئنافُ تأريخ له فصولٌ لا يُعْنى، لا سيَّما أنَّنا أخَذْنا أنْفُسَنا في حيِّز تمامِه بما يليق بالزمان، ورُضْناها بما تستمرُّ عليه من تَرْك الشَّرَهِ والتَّنَزُّه عما فات، وإعمال قَطْعِ اليأسِ عمَّا قيل، واليأس عما فات يُعَقِّب راحةً، ولَرُبَّ مُطْعَمَةٍ تعود دُرَاخًا.

فإذا كان ذلك كذلك، فأوَّل ما يَجِبُ أخْذُ أنْفُسِنا به إخلاصُ النِّيَّة لأمير المسلمين ـ أيَّدهُ الله! ـ وتَمَنِّى الخَير له، لأنَّ صلاحَ المسلمين بصلاحه، ومن الديانة اعتقاد ذلك، لِمَا أُمِرَ به من طاعة الأئمَّة والنُّصْحِ لِكلِّ مُسْلم، لا سيما أنَّه مُحْسِنٌ إلينا، ثمَّ اقْتَصَرْنا على النظر فيما يخُصُّنا وأنْزَلْنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطُّ إلاَّ على هذه الحالة، واعتَبرْنا بمن كان قَبْلنا، ونَظَرْنا لمن هو دوننا.

٨٤- تأملات في تقلب الأقدار:

وما حلَّ بابن الأفطَس، فشكرنا الله على ما نَجَّانا منه، وصرَّفْنا وَجْهَ اهتبالنا إلى ما ننتفع به، وغَلَّبْنا النفسَ الناطقةَ على الحَيَوانيَّة، فإنها تحمل على الفضائل والإنصافِ، ومَعْرِفةِ حقائق الأشياء، كما أنَّ الحَيوانيَّة تحمل على الغلبةِ، وإيثارِ الشهوات، والحيدة عن سُبُل المَعْرِفَة.

ورأيْنا أنَّ شُغْلَ البال بما مَضى لا يَرُدُّ شيئًا غير الهمِّ والكرب اللَّذين يُنحِلان الجِسْمَ ويُذْهِبان اللُّبَّ، وأنَّ الحَرَجَ على ما لا يكون تعبٌ للبَدَن ومَشَقَّةٌ للإنسان، لأن الفلاسفة تقول[1]: لا يُلْتَذُّ بما مَضَى، ولا يُدْرَى ما يكون فيما بَقِيَ، وإنما له لذةُ ساعتَه التي هو فيها، أو عَمَلُه الذي يَجدُه لِمَعادِه، فإن أَعْقَبَ الله بخير، فَلَنْ نَخْسَر ما سَلَفَ من أيامِنا، فَنَهرَم قَبْلَ أوان

(١) في المطبوع: «لإنَّ تقول الفلاسفة» ولا وجه له.

الهَرَم، وإن كان الذى يأتى أشد من هذا، فيحـقُّ اغتِنامُ ما نحنُ فيه، ونعُدُّها أعيـادًا، ونُحدِثُ لله عمَـلاً يَرْضاهُ، وإن كنّا أبَدًا على هذه الرقـبة بِلا انتـقال (وغَيْر متَمكّنٍ من ذلك) فَتوطِـينُ النفس على ما يَعْلَمُ أنها عليه دائمةٌ، أحْرَى وأَرْوَحُ للبالِ.

ثمّ إنِّى اعتبَـرْتُ جميع ما فى الدُّنْيـا، التى إليها يَسْعَـى الناسُ، فوجدتُ نفسى مُـبْلِغةً منها كل أمَلٍ، وإن انقَطَعَتْ، فلم نصـحبْهـا، ونحنُ منها على يقينٍ بتَخْلِـيدِها، بل، لكلٍّ شىء مُدّةٌ، ولا بُدّ من تَرْكِهـا، والخروجُ منها فى مُدّةِ العُمُر خيرٌ من مَيْـتَةٍ على فِتْنةٍ أو غَرْقٍ، عَسَى بذلك أن يُعْظِمَ الله الأجْرَ، ويُكَفِّر السِّيئات، ويكون ذلك للإنسان زاجرًا عن الآثام، ويعتبرُ فَقْدَ مالِهِ كأنَّه لم يكتَسِبْه برَزيّةِ نفسه إذ حان حينُه، فيُقَدِّم بها النظَرَ، بتوفيق الله تعالى، قبل الموت وحلول الفوت، والله المُسْتَعان! لا شَريك له!.

سُئِلَ النبىُّ ـ عليـه السلام ـ عن عَلامـةَ انِشراحِ القَلْب للإسلام، فـقال: «هو التَّجـافِى عن دار الغرور، والإنابةُ إلى دار الخلود، والاستِعْـدادُ بالموت قبل لقاء الفوت».

الفصل الثاني عشر

تأملات أخيرة بعد النفى

obeikandi.com

٨٥- المؤلف والشعر

وإذ قد أتينا علـى وصف بعض الحادثات بالأندلس، ورتبـة دَوْلَتنا، وما انتَهَتْ إليه فيـها أحكامُنا، حسبما ساعَدتنا عليـه أذهانُنا، ونالَتْهُ مَقْدُرَتُنا، إلى انصرام الأمد، فلـنرجع الآن إلى ذكر بعض ما يتعلق بذلك من شـعْرٍ نَظَّمْناهُ وَقْتَ فـراغِ البال وجـمامِ النفس، مع مـا أعـان على ذلك من النَّظَرِ إلى كلِّ مُسْتَحْسَنٍ، والسُّرُورِ بطيب كلِّ خَبرٍ.

على أنَّى لم أنْتَحِلْهُ قَبْلُ، ولا كان من شانى الأخْذُ به، إلاَّ علـى سبيل الاستطراف والإطناب فى وَصْفِ شىء أُريدُ نَعْتَـهُ، فَرُبَّما صَنَعْتُ فى البَيْتِ أو البَيْتَـينِ أيَّامًا، أُحْضِرُ لها ذِهْنى، وأحـدُّ فكْرِى، فتصدع بعد كَـدٍ، وما أكادُ، كالشىء المُسْـتَغْرَبِ من غَيْـرِ مَعْدِنه، فيُنْشِدُها الكَتَبَةُ فى مجالِس الاحـتفال للراحات، نقطع بذلك الزمان عند الفراغ من الشُّغْل، كالذى يأخُذُ به الملوكُ أنفسهُم فى ساعات الدَّعَة، ونُضِيفُ معها لُمَعًا من آدابٍ وسِيَرٍ تُحْضِرُنى، ممَّا يختلج فى الخاطر ويُجْرِيها الإنسانُ بصُحْبة الزمان وتَنَقلِه فى الحالات، وقيلَ لرَجل: «من أين لك هذا العلْمُ؟» فقال: «قَلبًا عقولاً، ولسانًا سَئُولاً!».

٨٦- استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره:

وكُلُّ شىء إنَّما ينطبعُ فى النشأة وحِـينِ المَوْلد، ولقد طالَعْتُ من مَوْلِدِى أشياء مَـيَّزَتْها من طبائعى وأخـلاقى، على أنَّ واضعِيه أَلْفُـوهُ ونَحْنُ فى حالِ الطفوليَّة، لم يُوصَل إذ ذاك إلى معرِفة شىء من أحوالى، وكتَمَهُ عنِّى سِمَاجَةَ مُدَّةً، حتَّى وقع السِّـفر إلى يدى على غَيْر ظَنٍّ، فشَقَّ ذلك عليـه، خَوْفًا علىَّ

من العُجْب بما كان فيه مَنْصُوصًا من السعادة، فطالَعْتُ منه عجائبَ وغَرائبَ، إذ كان المَوْلِدُ رصْدى، وكان الطالِعُ الحوتَ بأرْبَع دَرَجٍ، وصاحِبُه المُشْتَرِى فى الحادِى عَشَر مع الزُّهَرَة، وسَقَطَتْ الشمسُ فى الدَّلْوِ مع عُطارِد، واتَّفَقَت النَّحْسَانِ فى الثَّورِ بَيْتَ الأُخُوَّة والقَرَابة، وصار القَمَرُ هَيْلاَجًا إذْ كان فى السابع من البُرُوج، فصَلُحَ لذلك لأَجْلِ سُقُوطِ نَيِّرِ النَّوْبَة، والزُّهَرَةُ كَدْخُدَاهُ، دُلَّتْ بمكانها ـ والله أعْلَم ـ على قَولِهم، على سِنِيها الوُسْطَى خَمْسٌ وأربعونَ سَنَةً يزيدُها المُشْتَرِى سِنِيه الصُّغْرَى اثنَىْ عَشَرَ عامًا، فجميعُ ذلك سبعةٌ وخمسون عامًا، والله بغَيْبِه أعلمُ!.

وتكَلَّمَ (الطالِع) على أرْبابِ مُثَلَّثاتِ النَّيِّرِ الدالَّةِ على تقسيمِ السعادة للمَوْلودِ، فكانَ رَبُّ المُثَلَّثَةِ الأُولَى زُحَلَ، ومَعَهُ المِرِّيخ فى بَيْتِ غُرُوبِه، فدَلَّ على أنَّ الثُّلُثَ الأَوَّلَ فيه بَعْضُ التَّقْدِيرِ والتَّنْغيصِ والتكْديرِ، ومِثْلَهُ الثُّلُثُ الثانى الذى لعُطارِد، إذ كان فى بَيْتِ الشَّقَاء والهُمُومِ، مَحْسُوراً بَيْنَ النَّحْسَيْنِ، فَدلَّ على مِثْلِ ذلك وأشَدَّ، كالذى تَبَيَّنَ الآنَ، والقسمةُ الثالثةُ للمُشْتَرِى، وهو فى بيت الرَّجاء والسَّعادِة، فَدَلَّ على ضِدِّ ذلك كُلِّه، وأطْنَبَ فى وَصْفِ السعادةِ فيه، لا أدرِى كيف هو، إذ هو بعيدٌ فى القِياس، قريبٌ فى قدرة الله.

ثمَّ وَصَفَ خَبَرَ الأَمراضِ، فدَلَّ على الأمراض النَّفْسَانيَّة من السَّوْداء وحِدْثانِ النفس بأشياء مُخَوِّفةٍ.

وذكَرَ خَبَرَ البَنين، فقال: حيث شَهِدَ شاهِدٌ، يكونُ الوَلَدُ، وشَهِدَ آخرُ بأَنَّ لا وَلَد، ودَلَّ على القِلَّةِ، إلاَّ أنَّه لا بُدَّ من كَونهم، وإنْ كان ما ذَكَرْناهُ دليلاً على قِلَّتِهمْ، وربَّما كان ذلك فى نِصفِ العُمُر، فظَهَرَ ذلك بنَشْأتِهم الآنَ.

وذَكَرَ خبَـرَ الزهادة فى الحرام كُلِّه، وحَقٌّ ذلك لكُلِّ أحَد، غَـيْر أنَّ الذى يَتَهَيَّأ فى نَصْبِه المَـوْلِدِ أغْلَبُ على الطَّبْعِ، ثمَّ نَظَرَ فى وجْهِ التُعَفُّف، والبَحْث على ما أوْجَبَ ذلك، وأنَّ تلك الزَّهادة من تِلْقَـاءِ نَفْسِه مع سلامةِ المُعْـتَقَد، فإنَّ الـزُّهَرَة، إذ كانت فى أحـد بيوتِ زُحَل، ظَهَـرَ على المَوْلُودِ قُبْحُ ذلك الشَّرَهِ، فَتَعَفَّفٌ، وقال إنَّ حِكْمَتَهُ فى يدَيْه أكْثَر منها فى لِسانه.

ورأى صـاحِبَ بَيْت العَـرْسِ، وهو عُطَـارِد، فى بيت زُحَل، فـدَلَّ على المَيْل إلى الصِّغار ذوى الطبائع العُطارِدِيَّة، مع مُنافَرَةٍ لا تُبيحهُ الشَّرِيعةُ، إذ لم يكُنْ بَيْنَ صاحِبِ العُرْسِ وصاحِبِ الطالِعِ مُواصلَةٌ ولا مُشَاكَلَةٌ.

كُلٌّ هذا قـد عَلِمْناهُ من أنْفُسِنا، كـأنه حاضِـرٌ معـنا، ومُطَّلعٌ علينا، فلم نَشُكَّ فى صحَّتِه بإذن الله، فسُبْحانَ مُصَرِّفُ الأيَّام ومُجْرِى الأفْلاَك!.

(الفَلَكُ مـا استـدار من الأشيـاء، وهو قولُهُ تعـالى: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (الأنبياء: ٣٣) وسَمَّاها سَمَاء، فإنَّ العَرَبَ تدعو كلَّ ما ارتفع سَمَاءَ، فهى، لارتفاعها علينا، سماءٌ، وهَيْئَتُها: فَلَكٌ، لا سَماءٌ).

٨٧- آراء المؤلف فى التنجيم:

ولا يَعْلَم الغَـيْبَ إلا الله، غَـيرَ أنَّ أهل العَـقْل منهم يقـولون: إنَّمـا هى دلائلُ على الخيْـر والشرِّ، ولا يُعْلَمُ بهـا الجَلِيَّةُ، كالغَـيْثِ المنزَل دَليلٌ على نبات الـزرع به، أو كالنار المـشتعـلة بمكان عَلَمٌ أنَّها مُـحْرِقـةٌ، ويحتَـجُّون بحديث الرسول ـ ﷺ ـ فى قـوله: أقْبَلَتْ بحريةٌ، فتشـاءمت، فتلك عينٌ غـدِيقةٌ، ومُـعاناةُ الحكيم المـاهِرِ دَلِيلٌ على بُرْئِه، يرجى له ذلك إن أخَّـرَتْه المُدَّةُ.

وجىء بطبيبٍ عالِمٍ إلى أحد العُظمـاء من بلاد الهِنْد، فلمّا شكا المريضُ إليه، قـال له الحكيم: «قد بريتَ بحول الله!» فلمـا أعْلَمه التُّرْجُمـانُ بقوله، قال العَليلُ: «إن شاء الله!» فأجابَه الحكيمُ: «إنَّ الله قد شاءَ: لم يسُقْنى إليك من أرض الهِنْد إلاَّ وقد قضى بصحتّك!».

وقد أغْلَى أهْلُ الهِنْد فـى هذا العلْم، ومنهم مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًـا، حتَّى إن فيهم من لا يولِّى مَـمْلَكتهم إلاَّ مَنْ شاكَلَ طالعُه طالِـعَ الدولة، وهم يزعمون أنَّ طالِعَ المَلِك، إن لم يكن وَتَدًا من أوْتَادِ المَمْلكَة، أو كـان منها ثانى عَشرَ أو سادِسًا، وأمْكِنةُ الكواكبِ غَيْرُ مُتَّفَقَـة لذلك، فإنَّهُ ينحِسُها، ولو بلغ الجهْدُ من الاحتيـاطِ عليها: إمَّا تُهْلِكهُ، أو يُهْلِكهـا، ضَرُورةً تسوقُه الأقـدارُ إليها، فكانوا يتخيَّرُون الطوالع قبل اختـيار العقول والمذاهب، يَرَوْنَ أنَّ القَدَرَ أغْلبُ من الرأى، ويقولون: «لك سـعادةُ الدولة ومُسـاعَدةُ الأقدار! هَيَّـأت لما هَذِهِ الآراءَ لطولِ المُدَدَ».

ثمَّ إنَّهم يزعمون أنَّ العُمُرَ الطبيعىَّ مائة وعشرون عامًا، وأنَّ القواطِعَ التى تكون قَبْلَهُ إنَّما هى من أحـداثٍ داخلةٍ على الإنسان، عَرَضيَّةٌ، إمَّـا من فساد المزاج، فـتخـورُ الطبيعـة، إذ جعلوا الأربع طبـائع التى فى الإنسان قـوامَه كأركانِ البَيْت، فمَـتَى فسدَتْ منها طبيعةٌ، اعتَلَّ الجِـسْم، وإن تغيَّرَتْ كلُّها، مات، وجـعلوها مُشاكِلةً للأزْمِنة: فالـدَّمُ رَبيعىٌّ، والبَلْغَمُ شِتْوىٌّ، والصَّـفْراءُ صَيْـفِيَّـةٌ، والسَّوْداءُ خَرِيفـيَّةٌ، فـمَنْ عالَجَ كلَّ زمـانٍ منها بضِـدِّه من الأغْذِية والأدْوية، فقد أصاب، ولا باقى مع الله!.

و [لَمّـا] احْتجَّ عليهم بالذى يموت فجأةً أو فى زَحْمَةٍ، أو بأرَقٍّ سَبَبٍ،

وهو يظهر صحيح الجِسْمِ، أضافوا إلى الطِّبِّ من عِلْم النجوم، واتَّفق رأيُهم أن لا فَلْسَفة تتمُّ حتَّى يجمعها، وأنَّ لا قوامَ لأحدِ العلمَين دون الآخَرِ، فقالوا: إنَّما ذلك من الهيَالِيج الساقطة، فإنَّ المَوْلودَ، إذا كانت هَيَاليجُهُ ساهرةً، صحَّ ارتباطُ نفسه بجسمه، فلا تخرجُ إلاَّ عنْ مَشَقَّة مع تمام المُدَّة التى تدلُّ عليها العطِيَّة، وإن كانت هَيَاليجُهُ ساقطةً كلَّها، عرض للموت بأرَقِّ سبب، فإن لم يكن له هَيْلاج، سُيِّرت المَطْلَعيَّة وعُدَّ لها أعوامٌ، ويكون القطْعُ عند تمامها، وقد يكون فى تَحَاوِيل السِّنِينَ، وإن تتمَّ العطِيَّة عند انتهاء صاحِبِ حَدِّ الدَّرجَة إلى موضعِ نحسٍ، قَطْعٌ أو شبه القَطْع، إن لم تُسَاعِده النجومُ السعيدةُ، وسمَّوْهُ الجَانْ بَخْتان، وهو دليلُ الحياة بإذن الله.

ومنهم من رأى ذلك قوَّةً لنفسه، ورضِيَ بما قسم له البارئ ـ عزَّ وجَلَّ ـ فلا ينقد على نفسه، وعيش طيب العَيْش، يدرى أن لا قاطِعَ يقطع به فى تلك المُدَّة، ويُشَجِّع لقول علىٍّ ـ رضي الله عنه ـ لرجُلٍ قد أسَنَّ: «أية شجاعة قد فاتَتْك!» يعنى: لو أنَّكَ قَبْلَ اليوم تدرى أنَّ هذا يكون عُمُرَك لم تُبالِ.

وأمَّا أنا، فَأقول: إنه تأنيسٌ ما لم تقرب المُدَّة، وزيادةٌ فى ألَمِ المَنِيَّة إذا اقْتَرَبَتْ، ولا يكون الطِّبُّ إلاَّ ليُصِحَّ البَدَنَ مُدة الحياة لكراهيَّة العَيْشِ فى نكد، وأمَّا لِدَفْعِ أجَلٍ، فلا ينفع شيءٌ.

٨٨- آراء طبية فى الأغذية والنبيذ:

قال بعض الحكماء: «الناس يعيشون[١] ليأكلوا، ونَحْنُ نأكُلُ لِنَعيشَ!» فتأمَّلْ مَعْناهُ.

وجمع أحَدُ الملوك أطِبَّاءَهُ، فقال لهم: «أعلِمونى بالدواء الذى لا داءَ

(١) فى المطبوع: «يعيشوا».

معه!» فكلُّهم تكلم على الأدْوية والمُـعاناة بها، غَيْرَ واحدٍ منهـم كان أكبرهم سنّا، فـردَّ عليـهم أن: «ليس عـن هذا سألـكم الأمـيرُ! ولـكنَّهُ يأذنُ لى فى الكلام؟» قال: «قُلْ! فأنْتُمُ مَـعْدِنُ الحكْمة والفَلْسَفَةِ!» فقـال «أيُّها الأمير! إن الدواء الذى لا داء معه أن تكونَ، عِنْدَ أخذك للغَذاء، تَتْرُكُ منه بقَدْرِ ما تتمُّ به الشبعة، ولو لُقْمَتَيْنِ، ولا تتملأ! فذاك دواءٌ لا يحتاجُ معه إلى طبيبٍ!».

وذُكِرَ هذا عن الرَّشيد، أنه قُدِّمَ بين يديه قَصْعَةٌ بطعامٍ، فلما أكل قال: «هذا غذاءٌ ودواءٌ! فما زِيدَ عليه كان داءً!» وعلى أنه لكلِّ امرِئٍ من دَهْرِهِ ما تَعَوَّدَ.

وقـال النبيُّ ﷺ: «أصْلُ كلِّ داءِ البُرودة، وأصلُ كلِّ دواءِ الحِـمْيـة!» وقيلَ: «أقْلِلْ طعامًا، تَحمَد منامًا!» وقالت الحُكماءُ: «إنَّ الكثرة والقلَّة عَدُوًّا الطبيعة».

قد نَرَى فى الخَمْـرِ ما، إذا اعتدل مزاجُه منه بالكثـير، لم يجب أن يُقال له: «قَلِّلْ!» ولا من شارِبٍ وافَقَهُ القليلُ، أن يُقال له: «ازْدَدْ!» غيرَ أنَّ العاقِل يَرَى ذلك بحسِّه، ويعلم ما لم يُوافِق طَبْعَه، فلا يزيد عليه شيئًا.

وسُئِل حكيمٌ عن الخَمْـر، فأعابَها، إلاَّ أنَّه قال: «إذا أخـذتَ كَيْفَ يَنْبَغِى ومع من يَنْبَغِـى، فلا بأسَ بها: تفـرح النفس، وتذهب بالهمـوم، وتشجِّع، وتحمل على الفـضائل، والتزيُّدُ منـها شرٌّ مشيرٌ، كمـا أنَّ التقليل منها خـيرٌ كثيرٌ!»(١).

وشبهوا كـثيرَها فى الأبدان مثل التُّرْمُوس الذى إذا أُكْـثِرَ عليه الماء وطال مكثُه، استحال وذهب نورُه.

---

(١) الخمر محرمة شرعًا على جميع الوجـوه، وقد تغير أسلوب المؤلف نحوها فيما يلى بقوله: «لا خير فيما لا تبيحه الشريعة».

وقيل فيها:

سَـــألْت الـشَّــيْخَ بُـقْـــرَاطًا
وبـقْـــــرَاطٌ لـه عَـــــقْـلُ

فَــفَـضْـلٌ مــا لَـهُ شِـبْــهٌ
وطِـبٌّ مـــــا لَهُ مِـــثْـلُ

فـقُـلْتُ: الخـمـرُ تعـجِـبُنى!
فــقـــال: كــثــيــرها قَــتْلُ!

فـــقُلْـتُ: كَمْ تـقـــدُّرُ لى!
فــقـــالَ، وقَــولُه فــصْلُ:

وَجَــــدتُ من طبـــائع
أربـعَـــــــةَ هِـىَ الأصْـلُ

فـــأربعــــةٌ لأربـعَــــةٍ
لكـلِّ طبـــيــعـــــة رِطْلُ

هذا ما قـالَهُ الناسُ، ولا خيـرَ فيمـا لا تبيحُهُ الشريعـة، ولا بأسَ بعِلمِ الشىء عند الحاجة إلى وضْعِه، وبعضُ الشـرِّ أهْوَنُ من بَعْضِه، لمن ابتلِىَ بها أن يأخُذَها على حقِّها.

وقالوا: إنه ممَّا يُولِّد فرحَ النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ النَّرْجِس، كما أنَّ الشربَ بآنية القَزْدِير وشمَّ البَنَفْسَج ممَّا يُولِّد الحزْنَ.

وقالوا: إنَّها من أكبر أدْوِيَة السَّوداءِ فـى تلك الساعة، وتعقُّبُ سَوْدَاءَ أشرَّ من الأولَى إن أكْثـرَ منها، والعِلَّة فى ذلك أنَّه لا خيـرَ فيها إلاَّ مـا رقَّ منها، وحَالَ عليـها الحَوْلُ، وعطرَت رائحتُـه، وهى حارَّةٌ يابِسَةٌ، ثمَّ تستـحِيلُ إلى

البرد عن شـرب الماء للضـرورة، وتَجِدُ الرطبـة منها، كَبِـدِيَّةَ اللَّون، غليظةَ الرَّونَق، مولدةً للدَّمِ والنَّوْمِ، وهى الموافـقةُ لزمان الشتاء، ولْيَتَّـخذْ منها لكلِّ زمان ما يوافقُ طَبيعَتَه، ويخالف هَوَاهُ.

ورأوا أنَّ أخذَها بعد الغَـدَاء بساعة، لِيَنامَ الإنسانُ قَـبْلَها ويُرْوَى من الماء أنْجَعُ له وأنْفَعُ، وكذلك الجِماع أنْفَعُ أن يكون بَعْـدَ سكونِ الأعضاء وتودُّعِها بالنون بعد الطعام، فى صبيحة تلك الليلة، عند تملى الأعضاء، واحتـياجِها إلى إخـراج الفضـول، ونشـاطِها، ولا يكون ذلك عن تـكلُّف، حتَّى تميلَ الطبيعةُ إليه، لا سيَّـما إن ساعَدَتْها النفسُ، ويوافق ذلك الشَّخصُ هَوَاهَا، إذ النفسُ والجِسْم شكلان مُرْتَبطان: متى اعتلَّ أحدهُما، تَضعْضَعَ الآخَر، ومتى صَحَّا جمـيعًا، قَوِيَتِ المنّة وتكاملت الصحَّـة، ويكون ذلك أسرَعَ فى البَاهِ، كما أنَّ المَعِدَةَ متى اشتهَتْ شيئًا، فقد ضمنَتْ هَضمَه.

قال جَالِيـنُوس: «إنَّ المريض الذى يشتهى أرْجَى مِنِّى للصـحيح الذى لا يشـتهى!» ألا تَرَى أن الطبـيبَ الماهر، إذا عـانى العليلَ، وقـاسَ بين دَوَائَيْن يكونُ نجعُـهما واحِـدًا، قَصَـدَ إلى الذى يعلم أنَّ النفسَ عليه أقْـبَلُ فى حال الصحَّة، فَـيَعمده، ألا تَرَى أنَّ شراب السَّـفَرْجَل وشراب السَّكَنْجَبِين فِـعلُهُما واحدٌ، غير أنَّ شراب السَّفَرْجَل ألْيَقُ بالنفس، وهى إليه أشْوَقُ، فيرى الحكيمُ تَوَقَانَه إليه زائدًا عليه فى الدواء[1]، وينجح فيه بالشهوة.

ولم يَرَوْا لشرب الخَمْـرِ عند العطش شيئًا أنْفَعَ من شَرْب المـاءِ، للتَّوَقانِ وإطْفاء الحرارة وقَمْعِ الأبْخِرة.

ولْيَستعْـمِلْ من الطعام ما خَفَّ، ولو عاوَدَهُ فى النهار مـرَّات، فهو أسرَعُ لهَضْـمِهِ وأشْهَى لمَعْـدَتِه، وأخَفُّ على جوَارِحِه، قـال بعضُ الحُكَماء: لأنْ

(١) فى المطبوع: «زائدا على فى الدواء» ولا وجه له.

أتملأ شرابًا أحَبُّ علىَّ من أن أتملأ طعامًا! فإن التُّخمَة، إن تعقّدَتْ، قَتلَتْ، وإن تحلَّلَتْ، أسقمَتْ» قال بعضُ الفلاسفة: «خفِّفوا هذه الأنفس من أوقار الشهوات، لتصعَدَ إلى عالَمِها الأكبَرِ، فتأتيكم بعجائبِ ما هُنالكَ!».

وقالوا فى الشراب إنه يُسَلِّى الهموم، وأنا أقولُ: إنَّها تَهَيِّجُ الهموم، إنما هو ما نزل عليه: إن ألفَتْ سُروراً، حَرَّكَتْ منه ما سكن الإنسان عنه، وإن ألْفَتْ هُمومًا، ذكرَتْ لما هو فيه وأشدَّ منه، وفتقَتْ إلى طُرُق السوء، والهَمُّ إنما يكون بما ينتظر الإنسان من سوء، فذاك الذى لا يُسْلِيهِ عنه شىءٌ، ولا يأتيه منه نعاسٌ، والغمُّ إنما يكون بما مَضَى، فربَّما سلت الخَمْرُ عن بعض ذلك، ولا شىء يولِّد النوم مثل الغمِّ بتذكارِ ما خَلَفَ، أو النَّظَرِ فى كتاب لا ينبغى منه تَعَلُّمًا أكثَرَ من مطالَعة ما مَضَى.

ومن الجُهَّالِ مَنْ يَعْتقِدُ أن العَشاء قريب المنام يُولِّد الرقادَ من أجْل التملِّئ، وأنا أقولُ: إنَّه يمنعه، فإن الحرارة تصعد إلى الدماغ من الأبْخِرة وكلُّ حارٍّ مانعٌ للنوم، كما أنَّ البرد فى الدماغ مُوَلِّدُهُ، ألا تَرَى أنَّ الأدمِغَة الباردة كثيرةُ النزلات من الرطوبات، وتولِّد النسيان؟ والسريعُ الحفظِ قد يكون فى دماغه مَرَارةٌ ويُبُوسةٌ؟ وقلَّ ما تَرَاهُ يَنْزِلُ، وإن كان فلا يدومُ ذلك به، فإنها من فَضَلات الدماغ، وكذلك الجاحظُ العَيْنَيْن يُعرِض عن ذلك، وقَلَّما يَسْلَم من الأمراض والتعَرُّق، والغائرُ العَيْنَيْن عِنْدَهم أصَحُّ بَصراً مع أنَّها من صفات الجَمال إذا قالوا: «هو الغائرُ العَيْنَيْن، الأسيلُ الخَدَّيْن، المُشرِفُ الحاجِبَيْن».

كذلك قَوْلى، وإنه لا يتمُّ لأحَدٍ جمالٌ إن خشنَتْ أطرافُه وامتلأَتْ خدَّاه، وكانت العَرَب تمدح فى الإنسان كِبَرَ رأسِه، وتقول: إنَّه علامةُ السُّؤدُد، ويَمْدَح الغُلامَ الأبْلَهَ العقُول.

وقيل: الجمال فى اللسان، ما كان نـاطِقًا بالصَّواب، ولا خيْرَ فى التَّهَوُّر والإكثارِ بما لا يحتاج، ووَصَفَ بعضُ الشعراء رجلا فيما رثى به، فقال:

لَقَـدْ وَارَى المـقـابِرُ مِنْ شَـرِيكٍ
كَـثِـيـرَ تَحَلُّمٍ وقَـلِيلَ عَـابِ
صَـمُوتًا فى المَـجَـالِس غَيْـرَ عَىٍّ
جَـدِيرًا حِـينَ يَنْطِقُ بـالصَّـوابِ

٨٩- رجع الكلام إلى التنجيم:

وممَّا وَصَفْناه من عِلْم التنجيم، احْتَـجَجْتُ يومًا بِبَعْضِ المنجِّمين أنَّهم على غير شىء، فقـال: إن كُنْتَ نَقمتَ بَأنَّنا نزعم أنَّ الكواكِبَ فاعِلَةٌ أو يَعْلَم أحَدٌ الغَيْب، فَمُحَال ذلك، لا يدَّعيه أحَدٌ، غَيْر أنَّا نقولُ بأنَّها مُصرَّفَةٌ، ألستَ تقول فى الشمس: إنَّ الله خَلَقَـها ضِياء؟ فكذلك أقول فى النجم السـعيد أو النحيس إنَّ الله خَلَقـه لذلك، ثمَّ لا يَعْلَم كَيْفِيَّـة هذه السعادة وصورتَهـا غير الحمَلَة، والله أعْلَمُ بما يَتَهَيَّأُ منها.

«وليسَ منها شىءٌ إلاَّ مُـوافِقٌ للشرائع إذ النَّصْبَـةُ كلُّها مخلوقـةٌ من مُدَبِّر واحِد، لا إله غَيْرَه، فمَـتى كان فى العالم دَوْلَةٌ أو مِلَّةٌ، لم تدلَّ النجوم على غَيْرِها، إذ الحُكْم مِنْ لَدُنِ الواحِد، فأوَّلُ ما نَبتَدِئك به أنَّه ما من طالِع القِران مِلَّةٍ ومَوْلِدِ نبىٍّ إلاَّ وقد شـاكَلَ، واتفقَتْ له من السعادة فى الهيئـة ما خرج به من القوَّة إلى الفِعْل.

«وأُخرَى، ألَيْسَ تقـولُ اليَهُودُ إنهم زُحَـلِيُّون؟ لا شَكَّ فى ذلك! ألا تَرَى اتِّخاذَهم السَّـبْتَ عِيـدًا، وهو لزُحَل، وأخلاقَهم كلهـا مُطابقةٌ لِمَـا يدلُّ عليه

زُحَلُ من البُخْل، والقَذَارة، والخُبث، والمكْر، والخَديعَة؟ ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهم شَمْسِيُّون، لا امْتِراءَ فى ذلك! ألاَ تَرَى أنَّ يومَ الأحَد جُعِلَ لهم عِيداً، وهو يومٌ شَمْسِيٌّ، وطبائعَهم موافقةٌ للشمس، وصُوَرُهم فيها: البَيَاض والحُمْرة والشُّقْرة، والرَّهْبانيَّة فى عُبَّادِهم لعقْم الشمس؟ ثُمَّ المسلمون: أَلَيْسَ هم زُهَرِيِّين؟ والزُّهَرة دالَّة على الدين، والنظافة، والمُروءة، والضوء، والطهر من الجنابة، وإباحة النكاح، والإماء، والطيب والزينة؟ ثم أُمِرْنا باتِّخاذ الجُمُعة عِيداً، وهو يوم الزُّهَرة!.

«ثُمَّ انْظُرْ إلى بُروج الفلك، تقولُ: إنَّ السابِعَ بَيْتُ العُرْسِ، وأكْثَر ما يَسْتَعمِل الناسُ النِّكاحَ فى شهر رَجَب، وهو السابع من أشْهُر العام المؤرَّخ به، الذى أوَّلُه المُحَرَّم، والثامِن من البروج بَيْت الموت والمواريثُ، وشهرُ شَعْبان الثامن من الأشهرُ الذى تُنْسَخ فيه الآجال، والتاسع من البُروج بَيْت الدين والسَّفَر، وشهرُ رَمضان المُعَظَّم، تاسعُ أشْهُر العام، وجب فيه الصوم ومُحَافَظَةُ الشَّرع، والعاشِر بَيْت المُلْك والسُّلطان، واتُّخِذَ العاشِر من الأشهرُ عيداً يَظْهرُ فيه بهاءُ الدين وعِزُّه.

«وقد قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج: ١) وأقْسَمَ ﴿بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ (التكوير: ١٥، ١٦) وهىَ المواكِبُ السيَّارة، ويزعمونَ أنَّ زُحَل هو النجم الثاقب، لأنَّه يفتق بضوئه سبع سمَوات، وأنَّه أعْظَم من الأرض ستة وتسعون مرَّة، وغَيْرُه من الكواكِب قد وصفوا قسمتَها من العظم على الأرض، غير القمَر وعُطارِد، فإنَّهما[1] أصْغَر من الأرض، وأنَّ الشمس أعْظَمُ من الدُّنيا مائة وثمانون ضِعفًا، ولكلِّ كَوكَبٍ منها مُدَّةٌ يقطع

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «فإنها».

فيها الفلكَ، ورُتْبةٌ هَيَّأها له بارئُه ـ عزَّ وجلَّ ـ وإنَّ العالَمَ السُّفْلىَّ مُتعلِّقٌ بالعُلْوىِّ، مؤثِّرٌ به بإذنِ ربِّه».

ومنهم من قال: لأىِّ شىء تُنسَبُ إلينا الزَّنْدقة؟ ولم نُنكِر الخالق، وإنما تكلَّمنا فى المخلوقات، فيُوصَف كلُّ مخلوقٍ بما يُدْرِكه عِلْم الإنسان، كواصِف رَجُلٍ أو شَجَرٍ أو جَبَلٍ!».

وذُكِرَ عن حكيم أنَّه رُئِى بالمُصْحَف عن يمينه، والأسْطُرْلاب عن شماله، فسُئِلَ ما الذى أوجب جَمْعَهُما[1] لديْه، فقال: «أتلو فى المُصْحَف كلامَ الله، وأعتَبِرُ فى الأسْطُرْلاب خلْقَ الله، وعلم الهَيْئة عِبادةٌ!».

وإنه لمَّا نُصَّ علىَّ هذه المقالة، كان جوابى عنها: «كلُّ ما تقول يشبه يكون من موافقة أهل السُّنَّة بما احتَجَجْتُم به، غَيْر أنكم خالَفْتم القرآنَ فى قولكم «يكون» و «لا يكون» والله يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥) فقالوا: «لَسْنا نقطع عن الأمر أنَّه يكون، ولا نقول إلاَّ أنَّه يدلُّ، ونأتى بحُجَّةٍ إلاَّ يتمُّ شَرْحُها اللَّهُمَّ! إذ قُلْنا: هذا مَولِدٌ سعيدٌ، هل نقدر على شرح تلك السعادة والكائن فيها، ومنَّا مَن يتحرَّى، فيعدل ولا يتكلم على شىء، وقَوْلُنا هذا كقَوْل من رأى سحَابًا ثقالاً فيقول: «هذه تدُلُّ على الماء الكثير» هَلْ قائلٌ ذلك مُلْحدٌ؟ ثمَّ الله يفعل ما يشاءُ.

وهذا أيضًا ممَّا قدَّمْنا ذِكْرَه صَدْرَ الكتاب أنَّ كلَّ مفتون مُلَقَّنٌ حُجَّتَهُ، والله يقول: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف: ٥٤) على أنَّ الحقَّ عليه نورٌ لا يخفى، تقول العرَب: «الحقُّ أبْلَج، والباطِل لَجلَج» قال المأمون: «لا أغْتَبِطْ بأيَّام السرور مُذ عَلِمْتُ التنجيم، ولا استمريتُ الطعام مُذ عَلِمْتُ الطِّبَّ، ولا طابَ لى النوم مُذ عَلِمْتُ عبارة الرؤيا!».

---

(١) فى المطبوع: «جَمْعَها».

٩٠- مسائل فلكية:

ويزعمون أنَّ الليل ظِلُّ الأرض، ولا ضياء غير الشمس، فبإشراقِها على الأرض عند طلوعها، كان النهار، وبدخولها تحت الأرض، رجع الظِّلُّ طالعًا، فأظْلَمَ الليل.

وبَعْضُهم من قرأ أن الشمس تجرى، لا مُسْتَقَرَّ لها، إذ يقولون: إنَّ الشمس لا تستَقِرُّ بمكان، إذ لا يصحُّ أن يكون المكان إلاَّ أعظم من الذى تَحِلُّ فيه، ولا أعظم من الشمس إلاَّ الفلك، والفلكُ دَوَّارٌ.

وقالوا فى الكسوف: إنَّ الكلام فيه ما يمكن إلاَّ بالوقوف على صورة الهَيْئَة، ولولا ذلك، لم يَجِد القول، وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف الذى حُدَّ أمْرُهُ وَقْتَ انجلائِه ومَبْلَغِ المُنْكَسَف منه، وإن الشمس فى ذاتها لا يعرضها شىء غير أنَّ جرم القَمَر يحول بَيْنها وَبيْن الأرض متى قابَلَها، وكُسوف القمر من مُقابَلَة الأرض.

وزعموا أنَّ ضوءَ الكواكب والقمر من الشمس، وأنَّها أجْرامٌ شَفَّافةٌ تكْتسى النور من النَّيِّر الأعظم، فيبدو ضوؤُها بغَيْبِها، ويطمس عليها طلوعها، وهو قول الشاعر فى ذلك:

لأنَّكَ شَمْسٌ والمُلوكُ كَواكِبُ

إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

٩١- تحديد العلوم الطبيعية والطب:

وقال أهْلُ الطبيعة: إنَّ لا حَيَوان إلاَّ بالحرارة والرطوبة، أيْنَما كان الماءُ والشمس تولَّد فيه الحَيوان، وقد يكون من غير نسلٍ، ونَرَى حَيَوانًا يكون فى جوف صَخْرةٍ صَمَّاءَ مُلَمْلَمَةٍ، والله يخلق ما يشاءُ، قال تعالى:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦٠، ٦١) وذُكِرَ عن الحجَّاج أنَّهُ رئى فى المنام على حالة حسنة، فسُئِلَ عن ذلك، على ما كان من جوره، فقال: «رَحِمَنى ربِّى بكَلِمةٍ قُلْتُها: مَرَرْتُ يومًا على زرعٍ، فقُلْتُ: لو شاء الله، لأنبتَهُ فى النار واليَفَاع!» (أى فى الصحارى التى لا ماءَ فيها) وقال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨).

ولم يبلغ الإنسان بعِلْمِه أكْثَر من معرفة الطبيعة: علاجُ ضعيف لا يرفع قدرًا أكثر من تقويم المزاج عند انحرافه، فعالجوا الأبدان بما أدركَتْهُ، عقولُهم، وجرَّبوه بأعمارهم، وتركوه سلفًا فى الأواخر، فكلٌّ يُعَانى على مقدار تَجْرِبَتِه...[1] ولا يوافِقُ القِراءَةَ حَظًا حسنًا ومَعْرِفةً بهذا الشأن، فقد أَخْطأ وتكلَّفَ، وقالوا: إنَّ الدواء المُسَهِّلَ للجسم بمنزلة الصابون للثوب: يُنقيِّه ويحلقه، فاستعمالُه فى زمان الخريف أوْلَى فى سُلطان السَّوْداء فيه، كما أنَّ استعمالَ الفَصْد فى زمان الربيع تخفيفٌ لا يحظى من أخرج فيه الدم، وإنَّ أشْبَهَ شىء الأغْذية بمزاج الإنسان: فالخُبْزُ النَّقِىُّ واللحم الثَّنِىُّ والشراب الحَوْلِىُّ، فمَن اقتصر على هذه دون تخليط لم يزل صحيحَ الجسم، قوىَّ البِنْيَة.

وقيل لجالينوس الحكيم، وكان فى زمان المسيح ـ عليه السلام: «إنَّ الله أرسل نبيًا يبرئ الأكْمَه والأبْرَصَ!» فقال: «وأنا أُعالِجُ الأكْمَهَ والأبْرَص!» فلمَّا قيل: «يُحْيِى الموتَى» لم يُصَدِّق ذلك حتى رآه مُعايَنةً حقًّا.

---

(١) بياض بالأصل.

٩٢- نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم:

وتُنْكِرُ الحُكَماءُ ما يزعم الناسُ من رُؤية الجنّ، وتُكَذِّب من يقول بسماع نُطْقِهم أو كلامهم على ألْسِنة البشر، وتقول: إنَّه لا يتكلَّم إلا من له لِسانٌ وآلة تُعينه، وإلاَّ، فكَيْف تنطق ريحٌ تهبُّ؟ إنما هو بِرْسامٌ يعرض فى دماغ مَن يَدَّعى ذلك، فيتصوَّرُ فى دماغه أمرٌ ما يخيَّل له بفساده أنه يتكلَّم ويسمع، ما ليس منه شىء على حقيقةٍ، فيَهْذِى هذيانًا، ضَرْبًا من الروحانية التى يكون الإنسان، مُفكرًا فى بلدةٍ أو شَخْصٍ أو صورةٍ من الصُّوَر: إذا حَدَّثَتْهُ نَفْسُه بها، صار كالناظِر إليها، وإن سدَّ عَيْنَيْه، أو كالنائم يرى ما تُحَدِّثُه به نفسه، أو كالناظِر فى المِرآة يَرَى ما ليس بِمَوْجود، هذا لعمرى مَذْهَبٌ خُولفَ به طريقُ السُّنَّة، والله يقول: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ (النمل: ٣٩) وقَولُه: ﴿يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: ٢٧) وهذا دَليلٌ على أنَّه لا يكون النطقُ إلاَّ بِلِسانٍ، ولا المروِيَّة إلاَّ ببَصَرٍ ليس على خِلْقة الإنس، كلٌّ على جِبِلَّتِهِ، يَرَى ويسمع ويعقل.

ولولا ذلك لم تَدِنْ، ولا سبَّحَتْ، ولا اهْتَدَتْ لِمَا يُسِّرَتْ له، إنَّ الطَّير التى هى عندنا لا تعقل وَصَفَها الله بمعرفَتِه، فقال: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور: ٤١) وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤) ووَصَفَ بالسجودِ النجم والشجر والدوابَّ التى هى عندنا جوَامِدُ، فكَيْفَ أحَدُ الثَّقَلَيْنِ اللَّذَيْن بُشِّرا بالثواب، وأُنْذِرا بالعِقاب، وخُوطِبَا بما خُوطِبَ به الإنْسُ، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ (الأنعام: ١٣٠).

فمن لا يؤمنُ بأنَّهم لا يتكلَّمون ويعقلون، فـلا يؤمن بالملائكة، ويحتاج أن يكون قـولُه هذا نسـقًـا فى كلٍّ من ليس له لسـانٌ وجَـوارِحُ أنَّه لا يتكلَّم بجَوارِحِ الإنسان، فالملائكة لا توصَف بِيَدٍ ولا لسان، وهُم المنْزَلون بالوَحْى على الأنبيـاء والمُخـاطِبـون لهم بالكُتُب والسُّنَّة: فـلا يؤمن بالرسـالة مَنْ يَتمَذْهَبُ بهذا.

٩٣- حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب:

وقالوا: إنَّ الجمـاع من أكبَرِ أدْوِيَةِ السَّوْداء لسرورِ تلك السـاعِة، ودُخول الحمَّام، لما يعرض الإنسان من الانطراب فـيه، مَنْ سرَّه أن تقرَّ عينُه حياتَه، فَلْيتمتَّعْ ما وَجَدَ سهولةَ شَـهْوَتِهِ، ومَنِ اغْتنَمَ ساعةَ لذَّتِهِ، فقد غَنِم[1]، ومـن أخَّرَها، فقد عَدِمَ! فإن الإنسانَ ابنُ الآن!.

وقالوا فى الجلوس على المِيَاه والرَّيَاحـين ممّا يُسْلِي العاشق ويتداوى من أحزانه به.

وأمّا أنا، فـأقولُ: إنَّ ذلك يزيد فى تَذْكارِه، ونقـيم البُرْهانَ على ذلك أنَّ النفسَ لا تولع إلاَّ بما اسـتَحْسَنَتْ، فكلُّ مُـسْتَحْـسَنٍ تَراهُ يُخْرِجُهـا إلى ذكر الأسْنى فى خاطِرِها، وكلُّ حَـدِيث إنما يسوقه إليـه، وكلُّ ما زيدَ تَذْكاراً زاد شوْقًا، فأعقبه سَهَراً وقَلقًا، والشيءُ لا يُعَانَى إلا بضدِّه: فكيفَ يشغف بحسنٍ ويُسليـه حُسْنٌ؟ بل يُوقظه ويشـغله! ألا تَرَى أنَّ المكروبَ يتـفَرَّج بالسُّـرور، والسُّرورَ، يضمحلُّ بالكَدَرِ؟.

وليـس لعاشِق مُزَّاٍ بمـالٍ ولا أهل، فيتسلَّى بما يُذهب غُـمومَه، بل هو من شـأنه فى لَذَّةٍ حلاوتُها مشوبَةٌ بحرارَةٍ: وهو حكْمُ الحلو كلِّه فى المُذَاقَة،

---

(١) فى المطبوع: «عنم» بالعين المهملة.

لا يكون إلاَّ مائلاً إلى الحَـرارَة؟ وكذلك فى المُشَـهَّيَات(١): كلُّ مـا تَمَّتْ حَرَارَتهُ، طابَ ريحهُ.

وإذا قاس حالَ أزمنته التى كانت تَسُـرُّه على ضروب من حالات الصبوة، لم يَجِدْ فيها مـدَّةً كانت عنده أفضَلَ، وأبْلَغَ فى السرور، وأهَشَّ للنفس وألْيَق بالحِسِّ وأذكَى للقلب، وأصفَى مشربًـا، وأهْـنَـأ طَعْمًا، من تلك المُدَّة، وإنْ كان فيـها بعضُ جوًى، فإنَّه «لا بُدَّ بعد الشُّـهْدِ من إِبَرِ النَّحْلِ» ودواؤُهُ، ما لا يَرْضاهُ، ولا يختاره بدلاً مما هو فـيه، إن يَشْغَلْه من ذلك خَطْبٌ كبيرٌ، ينسى به ما كان عليه، والذى هو بسبيله عنده أوْلَى.

٩٤- تأملات نظرية وأمثلة:

يضربها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا:

والصَّبوة تُحدُث للإنسان هَيَجانًا وهُمُومًا: كالمُـهْتَمِّ بالنظر فى ماله، أو المُشَغَّب بِمُـحاولَة ما يُصْلِحُه، فليس كلُّ شـغب ضارًا، بل يؤلم منه مُكابَدة الأعداء ومقاساة طَلَب العـيش، الذى، إن فتر عنه شَقِيُّ، لا طَلَب الزيادة فى الرزْق، فإن ذلك يَسْعَى كالبَطِرِ الذى هو بالخيار فى الكدِّ والراحة.

والنفسُ تَوَّاقَةٌ متى سَمعَتْ إلى مَرْتَبَـة، تاقَتْ إلى ما فوقها، فالعاقِلُ يَرَى أنَّ كُلَّ كَدٍّ وطَلَبٍ دون السَّـعْى فى طَلَبِ ما لا بُدَّ منه من قِـوام العيش فَـخْرٌ وأشَرٌ ورَغْـبةٌ وحِرْصٌ، ولـذلك هو الإنسانُ عن كلِّ شىء مَـسْئُولٌ، إلاَّ عن ثلاثة: طعامٌ يسدُّ جوعَه، وثوبٌ يسـتر عورَته، وبَيْتٌ يكنُّه من الشمس، ولو أنَّ له الدُّنيا أجْمَع، لـم يكن له منها زائدًا إلاَّ حظُّ العَيْن الذى يستـوى به فيه مع غَيْره من الناظرين، فـسلم من تبعاته(٢)، وتورَّط هو فى حِـسابه وأوزاره،

---

(١) فى المطبوع: «المُشْتَهات».

(٢) فى المطبوع: «تعباته».

وما كان إلى انقطاع ونفـاد، فحقيقٌ على اللبيب أن يزهد فـيه، لو آلَتْ حالُه إلى السلامة بعد ذهابه، لا عَلَيْـه ولا لَهُ، فكيفَ، وهو قد أيْقَنَ بالفَناء وبَعْدَه الحسابُ والجَنَّةُ أو النار؟ وقـال المَسيح ـ عليـه السلام ـ: «الدُّنْيـا قَنْطَرَةٌ: فاعبُروها ولا تَعْمُروها!».

وعلى أنَّه لا يُوجَد أحَدٌ يزهد فى حالٍ كلَّ الزهادة، حتَّى يبلغ منه أمَلَه أو بَعْضه، فـإن الزهادة الطبيعيَّـة إنما تكون فيما تكْرَهُ النفـسُ، ولا بُدَّ من مَيْلها إلى ما فيه أدْنَى سُرورٍ، والله يقول فى الإنسان، لعِلْمه به: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العـاديات: ٧) فكأنَّ الشيء، إذا أُدْرِكَ، انصـرفت عنه النفسُ لبُلوغ نَهْمتِها، ومتى تمنَّع عليها، كانت به أشَدَّ كَلَفًا.

ولقـد بَلَوْتُ من نفـسى بَعْضَ ذلك، إذ الطبعُ البَـشَرىُّ واحِـدٌ، لا يكاد يَخْتَـلِف إلاَّ فى الأقَلِّ، ولذلك أُمِرَ الإنسـانُ أن يحبَّ لأبناءِ جنسه مـا يحبُّ لنفسه، حَضًا[1] على العَدْل والإنصاف.

وأَجدُنى فى كثرة المال، بَعْـدَ تَمَلُّكى عليه مع ذهابه، أزْهَدَ مِنِّى فيه قَبْل اكْتِسَابه، مع شُفُوفِ الحـال إذ ذاك على ما هى عليه الآن، وكذلك شأنى كلُّه فى كلِّ مـا أدركْتُهُ قَـبْلُ من الأمْرِ والنَّهْـى، واكتسـابِ الذخائر، والتـأنُّقِ فى المَطاعِمِ والملابس والمراكب والمبانى، ومـا شاكلَ من الأحوال الرفيعة التى نشأنا عليها، حتَّى إنه لم يَبْقَ من ذلك ما تَتَمَنَّاهُ النفسُ، وما لا تظنُّه، إلاَّ وقد بَلَغْنا منه الغايـة، وتجاوَزْنا فيه النهـاية، ولم يكنِ عند الحصـول عليه ينقطع ويذهب وشيكًا، فتطول عليه الحسـرةُ، ويُعَدُّ من جملة الأحلام! بل، تمادَى برهةً من عِشْرين عامًا، وما كان قَبْلَهُ يكاد أن يؤَارِيه، إذ رُبِّينَا فى حِجْرِه.

ووَجَدْتُنِى، بعد فَقْـد هذا كلِّه، على الوَلَدِ أَحْرَصَ مِنِّى على ما سِواهُ من

(١) فى المطبوع: «حظا».

كلٍّ ما وَصَفْنا، لعُدْمِه ذلك الوقت، وقلتُ في نفسي: «الغايةُ التي إليها يَسْعَى الناسُ من أمْـر دُنْياهـم، قد أدْركناها، وشُـهِرْنـا بها في الآفـاق، ولا بُدَّ من فَقْدِها، باكرًا كان أو مُؤخرًا، بحياةٍ أو موت! فنحسب هذه العشرين عامًا هي مائة عام، إذا تمَّت، سواء، وكأن لم تغْنَ بالأمْس! ونَحْنُ الآنَ جُدراءُ بالنظر فيما نَبْتَغيه، ولله أن يَقْضِيَ ما شاءَ!».

وقِيلَ لرَجُل حَرَّاث: «هَلْ زرعتُمْ؟» فـقال: حرَثنا، واللهُ الزارِعُ!» وكذلك ذُكِرَ أنَّه لم يَـبْقَ من المُتوَكلِّـين على الله غَيْر الـمُزارِعين، فـإنَّهم يدفنون في الأرض أقواتَهم ويطلبون فَضْلَ الله وبركَتَه.

٩٥- يتحدث المؤلف عن أولاده:

وكان تدبيرُنا هذا إلهـامًا لينفذ القَدَر، بكَوْنِ مَنْ نشأ من الولَدِ، لم يتـبعَّد وقته، ولا كان في غير مكانه.

(وذكر الفَـلاسِفـةُ أنَّ الوَحْيَ يتجـزأ على ثلاث: كلامٌ، وإلْهـامٌ، ومَنامٌ، وهو قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (النحل: ٦٨) وقيلَ في قوله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (القصص: ٨) إنَّما كان وَحْيَ إلْهَامٍ، وكان النبيُّ ـ ﷺ ـ يقـول في بعض أقسامه: «لا! ومُقَلِّبِ الـقلوبِ!» فإنَّها بين يدي الرحمن يُقَلِّبُها كيف شاء لِيُنَفِّذَ فيه أحكامَه وتجري عليها أقدارُهُ).

فما بَقِيَ لنا من الآمال غَيْر مالٍ حَلالٍ للمعاش، يغني عن السؤال، وعَمَلٍ صالحٍ للمَعاد، يُنجي من العقابِ ويوجب الثواب.

وقد كان سُـقْرَاط الحكيم يكْرَه الوطأ مدَّة عُـمُره، يَعْتَقِدُ بذلـك أنَّه مُهْرِمٌ للجسم ومُسْرِعٌ إلى الفناء، فقد قيل: إنَّ فـاعِلَ ذلك مُقْتَبِسٌ من حَياتِهِ، فمن

شاءَ، فَلْيُقَلِّلْ، ومن شاءَ فَلْيُكْثِرْ! ولهذا أرجح الجاحِظُ فى «كتاب الحَيَوان» بَأنَّ الخصىَّ إنَّما طال عُمُره من أنَّه لا يُجامِع.

وأمَّا أنا فأقول(١): إنَّ تلك الساعة التى يستحيل فيها عن الإنسانيَّة بقطْعِه إلى [الحيوانية](٢) أشَدُّ استِفْراغًا، وأذْهَبُ لجَوْهَرِيَّته، وأقطع لعُروقِهِ من أن لو جامَعَ كلَّ يوم فى عُمُره عشر مرَّات، لأنَّ المُجامِعَ مُخْرِجٌ للفضول، وهذا خُرِّج منه الجَوْهَرُ، وفُرِّغَتْ عروقُه، ولُيِّنَتْ لحمُه، وأُضْعِفَتْ عُصُبُه، وأرْخَتْ جِلْدَتُهُ.

ولمَّا كَبِرَ سِنَّ سُقْراط، وعَلِمَ أنَّه ليسَ بعد الكِبَر إلاَّ الموت، جَامَعَ مَرَّةً من عُمُرِه، آخِرَ زمانِه، وتأوَّلَ فى ذلك إتمامًا لحكمة البارئ ـ عزَّ وجلَّ ـ وقال: «لم تكن حِكمةُ النسل إلاَّ بهذا الفعل، وإنْ أنا مُتُّ تارِكًا له أصلاً، كُنْتُ كالساخِط أو المُعنِّت لِمَا رتَّبَه الرَّبُّ، وعَسَى بذلك نستوجب عقابَه!» ثمَّ قال، إذا حضره الموت: «ما أظُنُّ عيبًا علىَّ إلاَّ مُجامَعة تلك الساعة!».

وكان من نِعْمة الله علىَّ إن رزَقنى بِكْرَ أولادى ابنة، لم يَزَل قَبيلُنا كلُّه يتبرَّك بها، ويكْرَه أن يكون بِكْرُهُ ابنًا ذَكَرًا، وقد رأينا فى سَيْف الدوله أبينا ـ رحمه الله ـ أن لم تتمَّ له فرحتُه بِذلك، على أنَّ هذا ليس على العموم، وإنَّما ذَكَرْناه للتفاؤُل، إذ قال نَبيُّنا ـ ﷺ ـ: «تَفَاءَلُوا ولا تَطَيَّروا!» فَنَحْنُ قد تَفَاءَلْنا، لا سيَّما بما شهر عند أهالينا وقالوهُ قديمًا، ولو كان ضِدَّهُ، ما ذَكَرْناهُ، للنهى عنه.

ثمَّ رزَقنا بعد هذا ابنَيْنِ، لم نُبَشَّرْ بالاثنين، كى لا يجتمع علينا حزنُ ذلك مع ما نَحْنُ فى سبيله، لُطْفًا من الوهَّاب وإنعامًا وإحسانًا، فتَعْدادُ نِعَمِ الله

(١) فى المطبوع: «أقول».

(٢) مكان ما بين الحاصرتين بياض بالأصل.

0belkandi.com

شُكْرٌ لها، والإعلانُ عى وَجْهِ الشكر والتقـوى، لا على الفَخْرِ والخُيَلاء، من أوْجَبِ ما يأخذ به الإنسانُ نَفْسَه، قال النبيُّ ـ ﷺ : «أنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدم، ولا فَخْر، وأنَا أفصَحُ العَرَبِ، ولا فَخْر!».

٩٦- توجه المؤلف الحديث إلى قرائه ـ راضين عنه أو ساخطين عليه:

ثمَّ انصرف وَجْهُ اهتبالِنا إلى وَضْع هذا الكتاب، وهو لَعَمرى بمنزلة الابْنِ الذى يُبْقِى ذِكْرَ أبـيه فى العالَم، لنُبَيِّن به عن أنْفُسنا مـا أشكل على الجاهِل من مقالة سوء [فى دَوْلَةٍ] زَعَمَ الحاسدون أنَّ منها كان سقوطُنا، ولن نعدم مع هذا بَرَكَتَـها لِمَا نرجـوه من ثوابنا، وحَسَناته لبُـعْدِنا منها ونَـزَاهتنا عنها، وإنَّمـا وَضَعنا هذا الكتـاب لمن أشكل عليـه الأمْرُ من أهل الفـضل والحقِّ، المُحبِّين لله فينا، الوادِّين الخَيْرَ لنا، ولا يزيد البُغاة إلاَّ طغيانًا وتَعَنيتًا.

فنرُدُّ على أهلِ الإنصاف وذوى الألـباب: «إنَّكم أنتُم المخَـاطَبُون من الله ورسوله! فعَلَيْكم اعـتِمادُنا، وإيَّاكم خاطَبْنا، ولكُم ما تـكلَّفْنا! فلا عَمِىَ بكم عن المعرفة تحيدُكم عن المِنهـاج، ولا شنَآن لِتِرَةٍ سَلَفَتْ تُحرِّفكم إلى نفثات الحاقدين! والله يجعلنا فى الجنَّة إخوانًا، كما جَعَلَنا على الخَيْر أعوانًا!».

ونَرُدُّ على من اعْتَرَضَ جَـهْلاً أو حِقْدًا: «اخسـأ بِجَهْلك، ومُتْ بِغَيْظك! فلَيْسَت الأقدارُ جاريةً على اختيارك، ولا أنت المُخاطَب! بل تأخُذ بأدَبِ الله تعـالى لنبيِّـه ـ ﷺ ـ فى قـوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) وهل تنقمك، أيُّها الطاعِن لنا، أن ورثنا مُلْكًا عن آباء كِرام، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمُرك كلِّه؟ إذ قالت العُلَمَاءُ إنَّه من عاش ذا فَضْلٍ على نفسه وأصحـابه، فهو، وإن قَصُرَ عُمُرُهُ، طويـلُ العُمُر، مع أنَّه كان فى

طاعةٍ لم تُوصَف مقدمًا، بحمـد الله، بجورٍ ولا طغيان، ولا سَفَكْنا دمًا، ولا غَصَبْنا مالاً، وكانت مُدَّتُنا فيه نحـو من عشرين عامًا خَيْرًا من سِنِينَ، إذ لَيْلة القَدْر خَيْر من ألف شهرٍ، وتمامُ المـدد على قديم الدَّهْر عادةٌ لا تُستغرَب لنا خاصَّةً، ولا بُدَّ من الفراق! فلله الحمدُ إذ لم نفقدها بفَقْد عقولنا ولا أدياننا، ولا تمَّتْ بنفادِ أعمـارِنا: فَيومٌ من عُمُـرِ الإنسانِ يذكر الله فيه خَـيْرٌ من تَمامِ عَمَله، ومَيْتَةٌ على بلاء وتذكارٍ خَيْرٌ من مَيْتةٍ على فِتْنةٍ غَفْلَةً.

٩٧- يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء. حياته الخاصة

ثمَّ أضْرَبْتُ عن وَصْف كلِّ جـميلٍ فَـعَلْناهُ، وحَزْمٍ استَـشْعَرْناهُ، وخِـدْمةٍ للدولة تكلَّفْناها.

وطَلَبْتُ بُنَيَّات الطريق، وتَتَـبَّعْتُ ما لا عارَ فيـه على الملِك، ولا نَقْصانَ في المـمْلكة، من راحةٍ تُخْـتَلَسُ عند الفراغ من الشـغل كي تعقب نَـشَاطًا، وعمَّـا دُفِعْنا إليه تَسْلِيَـةً، فقد قـالت الحُكماءُ: «تَرْكُ اللذَّات يُعْـقِب البَرَدَة، ويؤثِر في الجِلْد أدْواءَ مُنْكَرَةً»، وقيـل: إذا لم يكن للمرء على البقاء مَـقْدُرَة، فَلْيتمتَّع، فإن تَرْكَ ذلك للنفوس.

فهَـجَّنْتَنا بِلَفْظك، وأخرَجْـتَهـا من حيِّز الهَـزْل إلى الجدِّ، وكُنْتَ كَـجَارِ سُبَّة: إن رأى حـسنةً، كتَمَها، وإن رأى سيِّـئة، أذاعهَا، فطَفَّفْتَ وأربَيْتَ إن افْتَرَيْتَ، وما أذَعْتَ هذا، وأنت تَعْلَم أنَّه لم أكُن مخلوعَ العذار، ولا أخلدتُ إلى راحة توجب الغفلة، كالذي صَنَعَ من كـان قَبْلَنا من الملوك، وتَعَفَّفْنا عن الدماء والأموال والحُرم!.

ولم يَبْقَ لك مـا تقول: «إنَّما كـان صاحِبُ غَـرْناطة حريصًا عـلى جَمْعِ

المال، مُحِبّا في الحِسان، يُنادم الصبيان!» [وإذا] لم تُحْسِن الرويّة، ولا ظَنَنْتُه فكراً.

ألَسْتَ تعلَم، أيُّها الجاهل، أنَّ الملِكَ لا ينتفِع من المال إلاَّ بما كان أوقاراً؟ وهَل استوجب الملِكُ إلاَّ بذلك؟ وكَيْفَ لا يحرص على صيانةِ عِزِّه والعُدَّة على عدوِّه؟ ما أنساكَ لو علِمْتَ أنَّه منَعَ من حقٍّ أو أعطَى في غَيْرِ ما يجب؟ فقُلْ متَى ضاع معْقِلٌ، أو رفض جُنْداً، ودخلَتْ داخلةٌ من التقتير أو المنع؟ أو متَى شكا رجلٌ من المسلمين أنه أخَذَ مالاً بغَيْرِ حق؟ لم تستَطِعْ على تزوير ذلك! فالأَغْلَبُ يعلم صِحَّته، وأكثرُ من قَوْلك متى خرج من عنده شاعرٌ بصلَةٍ جزْلةٍ، أو متى خرج [مادحٌ] بكسوةٍ سَنِيَّةٍ: أمرٌ لا يحتاجُ فيه إلى اعتذار، إذ العمَل به من الأدبار.

وأمَّا مُنادمَة الصبيان، فإذ لم يكن بُدٌّ من استعمال شيء من الخمْر، التى قد تاب الله علينا منها، فما لِلعُقار والريّار؟ ليس هذا مَجْلسَ حكْمٍ: فيُتَخَيَّرَ له ذَوو الأسنان، ولا وُضِعَ لتدبيرِ رأى، فيُشاوَرَ فيه أهْلُ العِلْم، ولا مَيْدانَ حَرْب، فيُدْعَى إليه أنجادُ الفُرسان! ولكُلٍّ وقتٍ حِكَمٌ: من استعمل فيه غَيْرَ شاكِلَتِه، فقد جَهِلَ، ولم نكُنْ مع هذا نأخُذُ معهم في جِدٍّ، ولا نُمكِّنُهم من أمرٍ، ولا نُنهضُهم إلى غَيْرِ طريقَتِهم؟.

والمُستعملون لخدْمة الدولة مَشْهُورُون، ممَّن له حنكة ودربة: والخديمُ لا يكون نَدِيمًا: كَيْفَ تَصُولُ اليَوْم على من اطَّلَعَ على عَوْراتك البارحة، إذ السُّكر عورةٌ؟ أم كَيْفَ تأمُرُ بخِدْمةِ الجُنْدِية والشدَّة عليه في الخروج مَنْ تَعاطَى معك الكأسَ، وكثَّر معك المزاح والعَرْبَدة؟ ثمَّ تطلبُه لخِدمَتِك، فتَجِدُه عَشُولاً عمَّا يصلحك مَشْغُولاً.

ويغَيْـرِ هذا كلّه، فإن الدُّوَلَ الكـبارَ لم يَزَلْ فيـها الغِلْمـانُ وأبناءُ الصنائع صغاراً وكِبـاراً، عَبيدًا وأحْراراً، وهُمْ بين يدى الرئيس جَمَـالٌ، وعلى خِدْمَتِه أعْوانٌ، ويتصرَّفُ الصغيرُ السنِّ فيما لا ينبغى للمُسِنِّ أن يتولاهُ، ولِكُلٍّ دَرَجَتُهُ ورُتْبَتُهُ، وهَل المُلْكُ والمالُ إلاَّ للتزيُّنِ والتـجمُّل به، وانتخابُ الحِسان منهم تليقُ بهم الكسـوةُ السنيَّـة والمراكِبُ الفـارهة؟ وأخُوكَ من وَاتَاكَ، إذ يتـعبَّـد بمالِكَ من شئتَ يتعبَّد [خِدْمَتَك من] حُرٌّ أو مَمْلوكٍ، وإنَّ ابنَ الإنسان، إذا لم يَصْلُح له...[1] إن يَقُلْ هذراً، أىَّ عَمَلٍ ولَّيْناهُ على بلدة، أو صرَّفْنا إليه حُكْمَ رَعِـيَّةٍ؟ إلاَّ مـا وَصَـفْناه، لا أدرى غَـيْره وإلاَّ... فـتكون مُـجْرِحًـا، ولإشارَتِكَ عاضداً، أو تكون قاذفًا مُسْتَوْجِبًا!.

جَعَلَنا الله وإيَّاكَ عن الشرِّ مُعْرِضين، وبطاعته عامِلين! إنه أكْرَمُ الأكْرَمين! لا رَبَّ غَيْرَه، ولا إلهَ حَقٌّ حاشاهُ!.

كمل الكتاب، والحمدُ لله، وصلَّى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا

(١) مكان النقط بياض بالأصل.

الملحق الأول

منتخبات عن «كتاب البيان المغرب»[1]
لابن عذارى المراكشى
عن دولة الأمير عبد الله بن بلكين بن زيرى

obeikandl.com

(١) فى هامش المطبوع: عن مخطوط مكتبة جامع القرويين بفاس (رقم ١٨٥٥) لم ينشر نصه إلى الآن.

obeikandl.com

(١)

وفى سنة ٤٦٥، كانت وفاة باديس بن حَبُّوس على قول المُرَادى، والأكثرون على أنَّ وفاته كانت ٤٦٩، هكذا ذكر ابن القطَّان فى «نَظْم الجُمَان».

ذكر بيعة حفيد باديس بن حبوس

هو عبد الله بن بُلُكِّين الهالك بتدبير اليهودى المتقدم ذكره، وتسمَّى بالمُظفَّر بالله، الناصر لدين الله، وكان غلامًا لم يبلغ الحلم، فاتَّفق على مبايعته وَزَراءُ جدِّه ووجوه صِنْهاجة، وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف بسِمَاجة، فاستقلَّ بحاله ورياسته، وكان لباديس وَلَدٌ خلف من البنين، وكان قد أعطاه فى حياته مدينة جيَّان، فكان ينهمك فى شرب من الخمر، ويحدِّث أحداثًا قبيحة من القتل، وكانت له كلبة سمَّاها لُبُّونَة، فمن أحدث له حادثًا أو استوجب عقوبةً، أمر به، فرُمِىَ إلى الكلبة، فأكَلَتْه، فتفرَّق الناسُ عنه وكرهوه، واتَّفقوا على تقديم عبد الله بن بُلكين المذكور فقام بأمره سِمَاجةُ خير قيام.

وطمع ابن عَبَّاد فى رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس، فحشد من كان عنده، واستكثر من الجند، وقدم إلى إغرَناطة، فبرز عليها، وبنى بقربها حِصنًا على ستَّة فراسخ منها، وملأه بالرُّماة والرَّجالة، وترك الخيل فيه مع قائده، وأمرهم بالضرب على إغرَناطة وجِهَاتها، فكان ذلك.

ثُمَّ لم يزل سِمَاجة يخدم الصبىَّ إلى أن بلغ مبلغ الرجال، فأراد الانفراد

بحاله، فنفى عن نفسه سِمَاجة، فلحق بألمَرِيَّة بمال كثير وحالة جسيمة، ولم يزل بها إلى أن هلك، وبقى عبد الله بن بلكين بغرناطة، وسيأتى خبرُه فى دولة المُرَابِطين إن شاء الله تعالى.

(٢)

وفى سنة ٤٨٢، طرد عبدُ الله بن بُلُكين من غرناطة مُقاتِلَ بن عَطِيَّة البرزالى[1]، وكان فارِسَ الإسلام، وهو مع إخوته فى ثلاثمائة فارس، فكان ذلك ابتداءَ نحوس عبد الله بن بلكين.

وفيها، قام مُؤَمَّل، مَولى بَادِيس بن حَبُّوس، فى قَصَبَة لَوْشة، على حفيد مولاه بدعوة لَمتُونة، فأخذه عبدُ الله وسجنه.

. . . .

فأوَّل من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحبُ إغرناطة عبدُ الله ابن بُلُكِّين، كما ذَكَرْنا، فنظر فى اختزان الأقوات، وألْحَقَ الرُّماة والرجال، وأعلى الأبراج، وبنى الأسوار، ووصَّل بعضها ببعض، وأقام عليها الدَّيْدَبَانات، ونصب الرعَّادات، وملأ بيوت السلاح، وجدَّ فى ضرب السِّهام، وبذل فى ذلك جهده، وإذا نفدت هذه، لم تغْن العُدَّة، ونقل المال والذخيرة، وخرَّج المتاع والآنية إلى قصبة المُنكَّب لكوْنها فى غاية المنعة وعلى ضفَّة البحر، ولم يستأصل ذلك لكثرته، وهدم حصونًا، وتوهَّم عليه القيام منها، ومن مأمَنِه يؤتى الحذر.

وعمد على مال كثير، وثياب نفيسة، وتُحَف جليلة، وأعلاق رفيعة، فوجَّه بها إلى الإذفونش، وكتب إليه متطارحًا عليه، مستجيراً به، وأعلمه أنَّ

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الزناتى».

البلد بلدُه، وأنه فيه فائدة، فاهتزَّ لذلك إذفونش، وقبل المال والهدايا، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد مِلَّته أن يشدَّ اليد عليه في ملكه، ولا يتركه لضَيْمٍ ولا هضيمة، وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جدَّه في نصره، وراجَعَه بمثل ذلك من قوله، فقويت نفسُ حفيد باديس بذلك.

وفي ذلك يقول السُّمْسَارِيُّ:

صاحِبُ غَرْناطة سَفِيهٌ
وأعْلَمُ الناس بالأُمور
صانَع إذْ فُونْشُ والنصارَى
فانْظُرْ إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافًا
لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاهًا
كأنّه دودة الحرير
دَعْوهُ يبنى فسَوْفَ يدرِى
إذا أتت قدرة القدير

واتَّصلت أَنباؤه بأمير المسلمين على حقيقتها، فاشتدَّ غضبُه، واستزاد جزعه.

وكان أبو جعفر القُلَيْعِيُّ من أهل إغرناطة فريد عصره في الخير والعلم والتلاوة، والمُشار إليه...

الملحق الثاني

منتخبات عن كتاب:

«الإحاطة فى تاريخ غرناطة»

للسان الدين ابن الخطيب السلمانى

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

ترجمة عبد الله بن بلكين[١]

عبد الله بن بُلُكِّين بن بَادِيس بن حَبُّوس بن ماكْسَن بن زِيرى بن مَنَاد الصِّنهاجىُّ أمير غرناطة.

أوَّلِيَّتُه: قد مرَّ ذلك فى اسم جدِّه ما فيه كفاية.

حاله: لَقَبُه المُظفَّر بالله، الناصر لدين الله، ولى بعد جدِّه الحاجب المظفَّر بالله فى شوَّال سنة ٤٦٥ وصحبه سِمَاجة الصِّنهاجىُّ تسع سنين.

قال الغافقىُّ: وكان قد حاز حظًّا وافرًا من البلاغة والمعرفة، شاعِرًا جيِّدَ الشعر، مطبوعَه، حسنَ الخط، كانت بغرناطة ربعة مُصْحَف بخطِّه فى نهاية الصنعة والإتقان.

ووصفَهُ ابنُ الصَّيْرفىّ، فقال: كان جبانًا، مغمد السيف، قلقًا، لا يثبت على الظهر، عِزْهاةً، لا أَرَبَ له فى النساء، هيَّابةً، مفرط الجزع، يخلد إلى الراحات، ويستوزر الأغمار.

خلعه: قال: وفى عام ٤٨٣، تحرَّك أمير المسلمين يوسف بن تاشُفِين لخلع رؤساء الأندلس، فأجاز البحر ويمَّم قُرْطُبة، وتواترت الأنباء على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يغيظه ويحقده، حسبما تقدَّم فى اسم مُؤمَّل مَوْلَى باديس وقدَّم إلى غرناطة أربع محلاَّت، فنزلت بمقربة منها، ولم تمتدَّ يدٌ إلى شىء بوَجْه، فسرَّ الناسُ واستبشروا، وأمنت البادية، وتسايَلَ أهلُ الحاضرة

---

(١) الإحاطة ٣/ ٣٧٩.

إلى القُرَى، وأسرع حفيدُ باديس فى المال، وألحقَ السوقة والحاكّة[1]، واستكثر من اللفيف، وألحَّ بالكتب على إذفُونْشُ بما يطمعه.

وتحقَّق يوسفُ بن تاشُفِين استشراف الحضرة إلى مَقْدَمه، فتحرَّك، وفى ليلة الأحد لثلاثِ عشرة خَلَتْ من رجب، اجتمع إلى حفيد باديس صَنَائعُه، فخوفوه من عاقبة التربُّص، وحملوه على الخروج إليه، فركب، وركبت أُمُّه، وخرجا، وتَرَكا القصر على حاله، ولقى أمير المسلمين على فرسخَيْن من المدينة، فترجَّل وسأله العفو، فعفَا عنه ووقف عليه، وأمره بالركوب، فركب وأقبل حتى نزل بالمشايخ[2] من خارج الحضرة، واضطربت المحلات، وأمر مُؤمَّلاً بثقاف القصر، فتولَّى ذلك.

وخرج الجمُّ من أهل المدينة، فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشُفِين، فقبلهم وأنَّسهم وسكَّن جانبَهم، فاطمأنُّوا، وسهَّل مؤمَّلٌ إليه دخول الأعيان، فأمر بكَتْب الصكوك ورفع أنواع القَبَالات والخَرَاج، إلا زكاة العين وصَدَقة الماشية وعشر الزرع، واستقصى ما كان بالقصر، فظهر على ما يحول الناظر، ويروع الخاطر، من الأعلاق والذخيرة والحلى، ونفيس الجَوْهَر، وأحجار الياقوت، وقصب الزمرُّد، وآنية الذهب والفضة، وأطباق البِلَّوْر المحكم، والجُرْجانيَّات، والعِراقيَّات، والثياب الرفيعة، والأنماط، والكلَل، والستائر، وأوطئة الديباج، ممَّا كان فى ادّخار باديس واكتسابه، وأقبلَتْ دوابُّ الظهر من المُنكَّب بأحمال السبيك والمسبوك، واختلفت أُمُّ عبد الله

---

(١) الحاكة: أعنى السفلة وأهل الشر، ومفردها (الحاك).

(٢) فى المطبوع «بالمشيخة» والمثبت من الإحاطة ٣/ ٣٨٠، وبهامشها: «هو، كما يبدو من ضواحى غرناطة الإسلامية يصعب اليوم تحديد موقعه.

لاستخراج ما أُودِعَ ببطن الأرض، حـتى لم يَبْق إلا الخرثى والثقل والسقط، وزَّع ذلك الأمير على قوَّاده، ولم يستأثر منه بشىء.

قـال: ورغب إليه مؤمل فى دخول القصر، فركب إليـه، وكثُر استحسانه إيَّاه، وأمر بحفظه وتفقُّد أوضاعه وأفْنِيَته.

ونُقِلَ عبـدُ الله إلى مَراكش، وسنُّه يومَ خُلِعَ خمس وثلاثون سنة وسـبعة أشهر، فاستـقرَّ بها هو وأخوه تَمِيم، وحُلَّ اعتقالُهمـا، ورُفِّهَ عنهما، وأجروا المُرَتَّب والمُساهـمة عليهما، وأحسن عبـد الله أداءَ الطاعة، مع لين الكلمة، فقُـضِيَتْ مآرِبُه، وأُسْعِـفَتْ رغباته، وخفَّ عَلَى الـدولة، فاستراح واسـتُرِيح معه، ورُزِق الوَلَدَ فى الخمول، فعاشَ له ابنان، وبِنْتٌ جمع لهم المال، فلما توُفى ترك لهم مالا جمّا.

مولده: وُلد عبد الله سنة ٤٤٧.

(٢)

ترجمة مقاتل بن عطية(١)

مُقاتِل بن عطيَّة البِرْزالىُّ، يكنى أبا حَرْب، قـال فيه أبو القاسم الغافِقىُّ: من أهل غـرناطة، ويُلَقَّب بذى الوزارتَيْن، ويعـرَّف بالرِّيُّه لحـمرةٍ كـانت فى وجهه.

حالُه: كان من الفرسان الشجعان، لا يصطلى نباره، وكان معه من قومه نحو من ثلاثمـائة فارس من بنى بِرْزَال، وولاَّهُ الأمير عـبد الله بن بلكين بن باديس مدينة الـيُسّانة، والتـقى به ابن عبَّاد وأخـذ بمخنقـها، وكان عـبد الله

---

(١) الإحاطة ٣/ ٢٩٩.

يحرزه، وعندما تحقَّق حركة اللمتونيِّين إليه، صرفه عن جهته، فقل لذلك قاصرُه، وأسرع ذهاب أمره:

شجاعتُه: قال: وحضر مُقاتل مع عبد الله بن بلكين أمير غرناطة وقيعة النيبَل فى صدر سنة ٤٧٨، فأبلى فيها بلاءً عظيمًا، وجرح وجهُه وخرق درعُه بالطعن والضرب، وذكر من حضرها ونجا منها، قال: كنتُ قد سقط الرمح من يدى ولم أشعر، وحملت الترس ولم أعلم به، وحملنى الله إلى طريق منجاة، فركبتُها مرة أقَعُ ومرةً أقوم، فأدركتُ فارسًا على فرس أدهم، ورمحه على عاتقه، ودرقتُه على فخذه، ودرعُه مهتكةٌ بالطعن، وبه جرحٌ فى وجهه يثعب دمًا تحت مِغْفَره، وهو مع ذلك ينهض على رسله، فرجعتُ إلى نفسى، فوجدتُ ثقلاً، فتذكَّرتُ الترس، فأخرجتُ حمالته عن عاتقى وألقيتُه عنِّى، فوجدتُ خفةً وعُدْتُ إلى العدوِّ، فصاح ذلك الفارس: خُذِ الترس!» قلتُ: «لا حاجة لى به!» فقال: «خُذْهُ!» فتركته ووليتُ مسرعًا، فهمز فرسه ووضع سنانَ رمحه بين كتفَىّ وقال: «خُذ الترس، وإلاَّ أخرجتُه بين كتفيْك فى صدرك!» فرأيتُ الموت الذى فَرَرْتُ منه، ورجعت إلى الترس، فأخذتُه، وأنا أدعو عليه، وأسرعتُ عدواً، فقال لى: «على ما كنت فليكن عدوَّك!» فاستعذتُ وقلتُ: «ما بعثه الله إلاَّ لهلاكى!» وإذا قطعة من خيل الروم قد بصرت به، فوقع فى نفسه أنه يسرع الجَرْى فيسلم وأُقْتَل، فلما ضاق الطلق ما بينه وبين أقربهم منه، عطف عليه كالعقاب وطعنه ووطره، وتخلَّص الرمح منه، ثمَّ حمل على آخر، فطعنه ومال على الثالث، فانهزم منه، فرجع إلى، وقد هبتُ من فعله، ورشاش دم الجرح يتطاير من قِناع المِغْفر لشدة نفسه، وقال لى: «يا فاعل! يا صانع! أتلقى الرمح، ومعك مُقاتِلُ الريَّة؟».

(٣)

ترجمـــة مؤمـــل[١]

مُؤَمَّل، مولى باديس بن حَبُّوس.

حـالُه ومِـحْنَتُـه: قال ابن الصَّـيْرَفى وقد ذكر عـبدَ الله بن بُلُكِّين حفـيدَ باديس، واستـشارته فى أمره لما بلغـه حركة يوسف بن تاشفـين إلى خَلْعه: وكان فى الجـملة من أحِبَّـابه رجلٌ من عـبـيد جـدّه اسمُه مُـؤَمَّل، وله سنٌّ، وعنده دهاءٌ وفطنةٌ ورأىٌ ونظرٌ.

قال فى موضع آخر: ولم يكن فى وزراء مـملكته وأحْبار[٢] دولته أصـيلُ الرأى جَزْلُ الكلمـة إلا ابن أبى خَيْثَمة من كتـبته، ومـؤَمَّل من عبيـد جدِّه، وجعفر من فِتْيانه.

رجع، قال: فـألطف به مؤمَّل فى القول، وأعلمـه برفق وحُسْنِ أدب أنَّ ذلك غـير صـواب، وأشار إليـه بالخروج إلى أمـير المـسلمين، إذا قَـرُبَ، والتطارُح عليه، فإنَّه لا يمكنه مدافعـته ولا يطاق حربه، والاستِجداَء[٣] لـه أحمد عـاقبة وأيمنُ مغبَّـة، وتابعه على ذلك نُظَراؤُه من أهل السنِّ والحنكة، ودافع فى صدر رأيه الغلمـة الأغمار، فاسـتشاط غيظًا على مـؤمل ومن نحا نحوه، وهمَّ بهم، فخـرجوا، وقد سلَّ[٤] بهم فرقًـا منه، فلما جنَّهم الليلُ، فرُّوا إلى لَوْشَـة، وبها من أبناءِ عـبيـد باديس قائدُها، فـملكوها وثاروا فيـها بدعوة أمير المسلمين يوسُف بن تاشُفين.

---

(١) الإحاطة ٣/ ٣٣١.

(٢) فى المطبوع: «وأحِبَّاء» والمثبت من الإحاطة التى ينقل منها.

(٣) فى المطبوع: «والاستخذاء» والمثبت من الإحاطة.

(٤) تحرف فى المطبوع إلى: «وقد سبل» وصوابه من الإحاطة.

وبادر مؤَمَّل بخطاب يوسف المذكور، وقد كان سفر إليه عن سلطانه، فأعجبه عقلاً ونبلاً، فاهتزَّ إليه، وكان أقوى الأسباب على حركته، وبادر حفيد باديس لأمره، فأشخص الجيش لنظره صهره، فتغلَّب عليهم، وسيق مؤَمَّل ومن كان معه شرَّ سوق فى الحديد، قد أُركبوا على دواب هجن، وكُشفت رؤوسهم، وأردف وراءَ كلِّ رجل من يصفعه، وتقدَّم الأمر فى نصب الجذوع وإحضار الرماة، وتلطفَ جعفر فى أمرهم وقال للأمير عبد الله: «إن قتلتَهم الآن، أطفأتَ غضبك وأذهبتَ مالك! فاستخرج المال، وأنت من وراء الانتقام!» فثقَّفهم، وأطمعوا فى أنفسهم ريثما شغله الهول، وأنفذ يوسف بن تاشفين فى حلٍّ اعتقالهم، فلم تسَعْهُ مخالفته فأطلقهم، ولما ملك غرناطة على تَفْيِئَة[1] تلك الحال، قدَّم مؤمَّلا على مُسْتَخْلَصه[2]، وجعل بيده مفاتيح قصره، فنال ما شاء من مال وحظوة، واقتنى ما أراد من صامت وذخيرة، ونُسبت إليه بغرناطة آثار، منها السِّقاية بباب الفخَّارين، والحَوْز المعروف بحَوْز مُؤمَّل[3]، أدركتُها، وهى بحالها.

وفاتُه: قال ابن الصَّيْرَفى: وفى ربيع الأوَّل من هذا العام، وهو عام ٤٩٢، توفِّى بغرناطة مؤَمَّل، مَولَى باديس بن حَبُّوس، عبدُ أمير المسلمين وجابى مُسْتَخْلَصه، وكان له دهاءٌ وصبرٌ، ولم يكن بقارئ ولا كاتب، رزقَه الله عند أمير المسلمين أيَّامَ حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً، ولما أشرف على المنيَّة، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَص، وأشهد الحاضرين

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «تفئيه» وصوابه من الإحاطة.

(٢) المستخلص هنا يقصد به الأملاك والأموال الأميرية (الإحاطة ٣/ ٣٣٣) حاشية!).

(٣) حوز مؤمل: اسم مكان بغرناطة الإسلامية كان يقع فى جنوب غربى الحمراء ويشتهر برياضه ومتنزهاته (الإحاطة ٣/ ٣٣٣ حاشية ٢) وتحرفت العبارة فى المطبوع إلى: «والحور المعروفة بحور مؤمل».

على دفعه إلى من استوثقه على حمله، ثمَّ ابرأ جميعَ عُمَّاله وكُتَّابه، وأنفذ رجلاً من صنائعه إلى أمير المسلمين بجملة من مال نفسه، يُريه أنَّ ذلك جميع ما اكتسبه فى دولته أيَّام خدمته، وأنَّ بيت المال أولى به، ورغب فى ستر أهله ووَلَده، فلما وصل ذلك إليه، أظهر الأسف عليه، وأمضى تقديم صنيعته.

ثمَّ ذكر ما كشف البحث عنه من محتجنه، وشقاء مَنْ خَلْفه بسببه، وعدَّد مالاً وذخيرةً.

openkandil.com

obeikandl.com

١- فهرس الأعلام

(أ)

أبو إبراهيم اليهودى (ابن نغرالة): ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٣، ٥٤.

ولد أبى إبراهيم اليهودى: ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٦، ٨٠، ٨٤، ١١٣، ١٦٦، ٢٤١.

ابن الأحسن السجلماسى: ١٣٠، ٢٠٦.

ابن الأحمر: ١٧٧.

أبو الأحوص بن صمادح (صاحب المرية): ٦١، ٦٢.

أختا عبد الله المؤلف: ١٧٢، ١٧٥.

الإذفونش: ٢٤٣، وانظر «ألفونش».

ابن أرقم ٦٩.

ابن الأصبحى: ١٢٢.

ابن أضحى الكاتب: ٨١، ٨٢.

ابن الأفطس = المتوكل

إفلاطون: ٢١، ٢٢.

البرهانش: ١٥٣، ١٥٤.

ألفونش السادس: ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩، ١١٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٨.

(ب)

باديس بن حبوس المظفر (جد عبد الله): ٢٤، ٢٦، ٤٢، ٤٣، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩٣، ١٠٥، ٢٤١، ٢٥١، ٢٥٢

باديس بن المنصور (أمير إفريقية): ٣٩.

باديس بن واروى: ١٧٨.

باطر (بطره): شولش: ٩١، ٩٦.

ابن البراء: ١٦٩.

بزلف (والى السوس): ١٩٦.

بقراط: ٢٢١.

ابن بكر: ٢٤.

أبو بكر بن مسكن: ١٤٨.

بلبار الصنهاجى: ١١٢.

بلكين بن باديس سيف الدولة (والد عبد الله المؤلف): ٢٦، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩.

بلكين بن حبوس: ٤٣، ٥٠.

بلكين بن زاوى بن زيرى: ٣٩.

(ت)

ابن تاقنوت: ١٢١، ١٢٢
تميم بن بلكين بن باديس المعز (أخو عبد الله المؤلف): ٦٦، ١١٥، ١٩٤، ١٩٥.

(ج)

الجاحظ: ٢٣٤.
جالينوس: ٢٢٢، ٢٢٨.
جعفر الخصى: ١٨٤، ٢٥١.
ابن أبى جوش: ١١١.

(ح)

حبوس بن ماكسن (أمير غرناطة): ٣١، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٧، ٤٩، ٥١.
الحجاج: ٢٢٨.
ابن الحديدى: ٩٩.
ابن الحسن النباهى (قاضى مالقة): ٨٢.

(خ)

ابن الخياط المنجم: ١٠٠.
ابن أبى خيثمة: ١٩١، ٢٥١.

(د)

داود بن عائشة: ١٣١.

(ذ)

ابن ذى النون: ٧٤، ٨٠، ٨٥، ٩٢، ٩٨، ٩٩.

(ر)

الراضى (ابن المعتمد بن عباد): ١٣١، ١٤٠، ٢٠٥.
أبو الربيع بن الماطونى: ٦٥، ١٦٣.
أبو الربيع النصرانى: ٨٦، ٨٧.
الرشيد (هارون): ٢٢٠.
الرشيد (ابن المعتمد بن عباد): ١٠٣.
ابن رشيق: ١٠٢، ١٠٣، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩.
الرومى أبو النصرانى = ألفونش السادس.
الريه (لقب مقاتل بن عطية البرزالى): ٢٤٩، ٢٥٠.
ابن الريوله: ١٠١.

(ز)

زاوى بن زيرى: ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧
زاوى الصنهاجى: ١١٢.
زهير (صاحب ألمرية): ٥١.
ابن الزيتونى القروى: ١٩١.

(س)

سراج الدولة: ١٠٤.
ابن سعدون: ١٨٣، ١٨٨.
ابن السقاء: ٦٢.
سقراط: ٢١، ٢٣٣، ٢٣٤.
ابن سلمون: ١٤٧.

سماجة الصنهاجى: ٩٨، ١٠٩، ١١١، ١١٣، ١٢٠، ١٢١، ٢١٥، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٩.

السمسارى: ٢٤٣.

ابن سهل (القاضى): ١٤٦، ١٤٩، ١٧٨.

السيد لذريق: ٢٠٩.

سير (الأمير المرابطى): ١٩٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨.

سيف الدولة = بلكين بن باديس والد عبد الله.

(ش)

شِشْلانْدُ: ٩٥.

(ص)

الصحراوى (أبو بكر عم يوسف بن تاشفين): ٢٠٦.

ابن صمادح = أبو الأحوص والمعتصم صاحبا ألمرية.

أبو الصمصام: ٢٠٦.

ابن الصيرفى: ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٢.

(ع)

ابن عباد (المعتضد بن عباد): ٦٠، ٦٣، ٧٦.

ابن عباد = المعتمد.

عباد ابن المعتمد: ٩٣.

العباس بن المتوكل بن الأفطس: ٢٠٨، ٢٠٩.

أبو العباس الحكيم: ١٦٥.

أبو العباس (كاتب حبوس): ٤٢.

ولد أبى العباس: ٤٧.

ولد عباس (كاتب زهير): ٥١، ٥٢.

عبد الله بن القروى: ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٧٧، ٧٨.

عبد الملك (القاضى): ١٣٠.

أم العلو (بنت عم ماكسن): ٨٦.

على بن أبى طالب: ٢١٩.

على بن القروى: ٤٩، ٥٣، ٥٥، ٥٦.

ابن عمار: ٩٧، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٢١.

عمر بن عبد العزيز: ٢٤.

(غ)

الغافقى (أبو القاسم): ٢٤٧.

(ف)

فرقان: ٤٩

الفضل بن المتوكل بن الأفطس: ٢٠٨، ٢٠٩.

(ق)

القادر (حفيد ابن ذى النون): ٩٩، ١٠٣، ١٨٦.

ولد القاضى (صاحب باغه): ٨٢، ٨٣، ٨٤.

قرور: ١٣٨، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٥.

ابن القطان: ٢٤١.
ابن القليعى، أبو جعفر: ١٣٧، ١٣٩، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٨، ٢٤٣.

(ك)

كباب بن تميت: ٩٧، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٥.

(ل)

لبيب الخصى: ١٦٧، ١٦٩، ١٨٤.
لذة الخادم: ١٩١.
ابن أبى لولا: ١٦٤.

(م)

ابن ما شاء الله: ١٨١
ماكسن بن باديس بن حبوس: ٥٧، ٥٩، ٦٤، ٦٦، ٧٣، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٩٧، ١١٩.
المأمون بن المعتمد: ٢٠٤.
المتوكل بن الأفطس: ١٣٢، ١٣٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠.
مجاهد (صاحب دانية): ٦١، ٦٢.
ولد مجاهد: ٨١، ١٠٠.
مخلوف بن ملول: ٧٦.
المرتضى: ٣٥، ٣٧، ٥٢.
ابن مرتين: ٩٣.
ابن المرة: ١٦٣، ١٦٥.
المستعين بن هود: ١٠٠.
مسكن بن حبوس المغرالى: ٧١، ٧٣، ٧٨، ٧٩.
المظفر (جد عبد الله): = باديس بن حبوس.
المعتصم بن صمادح (صاحب المرية): ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٩٣، ١١٣، ١١٤، ١٢٢، ١٣٢، ١٤٠، ١٧٦.
المعتضد = ابن عباد.
المعتمد بن عباد: ٩٢، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١١٥، ١٢٠، ١٢١، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٧، ١٥٨، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٤١، ٢٤٩.
معد بن يعلى: ١٧٢.
المعز بن باديس (أمير إفريقية): ٣٩، ٤٠، ٥٩.
المعز = تميم بن بلكين بن باديس.
معز الدولة بن المعتصم بن صمادح: ٢٠٢.
مقاتل بن عطية: ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٥٠.
مقاتل بن يحيى: ٦٣.
المقتدر بن هود: ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤.
ابن ملحان: ٩٣.

منذر بن هود: ١٠١.
المنصور بن أبى عامر: ٢٧، ٣١.
المنصور بن أبى عامر (صاحب شرق الأندلس): ٦١، ٦٢.
المنصور بن المتوكل بن الأفطس ٢٠٧، ٢٠٩.
المؤتمن بن هود: ١٠١.
موسى: ٢١.
موفق (صاحب المدينة): ٥٣.
مؤمَّل ١٤٨، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦، ١٨١، ١٨٨، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢.
ابن ميمون (أمين يهود اليسانة): ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥.

(ن)

الناية: ٦٣، ٦٩، ٧١، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢.
نعمان: ١٧٠، ١٧٦، ١٨١.

(هـ)

ابن هود = المقتدر.

(و)

واصل العلج: ٨٣، ٨٦.
والدة المؤلف: ١١٩، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢.
ولد حجاج = يوسف بن حجاج.

(ى)

يحيى بن يفران: ٧١، ٧٦.
يدير بن حباسة بن ماكسن: ٤١، ٤٣، ٤٧، ٤٩، ٥٠.
ابن يعيش: ٨٢.
ابن يكون: ١٧٧.
يوسف بن تاشفين أمير المسلمين: ١٣٤، ١٣٦، ١٥٧، ١٧٨، ١٨١، ٢٠٦، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٢.
يوسف بن حجاج: ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٨١.

٢- فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

الإفرنج: ٦١، ١٠٣.
البربر: ٣١، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٦١، ٧٩، ٨٣، ٨٦، ١١٨، ١٨٣.
بنو برزال: ٨٠، ٨٢.
بنو تاقنوت: ١٢٠، ١٢٣.
تلكاتة: ٧٦، ١١٢، ١٧٨.
بنو حمود: ٦٠.
الروم أو النصارى: ٩٢، ٩٥، ٩٨، ١٠٥، ١١٤، ١١٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٩، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٧، ١٨٥، ٢٠٩، ٢٥٠.
زناتة: ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠.
بنو زيرى: ١٥٨.
صنهاجة: ٣٨، ٤٠، ٤٩، ٥٠، ٧١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩، ٢٤١.
بنو عباد: ٦٣، ١٠٢، ١٩٩.
بنو اللوارنكى: ٩٩.
لمتونة: ٢٤٢.
المرابطون: ٦٢، ١٠٤، ١٠٩، ١٢٩، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٧١، ١٨٢، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢٤٢.
المغاربة: ٧٦، ٧٩، ٨٠، ١٥٠، ١٨٤.
بنو مغيث: ٩٩.
اليهود: ٧٩، ١٦٣، ١٦٥.

obeikandi.com

٣- فهرس الأعلام الجغرافية

أرجذونة (Archidona): ١١٧، ١٢٠.
إسطبة (Estepa): ٩٧
إشبيلية (Séille): ٩٧، ١١٥، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٥٩، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٩.
أشتنير: ١١٦.
حصن آشر (Iznajar): ٣٤.
إغرناطة = غرناطة
أساغمات: ٢٠٦.
إلبيرة (Elvira): ٣٣، ٣٥.
ألمـــرية: ٥١، ٥٢، ٦١، ٦٢، ٧٥، ٩٣، ١١٣، ١١٤، ١٥٣، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٤٢.
أنتقيرة (Antequera): ١٢٠.
أيرُش: ١١٧.
باب الفخارين (بغرناطة): ٢٥٢.
باب فنتنالة (بمالقة): ١١٨.
باغه (Priego): ٦١، ٨٤.
بزليانة: ١١٦، ١١٧.
بسطة (Baza): ٩٣.
بطلـيــوس (Badajoz): ١٣٢، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨.
بلنسية (Valence): ٩٩، ٢٠٧، ٢٠٩.
بليلش (Vrlillos): ٩٢، ٩٣، ٩٦.
بياسة (Baeza): ٨٠، ٨١، ١٢١.
تدلس (Dellys): ٢٠٣.
تدمير: ١٠٢.
الجبل (نظر): ١٤١.
جريشة: ١٢٢، ١٣٢.
الجزائر (Alger): ٢٠٣.
جزيرة الأندلس: ١٢٩، ١٣٥.
الجزيرة الخضراء (Algeciras): ١٣٠، ١٣١، ١٩٣.
جطرون (Jotrón): ١١٧، ١١٩.
جليقية (Galice): ٩٥.
جيـان (Jaén): ٣٤، ٧٣، ٧٨، ٧٩، ٩٧، ١١٩، ٢٤١.
حمارش: ١١٩.
الحمراء (Alhambra): بغرناطة: ٧٢، ١٦٣.
الحمة (Alhama): ١١٦.
حوز مؤمل (بغرناطة): ٢٥٢.
دانية (Denia): ٦٢، ١٠٠، ١٠١.
الرملة (La Rambla): بغرناطة ٤٩.
رندة (Ronda): ٢٠٥.
ريه: ١١٦.
ريينة: ١١٧، ١١٩.
الزاوية (La zubia): ٣٦.
الزلاقة (Sagrajas): ١٢٩، ١٣٢.

سبتة (Ceuta): ١٣٠، ١٣١، ١٥٩، ١٧٨.
سرقسطة (Sarahosse): ١٠٣، ١٥٣.
السطح (عمل): ٣٦، ٤٩.
السوس: ١٩٥، ١٩٦.
شاط (Jete): ١١٥.
شربة: ١٤١.
شرق الأندلس: ٧٨، ١٠٣، ١٥٣.
شقورة (Sehura): ١٠٣، ١٠٤.
شلير (Sierra Navada): ٣٦.
شنت أقلج: ٩٣.
شنت مرية (Santa Maria): ١٠٣.
شنيلى (Genil): ٣٦.
شليش: ٩٣.
صالحة (Zalia): ١١٥.
الصحراء (Sahara): ١٩١.
صخرة حبيب: ١١٧.
صخرة دومس: ١١٦.
طرلبش: ١١٤.
طليطلة (Toléde): ٧٤، ٨٠، ٨٤، ٩٥، ٩٩، ١٠٣، ١٢٩،
العدوة (Maroc): ١٤٩، ١٥٠، ١٩٩.
الغربية: ١١٩.
غرناطة (Grenade): ٣٤، ٤٠، ٥١، ٦٠، ٦٣، ٧٠، ٧٢، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٩٢، ٩٤، ٩٧، ١٠٩، ١١٣، ١١٧، ١٣٥، ١٤١، ١٤٦، ١٥٣، ١٥٩، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٣٦، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٢.
فحص غرناطة: ٩٢، ١٨٥.
فنيانة (Finana): ٧٧، ٧٨، ١١٣.
الفونت (Alfuente): ٥١.
قاشتره: ٩٧.
قامرة: ١١٩.
قبريرة: ٧٢.
قبرة (Cabra): ٦١، ٨٢، ٨٤.
قرطبة (Cordoue): ٦٠، ٦٢، ٩٢، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٨٦، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥.
قرطمة (Cartama): ١١٩.
قرمونة (Carmona): ٢٠٥.
القصر (حصن): ١١٦.
قلعة أسطلير (Alcala la Real): ٩٧.
قلعة حماد: ٢٠٢.
قولجر: ٤٩.
القيروان: ٣٩، ٤٠.
لرقة (Lorca): ٦١.
لوشة (Loja): ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦، ١٨٤، ٢٤٢.
ليط (Aledo): ١٠٤، ١٢٩، ١٣٦،

١٣٧، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٥،
١٧٧، ٢٠٠، ٢٠٨.
مارتش (Martos): ٩٧.
مالقة (Malaga): ٥٩، ٦٠، ٦٣،
٧٦، ٨٢، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٣٠،
١٣٥، ١٤١، ١٧١، ١٩٤، ١٩٦.
المدينة: ٣٥.
مراكش: ١٣٠، ٢٠٦ (وانظر مروكش)
مرسية (Murcie): ٩٨، ١٠٢، ١٠٤،
١٣٦، ١٣٨، ١٤٠، ١٧٧، ٢٤٩.
مروكش: ١٥٥، ١٩٤، ٢٠٦.
مرية بلش (Velez Malaga): ١١٦.
المشايخ: ٢٤٨.
المطمر: ٩٧.
مكناسة الزيتون: ١٤٦، ١٩٣، ١٩٤،
١٩٥، ٢٠٤، ٢٠٦.
منت ماس: ١١٧.
المنتورى: ١١٣، ١١٤.
المنكب (Almunecars): ٦١، ٧١،
١١١، ١١٥، ١٥١، ١٩٢، ٢٤٢.
ميشش (Mijas): ١١٩.
النيبل (Nivar): ١٥٩، ٢٥٠.
نيمش: ١٢١.
وادى آش (Guadix): ٥٥، ٦١، ٧٢،
٧٤، ٧٥، ٧٦، ٨٢، ٨٣، ١١١،
١١٢، ١٤١، ١٥٣.
اليسانة (Lucena): ١٦٣، ١٦٤،
١٧٧، ١٨١، ٢٤٩.

٤- فهــــــرس الموضوعات

الموضـــــــــوع — الصفحة

مقدمة هذه الطبعة — ٥

مقدمة الطبعة الأولى — ٧

الفصل الأول

نظرات عامة للمؤلف

١- القواعد التى يتعين للمؤلف اتباعها — ١٥

٢- حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به. — ١٧

٣- قصور القياس دون عون من الوحى — ١٩

٤- ضرورة التعليم والتجربة — ٢٣

٥- التكوين السياسى للمؤلف — ٢٤

٦- صعوبة الإنصاف التأريخى — ٢٦

٧- المصادفة وأثرها فى التأريخ، مثل المنصور — ٢٧

الفصل الثانى

الأحداث الممهدة لقيام دولة بنى زيرى وأوليات هذه الدولة، أيام زاوى بن زيرى وحبوس بن ماكسن

٨- الإصلاح العسكرى الذى أدخله المنصور، قدوم بنى زيرى إلى الأندلس وقيام دول الطوائف — ٣١

٩- استقرار بنى زيرى فى إلبيرة بناء على طلب أهلها — ٣٣

١٠- رد الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيرى اختطاط غرناطة — ٣٤

١١- خروج المرتضى لحرب بنى زيرى وهزيمته — ٣٧

١٢- رحيل زاوى بن زيرى إلى إفريقية وموته هناك مسمومًا — ٣٨

١٣- إمارة حبوس بن ماكسن — ٤٠

١٤- المؤامرات التى دبرت لإسناد الإمارة إلى يدير بن حباسة موت حبوس — ٤١

obeikandl.com

الموضـــــــــوع — الصفحة

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس (١) من أوليتها إلى موت ابن نغرالة

١٥- أولية إمارة باديس بن حبوس وتعاظم الوزير اليهودى أبى إبراهيم ٤٧
١٦- فشل المؤامرة التى دبرها يدير بن حباسة ضد باديس ٤٩
١٧- انتصار باديس على زهير صاحب المرية ٥١
١٨- شخصية الأمير بلكين سيف الدولة والد المؤلف ٥٢
١٩- نشاط يوسف بن نغرالة اليهودى ومؤامراته ٥٣
٢٠- موت الأمير بلكين مسمومًا ٥٦
٢١- ما بلغ ابن نغرالة من المكان الأرفع ٥٩
٢٢- استيلاء باديس على مالقة ٥٩
٢٣- علاقات باديس ببنى صمادح أصحاب ألمرية ٦١
٢٤- وصول الناية إلى غرناطة حظوته ومنافسته لليهودى ٦٣
٢٥- إجلاء الأمير ماكسن بن باديس ٦٤

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس (٢) من موت ابن نغرالة إلى نهايتها

٢٦- مؤامرة الوزير اليهودى ابن نغرالة، ثورة صنهاجة عليه وقتله ٦٩
٢٧- الحركة الموفقـة التى قام بها باديس لانتزاع وادى آش من أيدى ابن صمادح ٧٤
٢٨- الحركة الموفقة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد ٧٦
٢٩- الكشف عن أمر فنيانة وقتنتها ٧٧
٣٠- استيلاء باديس على مدينة جيان ٧٩
٣١- استيلاء الناية على بياسة ٨٠
٣٢- مؤامرة ضد الناية ومقتله ٨٢
٣٣- استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة ٨٤

الموضـــــــــوع الصفحة

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب (١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله ٩١
٣٤- رفض مطالب ألفونش السادس واشتراكه مع بن عمار ٩١
٣٥- المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب المرية ٩٣
٣٦- مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه ٩٣
٣٧- استيلاء ألفونش السادس على طليطلة ٩٨
٣٨- استيلاء ابن هود على دانية، بعض أخبار بنى هود ١٠٠
٣٩- ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق، أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع ١٠٢
٤٠- عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشبيلية ١٠٤
٤١- المؤلف يتحدث عن منهجه فى كتابة مذكراته ١٠٥

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب
(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين
٤٢- عزل الوزير سماجة، ثم إجلاؤه واستقلال عبد الله فى الأمر ١٠٩
٤٣- النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية، تعاقب أحداثه وحله ١١٣
٤٤- توجيه عسكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف، ونصره إياه ١١٥
٤٥- ذكر ثورة كباب بن تميت وثورة بنى تاقنوت ونهايتهما ١٢٠

الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس، مؤلف هذا الكتاب
(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاق ومحاصرة حصن لييط

الموضـــــــوع	الصفحة

٤٦- مقدمات تدخل المرابطين فى شؤون الأندلس ١٢٩

٤٧- إرسال سـفارات أندلسية إلى مـراكش، احتلال المـرابطين الجزيرة الخضراء ١٣٠

٤٨- تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد ١٣٢

٤٩- موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس ١٣٢

٥٠- يوسف بن تاشفين يعـقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المـعركة بدء الخلاف بين المتحالفين. ١٣٤

٥١- عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، حصار حصين لييط ١٣٦

٥٢- محاصرة لييط تصور فوضى ملوك الطوائف فى ذلك الحين ١٣٧

٥٣- النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيق ١٣٨

٥٤- رفع الحصار عن لييط، تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم ١٤٠

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لييط، إجراءات دفاعية وسياسية ١٤٥

٥٥- تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لييط مسلك قرور ١٤٥

٥٦- بعض المؤامرات وتخاذل القليعى ١٤٦

٥٧- سيرة الجند مع الأمير فى ذلك الحين تشييد الحصون ١٥٠

٥٨- معاقدة عبد الله مع البرهانش وكيل ألفونش السادس ١٥٣

٥٩- التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه ١٥٥

٦٠- تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله يبرر مسلكه ١٥٧

الفصل التاسع

إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة

٦١- ثورة يهود مدينة اليسانة ١٦٣

الموضـــــــــوع	الصفحة

٦٢- قضية زناتة ١٦٥

٦٣- انقلاب مؤمل وثورته فى لوشة ١٦٨

٦٤- وصف الثائر نعمات وسيرته ضد عبد الله ١٧١

٦٥- مسألة زواج الأميرتين أختى عبد الله ١٧٢

٦٦- حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله ١٧٤

٦٧- رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختى المؤلف ١٧٥

٦٨- تدخل الأمير عبد الله فى مسألة مرسية وغضب المعتمد ١٧٧

٦٩- إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبتة من قبل عبد الله وإيقاع الخوف فى نفسه بعد رجوعها ١٧٨

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(٦) استسلامه السلطان المرابطى، سجنه، إخراجه من الأندلس ونفيه

٧٠- عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته إياه ١٨١

٧١- وصول الجيش المرابطى قبالة غرناطة ١٨٢

٧٢- الحالة داخل حضرة غرناطة ١٨٣

٧٣- لا يجد عبد الله مخرجًا إلا بالتسليم ١٨٥

٧٤- تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله ١٨٧

٧٥- نفى الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى ١٩٣

٧٦- عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله ونفيه ١٩٤

الفصل الحادى عشر

عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

٧٧- موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة ١٩٩

٧٨- حركات المرابطين على المرية ٢٠١

٧٩- توتر العلاقات بين الأمير المرابطى والمعتمد ٢٠٣

٨٠- الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عباد. ٢٠٤

الموضـــــــوع	الصفحة
٨١- قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكش	٢٠٦
٨٢- عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس ومهلكه	٢٠٦
٨٣- نشاط المرابطين ضد النصارى استيلاء «السيد» لذريق على بلنسية	٢٠٩
٨٤- تأملات فى تقلب الأقدار	٢١٠
الفصل الثانى عشر	
تأملات أخيرة بعد النفى	
٨٥- المؤلف والشعر	٢١٥
٨٦- استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره	٢١٥
٨٧- آراء المؤلف فى التنجيم	٢١٧
٨٨- آراء طبية فى الأغذية والنبيذ	٢١٩
٨٩- رجع الكلام عن التنجيم	٢٢٤
٩٠- مسائل فلكية	٢٢٧
٩١- تحديد العلوم الطبيعية والطب	٢٢٧
٩٢- نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم	٢٢٩
٩٣- حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب	٢٣٠
٩٤- تأملات نظرية وأمثلة يضربها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا	٢٣١
٩٥- يتحدث المؤلف عن أولاده	٢٣٣
٩٦- توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه	٢٣٥
٩٧- يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة	٢٣٦
الملحق الأول	
منتخبات من «كتاب البيان المغرب» لابن عذارى المراكشى عن دولة الأمير عبد الله	٢٤١

obeikandl.com

الموضـــــوع	الصفحة

الملحق الثانى

منتخبات عن «كتاب الإحاطة فى تاريخ غرناطة»

للسان الدين ابن الخطيب
١-ترجمة عبد الله بن بلكين ٢٤٧
٢- ترجمة مقاتل بن عطية ٢٤٩
٣- ترجمة مؤمل ٢٥١
فهارس الكتاب
١- فهرس الأعلام ٢٥٥
٢- فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات ٢٦٠
٣- فهرس الأعلام الجغرافية ٢٦١
٤- فهرس الموضوعات ٢٦٥
٥- مراجع التحقيق ٢٧٢

obeikandl.com

٥- مراجع التحقيق

- الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، مكتبة الخانجى بالقاهرة ٢٠٠١م.
- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى، دار الثقافة - بيروت ١٩٩٨م.
- تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١م.
- الروض المعطار للحميرى، بيروت ١٩٨٤م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى، القاهرة ١٩٥٦م وما بعدها.
- سير أعلام النبلاء للذهبى، مؤسسة الرسالة ١٩٥٢م.
- صفة جزيرة الأندلس، للحميرى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧.
- قضاة الأندلس، المرقبة العليا، للنباهى، بيروت - بدون تاريخ.
- مجمع الأمثال، للميدانى، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٩٥٥م.
- معجم البلدان لياقوت، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٧م.
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.

obeikandl.com

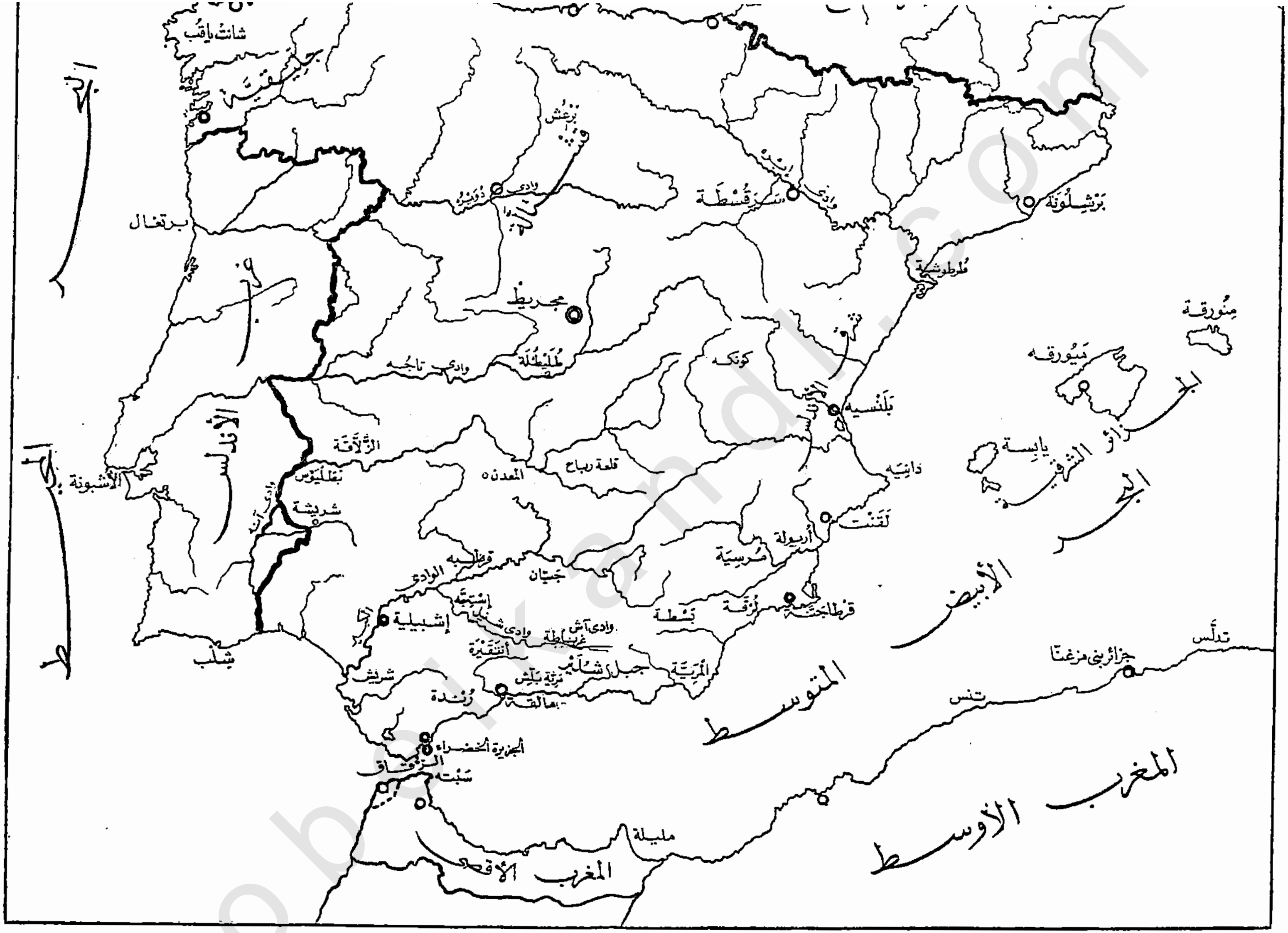

خريطة جزيرة الأندلس في عهد ملوك الطوائف